ديزيره سقال

الأعمال الشعرية الكاملة

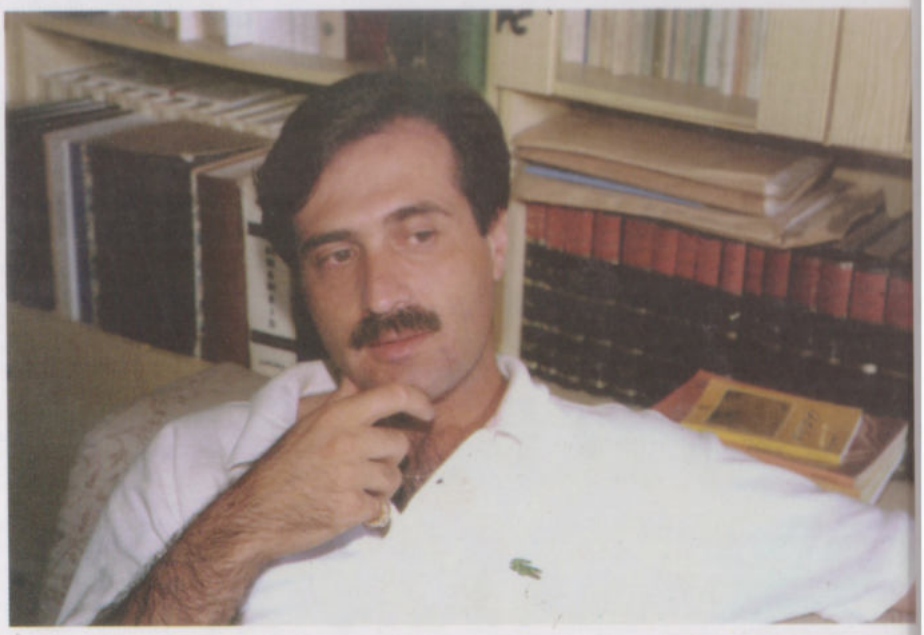

الجزء الأول

الأعمال السياسية

الدار الصحفية العربية للأبحاث والنشر والتوزيع

دیزیره سقال

الأعمال الشعرية الكاملة

- ١ -

(الأعمال السياسية)

الدار الصحفية العربية للأبحاث والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ١٩٩٨

المجموعة الأولى:

رؤيا
لتاريخ أبي عبد الله

بيان الشعر

- ١ -

حين تنطفئ حركية التاريخ في مهزلة القيم، ويصير الإنسان سلعة بسيطة بين يدي تجار المصير،

حين يغدو الزمن سيلا يجرف معه كل شيء، حتى الفرح، حتى الطموح، وتغرق الرؤيا في الحطام،

حين يصير الدين سيفا في أيدي المرتزقة والوثنيين، ويختلط لغط الحشر بهملجة الموت،

حين نموت ونحن نظن أننا نحيا، ونكسر الإيمان بالكفر، ونحول الورود رصاصا، والمهازل قيما،

حين نفقد قلبنا في زمن لا قلب له يغيب حتى النبض، حتى الدم في العروق،

كيف نعثر على الشعر، وكيف نهتدي إلى ملكوته؟

- ٢ -

لقد مر العالم العربي حديثا بتحولات هائلة، عنيفة، هزته هزا، وانعكست على حياته الجماعية بكاملها. وأعنف هذه التحولات

على الإطلاق سياسيّ، يمكن أن يتحدّد في نشوء الكيان الإسرائيليّ منذ العام ١٩٤٨، وفي حروب العرب معه، من جهة، وفي فشل الأنظمة الثوريّة كلّها فشلاً تامًّا في تحقيق أيّ تقدّم يُذكَرُ على صعيد الحياة السياسية العربية، وفي مواجهة العدوّ الذي انعكس في طرفين أساسيين: الصهيونيّة / إسرائيل، والأمبرياليّة / الغرب.

كانت "نكسة" حزيران ١٩٦٧ ضربة رهيبة خلخلتِ الفكرَ العربي، وأوجبت إعادةَ النظر في كلّ شيء: في حياة الإنسان وواقعه، وحضارته، وموقفه من الآخر؛ في وجوده ونوعيّة هذا الوجود؛ وفي الأنظمة نفسها التي تُعتَبَر أساسَ المواجهة. على أنّ الأنظمةَ لم يتغيّر فيها شيء حقيقيّ على الإطلاق، وتحوّل الفكر الثوريّ داخلَها إلى تعبئة متقاعسة، ثابتة، تُحيل النضالَ رضوخًا باسم الثورة، والمؤسّسةَ هيكلا محنّطًا، أو نصبًا مقدّدًا باسم التحوّل، وبالتالي، تُفرِغ فكرَ الإنسانَ من كلّ ما سواها، وتنزع عنه ذاتيّتَه وإمكانات تحوُّله، لتملأه بذاتها، وتنفي كلّ عمل يُعاديها، وإن كان تصحيحيًّا. هكذا غدا النظام الثوريّ نظامًا توتاليتاريًّا، يسحق ما عَداه، ويُعلِن، ضِمْنًا، أنّه هو الغاية النهائية في حركة الحياة كلّها: سياسيًّا، وحضاريًّا، واقتصاديًّا، وفكريًّا... ولم يعد مبدأ الديمقراطيّة في البلاد العربية إلا لفظة جوفاء، أو شعارًا فارغًا يُرفَع في أوقات العسر، أو في الخطب

الاستهلاكيّة. وراحت الحياة تغرق، أكثر فأكثر. في لجّة المأساة. حتّى صار الواقعُ ألمًا مُضنِيًا، وتراجُعًا عنيفًا، يقضي على كلّ إمكان تحوُّل في الذات؛ ولم تعد إعادةُ النظر في الواقع إلا أملاً بعيدَ المَنال. تنادي به أصواتٌ هنا وهناك...

لِنُعِدْ طرحَ السؤال على أنفسنا، إذًا: مَن نحن؟ إنّ الهمَّ الحضاريّ الذي حملته حركةُ الحداثة العربية قبلَ "النكسة" تكشّف عن بَوار، وارتدّ يأسًا على الواقع، يقبع في ظلّ الأنظمة، ويُهادِنُ التقاعسَ والخمول، فينكفئُ الأمل. مَن نحن في ظلّ واقع كهذا؟ ليسَ من العسير علينا أن نرى إلى أنفسِنا اليومَ جثثًا محنّطةً، أتلفَتها حضارةٌ تعيش في الماضي، وأخرى مُستَرفَدَةٌ ليست من طبيعة ذاتِنا. لقد انحرف النضالُ إلى ذاته فدمّرها، وارتدّ الفكرُ سلبيّةً تتزيّا بزيٍّ من الإيجابيّة المموَّهة، وصارَ العقلُ عِبئًا على صاحبه في هذه الخريطة الممتدّة التي تُدعى "الشرق الأوسط"، و"العالم العربيّ".

ماذا فعلنا لنستحقّ أنفسَنا؟ إنّ الرؤيا العنيفةَ التي تلتهم عيونَنا يومًا بعدَ يوم ناقوسٌ يؤذن بالخطر. فالتراجع الدؤوب الذي نستمرّ عليه يُفرِغُ الظاهرةَ من ذاتها ليملأها بالعدم. نعم، نحن، شيئًا فشيئًا، أمامَ العَدَمِ والإعدام، ولا نقوم بأيّ عمل لدفعهما. ليس انتحار خليل حاوي إلاّ صرخة فريدة، عنيفة، بوجه المَلهاة الطويلة التي

يمثلها المحيط العربي برمته، من غير أن يعيد النظر في أي شيء، ومن غير أن يقوم، من جديد، أي شيء. نحن لم نستحق أنفسنا قط، فمتى نستحق أن نكون؟

في ظل هذا الضياع الصعب، ماذا يفعل الشعر؟ هل يكتفي بإخراجنا من الواقع – المأساة ليلقي بنا في أحضان حلم جميل، لا يكون، بعد، إلا حلما؟ هل يرفض الواقع ليخربه، ويكتفي برفضه وتخريبه؟ هل يتقنع بإيجابية مزعومة ليدعم الأنظمة التي أنهكتها السلبية؟

إن وظيفة الشعر أن يخترق الواقع، ولكن لا ليحلم أو يزيف، بل ليجاهر ويصرح. ليست وظيفته أن يقول ما لا يقال، وأن يكسر طوق الحصار عن الكلمة، فيحررها بكرا، مليئة بمادتها، لا تكرارا مصطنعا لزمن مات وانتهى، أو لمؤسسة حجرها الموت، فاستحال عليها الانبعاث.

لكن شعر ما بعد "النكسة" لم يفعل ذلك، بنظري، إلا نادرا. معظم ما فعل ذلك من الشعر غرق في الشكلية، وفرض على نفسه قيودا من الشكل حولته إلى أحجية، أو إلى صور لا تدر كثيرا. أن نحدد الشعر لا يعني أن نتغرب، بل أن نغوص على عمق التراث وجذوره، فنبعثه من جموده. لذلك علينا ألا نغرق في تلك الشطحات المستوردة

التي لا تثري ثقافتنا وتراثنا كبير إثراء؛ فالكتابة، في ظل الظروف التي ذكرت عمل صعب جدا، لأنها تستدعي مجهودا خارقا من الشفوفية، والإخلاص، والبعد عن التمويه، والجهر، كيلا تكون كاذبة ومموهة. ولئن كان لزاما علينا غربلة ما نكتبه من التعفن، والجهل المموه، والتعصب القاتل، والانجراف اللامجدي، فإن هذه الغربلة هي بهدف إعادة تشكيل كتابة حقيقية على مستوى الشعر تفضح الواقع، وتعيد النظر، حقيقة، في ما أمامنا. وليس واجبا على الشاعر أن يلزم نفسه بنمط خاص من أنماط الكتابة، أو بنسق خاص من أنساق التعبير، لكي يصير شاعرا في نظر غيره، بل عليه أن يكتب بتجرد وبصدق تامين، ما يرى ويعي. فليس علينا أن نكون بنيويين، أو شكليين، أو كلاسيكيين، أو ما سوى ذلك من التمذهب الكثير لنكون شعراء عصريين، فقد يحول الشاعر الحق حتى النسق التقليدي للنظم إلى وعاء لشعر عظيم، وجديد كل الجدة.

القضية الشعرية بعد النكسة، ولا سيما في الستينات، هي في نظري، لم الشتات، والنفاذ بالرؤيا إلى جوهر القضية الشعرية – وهي، حتما، ليست مجرد تغيير شكل أو نمط من التعبير، بل قضية تغيير الحياة نفسها، ومفهوم الحياة. إنها قضية تأسيس، لا قضية تمأسس! لذلك على الشعر ألا يستحيل إلى مؤسسة، لأنه أصبح – ولا سيما في

بيروت – أشبه بدكاكين البقالين، كل يدعو إلى بضاعته، ويحاول أن يروجها، وتحول نقد الشعر إلى رياء، تمسك بها زمر إعلامية من منابرها، فتدعو إلى آرائها، وتذم ما عداها. من غير أن تنقده نقدا سويا، وموضوعيا، وهذا أسوأ من تعتيم الفكر، لأنه قضاء مدروس على الفكر نفسه! وما أكثر ما نقرأ في المقالات التي يدرجها مروجوها في إطار النقد على صفحات الجرائد والمجلات والصحف. في بيروت أو في غيرها، وهي تخلو خلوا تاما من الجدية والموضوعية. فتُحشر فيها تعابير واصطلاحات حديثة، بنيوية أو فلسفية، لا تتلاقى، أو لا يحتمل النص منها شيئا! وما أكثر ما نجد مدحا لدواوين أو لشعراء لا يستحقون منا حتى الإشفاق، في مقالات مطولة أحيانا، ومختصرة أخرى، سطرتها أقلام ضعاف النفسية، من "حاملي المباخر"، والمأجورين، والمرتهنين، ومدعي العلم والفكر...

– ٤ –

الشعر فعل كتابة، ولكنه فعل فكر وخلق ومعاناة واختراق وكشف أيضا. وهو، وإن خرب السائد كثيرا، عليه أن يشفّ عن موقف واع وناضج من الوجود، كيلا يستحيل فوضى وهدما من غير جدوى. وفي فعل الكتابة تجد الذات طريقا للتعبير عن كشفها. فليس

التجريد وحده الوسيلة الفضلى للتعبير، ولا البعد عنه وتجنبه أيضا. في الواقع، ما من طريقة مثلى للتعبير تصلح دون سواها، وما من شكل يصلح دون غيره ليستوعب المضمون. إن السؤال الذي طرحه بعضهم: "كيف أكتب؟" ينبغي أن يكون، عندي: "لماذا أكتب؟" عندئذ يمكن أن يلقى جوابا في غمرة الضياع التي تعيش فيه هذه المرحلة. إن المضمون والشكل كل لا يجزأ، والفكرة هي التي تحمل معها شكلها في إطار الكشف الذي تعبر عنه. وكل شكل صالح للكتابة في كل زمان ومكان ما لم يفرض على الفكرة تحويرا لحسابه.

ولكن، أليس صحيحا أن نماذج الأنظمة هي التي فرضت على الشعر نماذجه الثابتة؟ أليست دكاكين الشعر التي نعرف وزمر مدعي النقد أشبه بالأنظمة المغلقة ومؤسساتها المنحازة؟ أليست هذه الدكاكين والزمر تلغي مبدأ الديمقراطية باسم الحرية، وتكفر من يعارضها، أو تحاول دائبة أن تنحيه جانبا، حتى في لبنان الذي كان المعقل الوحيد والأخير للديمقراطية في العالم العربي المحيط؟

على الشعر أن يتجرد ويعلو على كل هذا. علينا الآن أن نعيد بناء ثقافتنا من غير انحياز أو انجراف، أن نقوم كل شيء، ونستخرج من بحر الرماد المديد لمع الآتي، وإمكانات المستقبل...

(١٩٨٥)

"ويروى أن عبد الله قد أعطي ضيعة يقيم فيها، فخرج وأهله من قصر الحمراء حزينا منخلع القلب، ومشى مطرقا إلى منفاه، حتى إذا انعطف به الطريق وكادت الحمراء تتوارى عنه، أرسل إليه النظرة الأخيرة، وهطلت عيناه بالدموع، فقالت له أمه عائشة:

إبك مثل النساء ملكا مضاعا

لم تحافظ عليه مثل الرجال

ولا يزال هذا الموضع يسمى إلى اليوم "زفرة العربي"..."

(تاريخ العرب)

محاولة للدخول إلى تاريخ أبي عبد الله

- ١ -

مِنْ أينَ نأتي والدروبُ إليكَ تُخفيها مَتاهاتُ
الدروبِ؟ بَقيّةٌ جَفَّتْ، طريقٌ بائدٌ، قَدَرٌ تَقَمَّصَ عَظْمَكَ المَكسورَ... مِنْ
أينَ ابتِداؤُكَ وانتِهاؤُكَ؟ حينَ تحتَرِفُ انسِحابَكَ نَرتَقيكَ ولا نرى،
وندوسُ وَجهَكَ، لا نرى،
ونُثيرُ مَكْسَرَكَ الطويلَ ولا نرى... -
مِن أينَ نأتي
والدروب إليكَ تُخفيها مَتاهاتُ الدخولْ؟

- ٢ -

نَتْنٌ على جُرحِكَ
والتاريخُ في عينيكَ نَتْنُ؛
فَعَلامَ تَزهو،
أمْ تُراكَ الآنَ نحنُ؟

- ٣ -

تَنسى، فلا كَمَنَتْ فُتوحٌ في رمالِكَ. كيفَ تَنسى؟
ذاكُمُ التاريخُ: مرحلةٌ، محاولةٌ...
تُقَسِّمُ وجهَكَ المأجورَ،
تخترعُ النقيضَ،
وها هو التاريخُ يُكسَرُ كالهواءِ
فكيفَ نأتي؟

- ٤ -

نَتْنٌ على جرحكَ
والتاريخُ في عينيكَ نَتْنُ؛
فعلامَ تَزْهو،
أمْ تُراكَ الآنَ نحنُ؟

مداخلُ إلى تاريخ
أبي عبد الله

– مدخل أوّل –

حين تنكسرُ الأرض كرمحٍ
تكسر وجهَكَ وتنغلق –
جُثّةً كوكبيّةً،
أرضًا أقفلَتْ أبوابَها...

حينَ تنكسِرُ الأرضُ كرمحٍ
لا يبقى سوى تاريخ الخروج
أوما انغلَق
من كتاب للهجرة،
وما هاجرَ
من غيمِ الرحيل الأبديّ...

– مدخل ثانٍ –

في البداية
كانَ الأفقُ شجرة والحكايةُ بابًا،

ثمَّ

لم تعد ثمّةَ بدايةٌ،

وانقفَلْنا.

– مدخل ثالث –

تعرف أن ترحل في الزوايا الغريبة،

تملأ جبينَكَ بالحصى؛

تعرف أن تنامَ في الدهشةِ القاسية

تحتَ مطر الصمت...

هكذا

تَنسانا ونَنسى،

وتمحوكَ دمعةٌ أخيرة...

– مدخل رابع –

هادئٌ كما يهدأ الصدى...

كانَ الأرَجُ بحيرة والرملُ مدارًا (أعَطِشْتَ؟) ثمَّةَ تُطِلُّ من ثقبكَ، تشرب قهوَتَكَ المُرَّة عندَ الصباح، وتقرأ الصُحُفَ. ثمَّةَ تُطِلُّ من ثقبكَ، تَنسَدِلُ على الأحاديثِ الصباحيّةِ – كانَ الأرَجُ بُحَيرَة (أشَرِبْتَ؟).

هادئٌ كما يهدأ الصدى،

وعيناكَ رتاجٌ مُقْفَلٌ

على حِصار المدينة...

– مدخل خامس –

"لأبوابكِ، أيّتها المدينةُ، انخلاعُ سَرْمَدِيٌّ،

فابتعِدي، أيَتُها الرؤيا القاسيةُ ، ابتعدي، ابتعِدي...

لذهبك فضاء لن ينطفئ أبدا...

ولي

هذا المدى كله،

وهذا الحلم

الطويـ... يـ...ـل..."

– ههنا يبحر البحر

إلى الفوضى الكونية.

– مدخل سادس –

عندما رحلت الشمس

وانقفلت

تركت خلفها

بعض دموع

وأرضا للرؤيا.

عندما رحلت الشمس

أيقظت حريقك

والخروج...

١ – الخروج

- ١ -

تـهبُّ دمـاؤهم بـين المـدى والأفْـقِ - لم يصِلـوا إلى الشمس التي ضاعت وراءَ النَفْيِ لم يَصِلوا. هناكَ الزحفُ يخـرجُ مـن غبار النَهْبِ عبرَ مسائهمْ. مَنْ قالَ إنَّ الفَتْحَ ليـسَ مُضَرَّجًـا بعَويلِـهِ. والناسَ لم يصلوا إلى تُخْـمٍ أخـيرٍ بعـدَهُ تركـوا الرمـالَ علـى ضبـابِ الجسمِ؟ (إنَّكَ في المَداخِلِ فَوْرَةٌ مـاتتْ وشَـيبٌ راسِـخُ الثلـجِ.) ارْتَمـى صَوبَ المدى والنَهْبِ حُلْمُكَ. أطْبَقَتْ عَينُ السَماءِ على عَويلِكَ. أوغَلَتْ كَفّاكَ غارقَتينِ في أفُقِ الرمادْ.

كانتْ خُطاكَ تئنُّ. يرصُدُها هَديـرُ المـوجِ - وحـدَكَ تائهٌ. ويَداكَ تلتقِطانِ حزنَكَ في السُهادْ:

صوتٌ يصيحُ بكلِّ هذا البحرِ: "كانَ هنا!"

يَرْتَجُّ مِلْءَ الشمسِ: "كانَ هُنا!"

يمتدُّ... يُعولُ في الدروبِ... "هُنا... هُنا...!"

"لكنَّهُ رحلَتْ خُطاهُ معَ الدماءِ تَغورُ في مَرْجِ الدِماءْ.

رحلَتْ خُطاهُ من السماءْ" -

صوتٌ يصيحُ بكلِّ هذا البحرِ: "كانَ هنا!"

- ٢ -

وجهٌ يُراوحُ في القِناعِ ويفتَحُ الحُلُمَ المهاجرَ. كـان في أجراسِهِ طفلاً تَكَوَّمُ حولَهُ لغةُ السديمِ.

هنـاكَ لَـوَحَ بـالهبوبِ، وسـرَّحَتْ أحلامُـهُ جـرحَ السيوفِ على مَهَبِّ دمِ.

هناكَ غادرَ. والحريقُ مَراكِبٌ. والحُلْمُ أشرِعَةٌ مـن الهَلَعِ الطويلِ. هناكَ غادرَ...

كانَ في كفّيهِ سَيفٌ

يحصدُ الأشياءَ.

يُطْبِقُ بالهَباءِ على الهَباءْ.

وصراخُهُ أشجارُ صمتٍ

ماتَ فوقَ غُصونِهِ ثمرُ النِداءْ.

- ٣ -

بيني وبينَ دمائهمْ

وادٍ من الجوعِ المُسافِرْ.

بيني وبينَ دمائهمْ

هَجرٌ...

يـهبُّ الخَسْفُ مـن قـاعِ الغـروبِ، تـهبُّ
أوجُـهُكمْ مُضَرَّجَـةً بإعصـار اليَبـابِ، تـزِفُّ أعيُنُكـم يَبـابَ الفجـرِ
للتاريخِ: هذا بدؤُكم – هذا انتهاءُ العصر!!
مَنْ يرمي رمادًا
فوقَ أطباقِ الرمادِ؟ / هنا مَرَرْنا (هل مرَرْنا؟)
تحتَ إجهاضٍ بحجمِ الليلِ،
أقفلْنا المَشيمةَ وانقفلْنا –
بيني وبينَ دمائهمْ صُوَرٌ
تُمَحّيها وترسمها المَتاجِرْ.
بيني وبينَ دمائهمْ
وادٍ من الجوعِ المُسافِرْ
وضمائرٌ مُسِخَتْ ضمائرْ،
بيني وبينَ دمائهمْ
فَلَكٌ...
لَيَبْرَحُ عنكمُ الدمُ.
في الصباحِ تُهاجرُ الأشياءُ...

لا يبقى سوى طَبعِ المساءِ المرِّ
والصمتِ الطويلْ...

– ٤ –

بيني وبينَ دموعها كهْفٌ ضبابيٌّ يحاصرُهُ الخروجُ
– سَلالِمُ الجوعِ اشرأبَّتْ في صراخِ الموجِ. عادَ البحـرُ مَسكونًا بـأغلالِ
التنهُّدِ
بينَ وجهٍ حفَرَتْهُ مَرارةُ الذكرى
وبينَ الدمعِ في صَلَواتِ أمّي...
يتسرَّبُ الحِسُّ الرهيبُ من النجومِ...
دموعُها ودموعُهم... آآآآهٍ، بقيّةُ ما تَبَقّى...
يتسرّبُ الحِسُّ الرهيبُ من الصدى:
صوتٌ سحيقٌ طافِرٌ من هدأةِ الأشياءِ:
"كانَ هنا."
يهتزُّ مِلْءَ الشمسِ: "كانَ هنا!"
يمتدُّ، يُعولُ في الدروبِ: "هنا... هنا..."
"لكنَّهُ رحلَتْ خطاهُ مع الدماءِ تغورُ في مَرْجِ الدماءْ.

رحلَتْ خطاهُ من السماءْ."

صوتٌ يصيحُ بكلِّ هذا البحرِ: "كانَ هنا!"

- ٥ -

لا تَعلكُ الأعضاءُ غيرَ لحومِها.

لا يَمضَغُ الأعضاءَ غيرُ مسافةِ الدمِ. كانت الذكرى

رمالاً عبرَ عاصفةِ الرمالِ؛ وكنتَ أعضائي.

تدورُ على الضَياعِ. وحولَكَ الشكلُ انتحارٌ / أيُّ

هَجْرٍ وجهُكَ المدودُ؟ / كانَ دمي يَباسًا. كنتُ أحترفُ المكانَ

وللمكانِ مَتاهةُ الأشياءِ.

للأصواتِ لونُ الماءِ. ذاكرةُ النباتِ.

هناكَ يبتلِعُ الصدى كلَّ الرحيلْ.

للأرضِ في عينيكَ أشباحٌ

وأمداءٌ من الزفَراتِ،

أمداءٌ من الصمتِ الطويلْ...

- ٦ -

مَن قالَ: أنهَضُ بينَكم؟ من قالَ: أختَرِعُ انعِطافاتِ

العصور؟ هنا يهبُّ العُقمُ. يجلدُني. فأمضغُ من لحومِ الصبرِ أشلاءً

مُقَدَّدَة. وأحترفُ انحِداري.

فَلْيَكُنْ شَرْخٌ بشَرْخٍ!...

يفغُرُ التاريخُ قبرًا

ضَمَّ تاريخي وناري...

فَلْيَكُنْ شَرْخٌ بشَرْخ! أثلَجَ النارَ الرمادُ؛ تقلّصتْ

دربي على قدَمَيَّ؛ قادَتني الدموعُ؛ كَسَرْتُني.

وحصارُنا يهوي

وتَهوي في دمي الصحراءُ باردةً...

كانَ الفراغُ يلمُّ أشلاءَ الضَياعِ على الضَياعْ

والسيفُ مَكسورًا

يُهاجِرُ في النِزاعْ...

٢ – رُقَع من تاريخ أبي عبد الله

– ١ – / ١٩٤٨

يخرجُ ذاتَ مساءٍ.

تطفو عيناه على لُجَجِ الوطنِ المسلوبْ.

– ٢ –

كفّاه جِراحُ

وبحارُ الشوكِ كوابيسٌ تبتلعُ الأرضَ.

تفتَّحَ زحفٌ،

صُلِبَتْ ذاكرةٌ

تَرْشَحُ من ضرَباتِ السيفِ المَغلوبْ.

– ٣ –

رَدَموا وجه الماضي.

يَقْتَحِمُ الليلُ عيونَ الشمسِ. أساومُ.

ينشقّ البحرُ ويطلعُ شعبٌ من تاريخ الموت إلى

أنقاضِ الأرضِ. لهم ذاكرةُ الدمِ حينَ يصيرُ ضَبابًا.

وهناكَ هناكَ انحَسَرَ التاريخُ عن الموتى –

هَبَّ الليلُ،

انكَسَرَ السيفُ،

تراءى طَعْمُ رمادٍ يُشعِلُ ليلَ الموتى.

سقطَ العربيُّ،

وسالَ صَهيلُ الفجرِ على النَصْلِ المكسورْ...

- ٤ -

ما أصلَبَ هذا الليلْ!

ما أغبى هذا الزمنَ المَقدورْ!

- ٥ -

كانَ "تأبّطَ شَرًّا"، حينَ يَجنُّ الليلُ

يحاربُ "غولاً"،

يكتبُ شعرًا عن حربِ الأشباحْ...

لكنَّهُ كانَ وحيدًا:

وجْهًا يَتَقَطَّرُ فيهِ الزمنُ المَيْتْ!

- ٦ -

لا يبقى أحدٌ...

وحدي!

لا يبقى أحدٌ...

كذِبٌ وجهُ الماضي.

كذِبٌ هذا الليلُ.

على العَينينِ ضبابٌ...

يعبرُ شعبٌ نحوَ الموتِ هنا وهناكْ.

عَطَشٌ مِلْءَ عروقِ الأرض هنا وهناكْ.

سيفُ الظلِّ يُهاجِرُ في جَبَهاتِ الدمعِ - تصيرُ

الأرضُ الحُبلى إجهاضًا تحتَ قميصِ الرملِ.

هنا وهناكْ

أرحامٌ تغرقُ في الإجهاضِ

وتاريخٌ مزّقَهُ الإنْهاكْ...

- ٧ -

إيـ..يـ..ـهِ!

لا يبقى في الصلصالِ

سوى زمنِ الإجهاضْ...

- ٨ -

قلبٌ حاصَرَهُ سُورُ الليلْ -

هذا الوطنُ المَيْتُ على حشرجةِ الأنقاضْ!

- ٩ -

أسْدِلُ فوقَ جَمادي عاصفةَ الظلِّ، ولا ألمَحُ إلا الأرضَ. بقلبي حَسَراتُ الفجرِ، وهذا الشعبُ الغامضُ جرحٌ، والأرضُ فُسوخٌ ورمادْ.

جسدي أرضٌ باردةٌ

تتمدَّدُ في الخَسْفِ جَمادْ...

- ١٠ -

يخرجُ عبدُ اللهْ -

"لا غالبَ إلاّ اللهْ"!!

- ١١ - / ١٩٦٧

يهاجِرُ الخروجُ في عروقِنا.

يَتْلو الصدى ملامِحَ الخروجِ:

كانتِ السماءُ زَهرَةَ تموتُ (هل نَلمُّ نورَها؟)

كانت وجوهُنا

خنجرًا

وصوتُنا نُباحَ كلبٍ / تهتفُ الآفاقُ للهَباءْ

والعارُ يمسحُ الظلالَ

والدماءُ ترتمي على الدماءْ.

- ١٢ -

يهاجِرُ الفراغُ في عروقِنا.

مَنْ قالَ إنَّ الصمتَ لا يُزَوْبِعُ السماءْ؟

- ١٣ -

دماءُ هذا الفجرِ تثقبُ المدى، وللسيوفِ طَعْنَةٌ كَسيرةٌ تنامُ في الجراحِ. كانَ الصمتُ آخِرَ المدى،

والأرضُ جُرْحًا،

والأفْقُ غائمَ الصدى...

- ١٤ -

نديمُنا مَجامِرٌ يُطفِئها الخرابْ.

- ١٥ -

نأوي إلى الدموعِ

واليَبابُ يمضغُ اليَبابْ.

- ١٦ -

في كلِّ خطوةٍ نُبارِكُ الصدى.

تستيقظُ الدماءُ في جذورنا

يتيمةً

تحجّرت في شهوةِ الردى -

في كلِّ خطوةٍ نُبارِكُ الصدى.

- ١٧ -

إهْتَرَأتْ أشلاؤنا.

تلَطَّخَتْ بلعنةِ الترابْ.

- ١٨ -

نأوي إلى الدموعِ

واليَبابُ يمضغُ اليَبابْ.

- ١٩ -

ينتحرُ النهارُ في الهَباءِ، يشربُ السماءَ. كنتِ في عروقِنا مرارة اغتصابنا الطويلِ، تَثقُبينَ آهةَ الحِجار. كُنْتِ لَعْنَةَ الخروجِ تَصْدَعُ الأرضَ، تموتُ في بَكارةِ التوراةِ. يَصْدَأ المساءُ. يُقفِلُ النحاسُ قلبَنا. وظِلُّكِ انكِسارٌ في خرائبِ المدى...

دمٌ... دمٌ... دمٌ...

ذبيحةُ الغفرانِ لا يَطالُها الغفرانُ والدخولُ مُغْلَقٌ.

مَنْ يَطمسُ التاريخَ في فؤادِهِ المريضِ؟ مَنْ يُقَنِّعُ الخِصْيانَ بانتفاضةِ

المحاربينَ؟ لا جِهاتِ ترفعُ الأتونَ عن قلوبنا... لا دربَ... لا

ردى...

دمٌ... دمٌ... دمٌ...

ذبيحةُ الغفرانِ في قلوبنا دمٌ...

والرملُ عبرَ آثار الخطى دمٌ...

واللهُ والأرضُ التي تغيبُ عن عيونِنا

دمٌ... دمٌ... دمٌ...

- ٢٠ - / ١٩٧٥

مَن قال إنّ الأثيرَ لا يَهوي في الجِلْدِ كالدماء، والنَهْبَ لا يصلُ إلى الحافةِ الباردةِ، والسقوطَ لا يستيقظ..؟ من قال إنّ الهجرَ ليس يرحلُ في أسَى الساهرين...؟ سيذكرُ هذا البابُ الكسيرُ كيف أنَّ النباتَ هاجرَ في الذاكرةِ، وتركَ في سرير الطينِ بقيّةَ حَنين. سيذكرُ هؤلاءِ العابرونَ وجهي تغطّيهِ حُدَآتُ الفضاءِ(مُخَلَّعٌ مُخَلَّعٌ هو الفضاء)، وتُهاجرُ فيه صواعِقُ الثمَر إلى أعماقِ الجِلْد. وعبرَ أدغالِ الطحالبِ يفتحُ القلبُ الخروجَ في كمينٍ طويل...

هنا تستسلم الخطى لدهشةِ القبحِ، ولا يبقى سوى رنينِ الزمن المكسور.

لَبَّيْكَ، أيُّها الحطام!

غارقًا في هَديرِ الجموع،

داخلاً في وجهِ الزمنِ المحطّم.

لَبَّيْكَ، أيُّها الحطام!

كنّا ننزلُ في أتونِ الدمِ، حاملينَ ألوانَ الليل.

وتَعْبُرُنا ضَراوةُ الحصار؛ كنا صائحين: فَليكُنِ الليلُ!

وداعًا أيُّها الجَسَد!

وحدَكَ تَسكنُكَ حربُ الفراغ. وحدَكَ تستيقظ على الرحيل. سنرميكَ بالهَباء، نَلجمُكَ بالأباطيل، نزرعُ فيكَ المرايا. وحدَكَ تسكنكَ حربُ الفراغ، امتدادٌ للأرض، مسافةٌ تنهار - كلُّ حَصاةٍ سيفٌ مَغلولٌ بالصدإ، كلُّ غيمةٍ تقرأ الفجيعةَ. أنتَ الشريكُ. أيُّها الجسدُ، في قارّةِ الدم المُخَثَّر، تُباركُ الخرابَ بالخراب. تزرع حِصارَكَ في هجرةِ الزهر... حلمُكَ المجاعةُ الأبديّةُ.

حلمُكَ

هذا

الوطنُ

المُباح!

لَبَّيكَ. أيُّها الحطام!

– ٢١ –

من آخر الشرق تعبر القافلةُ. في آخر الشرق تموت القافلةُ. وها بيروتُ في ألَق الطعنة. حيث تُهْرَقُ دماءُ الذبيحة ولا غُفرانَ. العشبُ مَدارجُ تَنْثُرُ الذكرة القتيل على العشب المسحوق. الشمس نَهْدٌ من الرصاص. والأرضُ حفنةُ إجهاض تثقب الحضور.

وداعًا. أيُّها الجسد!

سأرحلُ في بكاء الأتون. حاملا بقايا القمر. مُحتفلا بالليل. أهوي بين الرؤيا والرؤيا... سأرحل... سأرحل...

وداعا. أيُّها الجسد!

– ٢٢ –

من قال إنَّ الحطامَ لا ينبتُ في العروق؟ يستفيق الحلمُ على كابوس بحجم الليل. من قال إنَّ انسلاخَ الكائن في صراع الجوهرِ لا يرسم خطى الفجيعةِ؟ من قالَ...؟ من قال...؟

غيرَ أنّي، وسطَ الحطام، أستعيدُ الألوانَ، أزيّنُ الموتَ بالأقنعة، أضيعُ في خطى بيروت، سائرًا نحوَ العرس المأتميّ...

أنا المصيرُ!

أبَعثِرُ صلحَ الكائنِ في ابتكار الهَدْم، لكنّني أترك الخَواء. أنقضُ صلحَ التراب والحصى، أهاجرُ خلفَ أقنومِ النَدَمِ المُحال –

أنا المصير!

أنا المصير!

باطِلٌ هذا النبْضُ في عروق الجسد –

ألمدى عرسٌ بليد،

والرؤى شموسٌ تحترق.

- ٢٣ -

مربوطًا بخيطٍ يشدّه وُصولُ الموتِ ورَحيلُ الحياة،

أمْضَغُ الرملَ - أسقطُ

بينَ

الحبّةِ

والحبّة...

لا يبقى على شَفير النَهْب

سوى أجساد الجسور المُهَشَّمَة!

لن يَصِلوا! كان الزحفُ طويلاً. كانت العروقُ كابوسًا من الريحِ السَموم. غيرَ أنَّ هذا القلبَ لا يفتحُ العذابَ إلاّ لي!

- ٢٤ -

صحارى الأشلاء

بقيّةٌ من الزمن المكسور.

- ٢٥ -

فاتَني أن أقرعَ بابَ الصباح، أن أشدّ الشمسَ بخَيْلِ الحقيقةِ. فاتَني أن أصعدَ درجَ الرغبةِ إلى طَرَفِ العالم، أن أمَهِّدَ للنسيانِ في "فتحٍ" جديد -

فاتَني... فاتَني...

أنا المصير!

- ٢٦ -

أيُّها الحضور الباردُ في قلب البلدةِ الحِرْباء، كن لنا صلاة تعلّمنا أن الأطفالَ يخلقونَ الزَهْوَ على أشكالهم. كُنِ اليأسَ مِنَ الصباحِ الصَلْصاليّ. فتَّقْ براعمَ الأشكال، وارحَلْ في أهْراءِ البُروق.

لكنّني،

إذْ أتَجَمَّعُ بين رمادَ المحرَقَة، أعرف أنّني كنتُ غريمًا فاشِلاً للكائن في انطفاءِ الجسد؛ أعرف أنَّ تلكَ الصباحاتِ المُسدَلَة تُخرِجُ الأشكالَ من أدوار الجوع. وكم قَبَعْنا نسكنُ الخنجرَ، نستوطنُ النَهْبَ والخروج...

أيَّتُها النبوءةُ الزائفة،

يا بَوّابةَ السهمِ العاشق،

اشهدي أنَّ الصوتَ لن يكونَ إلاّ أكثرَ اشتعالاً.

– ٢٧ – / ١٩٨٢

عادَ الترجُّحُ بينَ النهْبِ والصدى، عادَ الخروج –

لِمَنْ هذه الجثث؟ وبين الزمن والزمن

مِدْيةٌ...

لِمَنْ هذه الجُثث؟ والخطُّ الفاصِلُ بينَنا وبيننا خَواءٌ/

لِمَنْ...؟

عاد الترجُّحُ بينَ الوقتِ والخَواء، وإسفنْجةُ القلب لا تَنعَصِر. هنا الزمنُ بينَ حُدود الغيمِ والصاعقة – هنا الزمنُ يُكسَرُ بين العَظْمِ والعَظْم –

وهنا التَرَجُّح

والخطُّ الفاصلُ بيننا وبيننا،

فَلِمَنْ

لِمَنْ هذِهِ الجُثث؟

– ٢٨ –

صفاءٌ...

أرضٌ تَرْتَجُّ، تَتَصَدَّع، تَنزفُ مِلحًا. أرضٌ تنقسم بينَ الخروج والخروج / أرضٌ

هنا

حيث أرتجُّ وأشطبُ الزمن،

حيث الوعدُ يبقى وعدًا

والأملُ أملاً

نرتجُّ، ننقسم.

هذا الرحيلُ إلى النقيض! نَجْمَعُ الفِطرَ، ونَمْضَغُ الطُحلَب. ما زلنا أعدادًا كَحَبّ الرمل، كُثرًا كالنجوم. ما زلنا الحُماة، لكنّنا ننامُ قليلاً –

نَستغرِقُ في نومِنا الأبديّ

ونحلمُ –

صفاءٌ...

- ٢٩ -

(آب)

حصارٌ...

الثَّقْبُ يجمعُ بين الأرض والسماء، وبُروقُ الفِلِزِّ

تَصقلُ المنظرَ / النارُ

يَنبوعُ العويلِ الأبديّ

والظلُّ حَظُّكمْ!

حصارٌ / على المدى كُومٌ من الوقت، على قلبكم

بعضُ تاريخٍ، وفي العيونِ رحيلٌ...

هل رأيتُم؟

ألثقبُ يجمعُ بينَ الصاعقةِ والشمس، وأنتم

تركعون. الثَّقْبُ يجمع بينَ الطعنةِ والدم، وأنتم تركعون. الثقبُ

يجمعُ بينكم وبينكم، وأنتم لا تَجمَعون...

وأنتم، آهِ! أنتمْ

لِيَبْقَ الظلُّ حظَّكمْ

وَلأبْقَ

واحِدًا واحدًا، أنْزَلِقُ من عُلُوِّ النور،

أرحلُ. أسكنُ في جثث زمنكم،

وَلأبْقَ

لُجَّةً على غبار الأشياء.

- ٣٠ -

(أيلول)

عادَ الترجُّحُ - لِيَكُنِ الخروج!

جُثَثُكُمْ تزحفُ تحتَ فِرار المحاربين، تَفِرُّ معهم

- جُثَثُكُمْ شاهِد الزمنِ المكسور - عادَ التَرَجُّح...

مِن أينَ أبدأ الصدى؟

ترحلون /

لونُكم هذا السَرابُ العتيق،

لونُكمُ السَرابُ إذْ ترحلون في خروجِكم والزمنَ،

تنحدِرون،

تتوالَدون، تنكسِرون،

تَتَوالَدونَ أشباحًا،

تَنبعونَ من مجارير النفطِ،

من فراغ الصحراء،

ثمَّ... لا تكونون...

من أينَ أبدأ الصدى؟

آهٍ، هذا التَرَجُّعُ القاسي،

هذا الفِرارُ الطويلُ في الشهر الأسود!

- ٣٢ -

(تاريخ)

كيف أفتحُ الزمن؟

كيف أصَدِّقُكَ، أيُّها المهرِّجُ الحزين؟

- ٣٣ -

(تاريخ)

بيروت... حَجَرُ الغُرْبَة...

بيروت... تَصَدُّعٌ تحتَ سماءِ الحديد...

- ٣٤ -

(تاريخ)

بيروتُ، آه!

آخرُ هذا الخروج القاسي...

٣ – شواهدُ من قبر أبي عبد الله

– ١ –

(شاهِدَة)

هذا الأسى يُبيحُ للتراب أن يموتَ. هذه المَشيمةُ
التي تُنازعُ الظلامَ قبرَها!

ها أنتَ راقِصًا بكَرْبَلاءْ

تُجَمِّعُ الهَباءَ حُفْنَةً من الصدى.

كانَ الهواءُ حامِلاً أسرارَهُ إلى انطفاءةِ المياهِ. كان
صمتُكم مدًى، و"الحربُ" وردةُ النحاسِ.

كنتَ صامتًا بكربلاءْ

تَهذي، تُتَرجِمُ الهَباءْ.

ما زلتَ بعدَ إعصار الخروجِ راقِصًا بكَرْبَلاءْ!

– ٢ –

(شاهِدَة)

بُهلولُ يخرجُ من جُرْحِ الأعضاءِ. بَريقُ الأنثى
يَسطعُ في عينيهِ.

تَصيرُ الحاضرَ في مَأدبةٍ للنَزْفِ.

رُوَيدًا...

من أجلِ بَهائكَ هذا اليأسْ.

بُهلولُ الزمن المكسورْ

يركعُ في أنقاضِ الشمسْ...

- ٣ -

(شاهِدَة)

خلفَ الضبابِ مصائرٌ يحتلُّها وجَعُ الذهولْ.

خلفَ الضبابِ خروجُهُمْ. دمُهُمْ يُناديني، ودونَ سمائهم مُدُنٌ تزولْ.

دمُهُمْ يناديني - أقولُ: اهْدأ، فَبَيْنَ رئاتِهم زمنٌ، وذاكَ الإرْثُ يربضُ فوقَ أعمدةِ الخرائبِ" -

ضاعتِ الأشياءُ بينَ صواعقِ الأنقاضِ. أيَّتُها الطُيوفُ، خُذي يَدي فأغيبَ في الحلُمِ السحيقِ، خُذيني -

دمُهُمْ يُناديني:

"كانَ هنا..."

يَقظانَ، أطبقُ بالهَباءِ على الهَباءْ.

يَقظانَ، يَمخُرُني الردى

أشجارَ صمتٍ ماتَ فوقَ غصونِها ثمَرُ النداءْ -

صوتٌ بعيدٌ طافِرٌ من هدْأةِ الأشياءِ: "كانَ هنا".

يَرتجُّ ملْءَ الشمسِ: "كانَ هنا".

يَمتدُّ... يُعولُ في الدروبِ: "هنا... هنا..."

لكنّهُ رَحلَتْ خُطاهُ معَ الدماءِ تَغورُ في مَرْجِ الدماءْ،

رَحلَتْ خُطاهُ من السماءْ"...

صوتٌ يصيحُ بكلِّ هذا القَفْرِ: "كان هنا"...!

المجموعة الثانية:

كتاب الشاهد

مداخل:

" ...I have seen birth and death,
But had thought they were different; this Birth was
Hard and bitter agony for us, like death, our death."
(T. S. Eliot)

" رأيتُ جميعَ الأعمال التي عُمِلَتْ تحتَ الشمس، فإذا الجميعُ باطِلٌ وقَبْضُ الريح."

(سِفرُ الجامعة)

" بابلُ، بابل، لقد غُسِلَ دماغُكِ من هاتِف الخير، وفارقَتْكِ بلابلُ الحُبّ، ونَعَبَ على بئرِكِ العَطشى بومُ الضجَر. يَصِرُّ الإلحادُ واللامعقولُ في فَراغِكِ الحالِك، ويُطَنطِنُ في مَواخيرِكِ البَشَرُ كالذُباب."

(أنطون غطاس كرم)

" Tous ces hommes avant moi, ils ont peut-être eu tort,
Sont-ils devenus Dieu par raisonnement?
Ils ont tué la pierre, l'oiseau, la mer,
Sont-ils devenus Dieu?"

(Nadia Tuéni)

"ألسيّدُ المُختارُ

يُتقِنُ من صِراعِ الفكرِ

حالاتِ التشنُّجِ في الصريعْ

يُرغي بحُبِّ الله والإنسانِ

والقِيَمِ التي تَلِدُ الحضارَهْ

وأرى فُروخَ البومِ

تَنبتُ في ضميرٍ باعَ نارَهْ

وَمَضى يَبيعْ

لحمًا تَبَعثرَ في الشوارعِ

لحمَ لبنانَ "المُخَلَّعِ" و"المَنيعْ"."

(خليل حاوي)

"أحوالُ ثمودٍ،

تتأسّسُ في دُكّانٍ:

تاجِرْ، واستَعصِمِ باللهِ، ولا تَتَسَيَّسْ."

(أدونيس)

قصيدة الشاهد

" الشاهد... الشاهد... الشاهد... إنّ
العالمَ الذي يحتاج فيه المرء إلى شاهد لَهوَ عالَمٌ
خَرِبٌ، سيّئُ الإدارة."

(إبسن)

مِن أينَ يأتي الخارجونَ من الضباب إليَّ
والقطعانُ تَحشدُ زحفَها عَبْرَ الحقولِ؟
بينَ القَطا والدمعِ لَيْلَكَةٌ
وأحزانٌ تَهبُّ على مَسافاتِ العويلِ.
بينَ القطا والدمعِ يَرْفو الظلُّ أعمِدة ويطرَحُ صمتَهُ
خلْفي. تُنَظِّرُني السماءُ وعَبْرَ خطوِ الليلِ بركانٌ يُحَمْحِمُ. قلتُ: يا
خَبَرًا دؤوبًا هاجرَتْ عجَلاتُهُ في الصبرِ، يا صَبرًا دؤوبًا، قلتُ،
وَلْيَبْقَ السَمَندَلُ خلفَ حفنةِ أسْهُمٍ. وتطيرُ في أفُقِ الفِلِزِّ بقيّةٌ حَرّى،
يُداهِمُ جُرحيَ الصبّارُ، والطُرُقاتُ تمسحُ ما تَخَلَّفَ من حُطامِ الوَهْجِ

عبرَ مدينةٍ أزفَتْ. أنا الطُغيانُ أشعلُ في رداءاتي رمادَ المارقينَ
وأنتضي دُعرَ الفلولِ.
بينَ القطا والدمعِ حشرجةٌ تهبُّ كما الفريسةُ
تحضنُ الصبرَ الذبيحَ، كما النوارسُ تستكينُ إلى ثغورِ البحرِ. قال
الصمتُ لي:
"مِنْ أينَ يأتي الخارجون من الضبابِ إليَّ
والقطعانُ تحشدُ زَحْفَها عبرَ السهولِ؟
من أينَ يأتي الخارجونَ من الدُّهولِ إلى الدُّهولِ؟"
وإذا السماءُ تَميعُ، والأشياءُ تنظرُ كالفريسةِ. ترقدُ
الأشياءُ خلفَ القتلِ حازمةً حبائلَها، ويهوي في غُبارِ المعدنِ المصهورِ
رَيحانُ الخَطايا – قلتُ: عودي، يا نُفوسُ، من السَكِينةِ، لن تُواكِبَكِ
النجومُ، ولن يُضامَ القَفْرُ في عطشِ الطفولةِ، ولْيَهُبَّ القَفْرُ حولَ
قَرَنْفُلٍ حَجَبَتْهُ أنفاسُ العَناكِبِ.
لا
يُضامُ
القَفرُ

يا نفسُ اهدإي! إنَّ الزوايا ترتدي دِفلى المَسافاتِ.

اهدإي، يا نفسُ، ولْتَهْوِ العناصرُ في المساءِ.

بينَ القَطَا والدمعِ لَيْلَكَةٌ

وأحزانٌ تُضاجِعُ شوكَها فوقَ الدماءِ.

بينَ الصدى والدمعِ حَقْلُ يَعاسِبٍ. يا نفسُ، يدخلُ جُرْحِيَ الصبارُ، والرَهْجُ المحاصَرُ بالنحاسِ يدقُّ أبوابَ الفريسةِ. لن يَهُبَّ دمي – أنا الطغيانُ، أشعلُ في رداءاتي رمادَ المارقينَ وأرتدي دِرْعَ الشفيرِ. ألا اهدإي، يا نفسُ، عادَ القلبُ مُشتعِلاً بمعدِنِهِ، اهدإي، يا نفسُ، وانتهبي الفحولةَ في قِناعٍ من ضِياءِ.

مَن قالَ إنَّ الخارجينَ من الحُطامِ

تمرُّ أرجُلُهم بقلبي؟

لا ينامُ الفجرُ إلاّ خاشِعًا بذُهولِهِ؛ وهناكَ حيثُ تحطُّ أعمدةُ الركامِ تقومُ مذبحةٌ...

بينَ القطا والدمعِ ليلَكَةٌ

وأحزانٌ تُضاجِعُ شوكَها.

سأغيبُ... أعرفُ أنَّ وجهي سوفَ تَمْسَحُهُ الصواعقُ، أنَّ صبرَ الأرض يعرقُ. مَنْ، تُرى، يبقى اللَجوجَ، ومن يحطُّ بعَصْفِهِ مُتَرَنِّحًا؟

بينَ الصدى والليلِ زوبعةٌ من الصمتِ، انتظارٌ غارقٌ في الأرضِ. بينَ محاجِري والدمعِ خيطٌ من رَذاذِ الحقدِ – يا نفسُ اهدإي!... سأغيبُ حتى في سديمٍ موغِلٍ في الثلجِ، أتركُ مَطرَحي للوَعرِ، يا نفسُ اهدإي. سأغيبُ في "صَنّينَ" محترِقًا كما يتَدافَعُ الوَعِلُ المهاجِمُ عَبْرَ أنقاضِ.

أنا الصبرُ الطويلُ،

أنا النُحاسُ،

أنا السَمَندَلُ والقَطا، وجميعُ أعمدةِ المسافةِ والخشوعُ،

أنا الجليدُ،

وأنا المطارقُ والضجيجُ،

أنا الشواهدُ والحديدُ،

حتّى فضاءُ الثلجِ مُنطَرِحٌ معي، حتى سديمُ الجُرْدِ وهْوَ يُطاردُ العُشْبَ المطرَّزَ بالعقيقِ وبالفَناءِ.

وأظلُّ في نَيسانَ جرحًا، في صفيحِ الليلِ، في الزهرِ الذي انطرحَتْ بقاياهُ نُحاسًا أو جليدًا. لم يكن للفجرِ أن يدري وصاريةُ البُروقِ تَهزُّ حَنجرةَ التراتيلِ الطويلةِ. قلتُ: يا نفسُ اهدإي، أو يستجيبَ القفرُ للطاغوتِ، يا نفسُ اهدإي حولَ الصدى كي يستكينَ هبوبُكِ الأعمى على نهرٍ بلا مجرى وماءِ.

وَلْيَبْقَ في ظلِّ الطواغيتِ البليدةِ يأسُنا. لكنّني أضرَمتُ في وجعِ الجنادلِ مُقْلَتي، وتَهَدَّلَتْ عيني على جُرحٍ بحجمِ الليلِ:

هذا موطِني!

سأغيبُ في "صنّينَ" محترقًا كما يَتَدافَعُ الوَعِلُ المهاجِمُ عبرَ أنقاضٍ، وبينَ العينِ والدمَعاتِ صحراءٌ من الكبريتِ. يا نفسُ، انتظارٌ بائرٌ، ثُمَّ انتحارُ:

لن يستفيقَ الليلُ. حتّى في غيومِ الثلجِ، حتّى في المدى وَعْرٌ بَوارُ،

وأغيبُ مُحترقًا، ومُحترقًا كما يتدافعُ الوَعِلُ المهاجِمُ عبرَ أنقاضٍ أراوحُ ظامئًا. قلبي فُتاتٌ، وانهزامٌ في غيومِ

مَحاجِري. قلبي فُتاتٌ والصدى أرضٌ – أراوحُ ظامئًا بينَ المشيمةِ والمَشيمةِ مُستكينًا بالجليدِ: أنا المصيرُ!

وأنا التراجُعُ والمساءُ، وكلُّ أعيادِ الفريسةِ وهْي تنتظرُ الضَياعَ، أنا النفيرُ،

مُتَهَشِّمًا بينَ الجَنادِلِ والشطوطِ،

أنا الجِبالُ، أنا الشفيرُ!

وأنا اندِلاعاتٌ تُباركُ معدِنًا حتّى انهيار الصمتِ، تُهرُكُ في مَطارحَ داكِناتٍ بينَ أفيونٍ وهاجِسِ نَهضَةٍ وَلْهى.

أنا الطغيانُ أشعِلُ في رداءاتي رمادَ المارقينَ وهاجِسي ذُعرٌ كبيرُ.

سأغيبُ، لكنْ كيفَ؟ **هذا موطِني!** – حتّى اندِلاعاتُ الجليدِ تموتُ، حتّى المعدِنُ المصهورُ. آآآآهِ! قد أنامُ على الشفيرِ فلا يراني مارقٌ؛ قد أصْدَعُ الوجَعَ المُدَنْدِنَ لا يراني مارقٌ؛ قد أستكينُ على الصدى...

بينَ الجليدِ، هناكَ، في دَغلِ الكآبــةِ، حيث يمتدُّ الصقيعُ

يغفو بريقُ الوعرِ مُنسَدِلَ الضفائرِ فوقَ ليلٍ

ثمَّ يلتهبُ الربيعُ.

ما أصعبَ الهَذَيانَ! ما أصفى الثلوجَ على العيونِ!

أنا اشتِعالٌ صامِتٌ في قلبِ محرَقَةٍ. أنا الطغيانُ أشعِلُ في رداءاتي رمادَ المارقينَ وأسْتَبي رُعْبَ الصدى. يا الصاعِدَ الجَبَلَ البتولَ إلى مدًى مَطلِيَّةٍ آفاقُهُ بالفحمِ، يا الآتي من الهَذَيانِ،

هذا موطني!

فحمٌ على فحمٍ يُراوحُ في المدى...

وتظلُّ تركضُ عبرَ صحراءِ الرمالِ فَريسةٌ

ينهارُ بينَ ضلوعِها رُعبُ الصدى.

(نيسان – ١٩٨١)

عصر المُهَرِّج

"كلّما اتّسعت الرؤيا ضاقت العبارة"

(النفّري)

رجلٌ

يتكسّرُ

في

أرضٍ

تتكسّرُ

حولَ

ترابٍ

يتكسّرْ...

هذا النسجُ من الدَمْعِ يُرافقُ نَـهْبَ الأرضِ. سأغرقُ في الأمواجِ إلى آخرِ جُمْجُمَةٍ إلاّ خَبَرًا يَزحفُ نَحْوَ الشَرْكِ وئيدًا. إلاّ وجهًا يَثقبُ حُزنَ البحرِ. سأغرقُ

في

الأمواجِ

إلى آخرِ جمجمةٍ...

ويظلّ "الغامضُ" ينهضُ من أحشاء الزمنِ المكسور... أنا المائدةُ الكبرى والجَشَعُ البشريُّ - سأرْتأُ كلَّ مدارٍ بالعطشِ الأرضيِّ، سأجعلُ في هَلَعِ الأيّامِ حريقًا، وسأنْتَهِبُ العشبَ بليلٍ محروقٍ حتّى تَتَهَدَّلَ أعضائي.

وسأتركُ كلَّ نحاسٍ يدخلني،

وسأتركُ كلَّ جليدٍ يدخُلُني،

وسأتركُ كلَّ أجيجٍ يدخُلُني...

وسأغتَصِبُ الوحشيَّ إلى آخرِ مهزلةٍ... لكنَّ الفجرَ يُراوحُ في رَغَدٍ مسلوبٍ، والعشبَ الأعرجَ يفصلُ بينَ الجنسِ الواحدِ؛ وعْلاً يضرب فوقَ الموجِ المتكسّرِ والأرضِ الصلْصاليّةِ أرفعُ جامِحَتي...

وأنامُ لكي يبقى الصلصالُ مديدًا،

وأنامُ لكي يتدافعَ في البجعُ المسعورُ،

أنامُ لكي يُشعِلَني العرسُ الدمويُّ،

أنامُ أنامُ أناااااااامُ بعيدًا في أحشاء "الغامضِ"، كي أحرقَ نعناعَ الوعرِ على مائدةِ الجزّارينْ.

وَبعيدًا ينطفئُ الجردُ، بعيدًا يَرْهو البحرُ على غَمغمةِ المعدِن؛ يُشعلُني الفِطْرُ فأختمُ قلبي؛ لكنَّ العَصفَ يداهمُ هذا الختمَ، ويبقى صدأ حولَ لبالبَ داميةٍ تتركُ في الأجواء رنينْ...

وأنامُ لكي يتَهَدَّلَ في الصدأ المَركومُ،

أنامُ لكي يُحرقَني العرسُ الدمويُّ،

أنامُ، أنامُ، أناااااااامُ بعيدًا في أحشاء "الغامضِ"، أذبلُ حول مرايا المذبحةِ الأهليّة، أذبل حول الجِرسِ الأكثر جِرسًا وأنادي:

"يا الداخلَ في البرقِ الأعمقِ،

يا الصاعدَ من مذبحةِ الجيلِ"،

أنادي: "فَلْتَهدأ هذي القِممُ الوحشيّةُ والصوّانُ الوحشيُّ، لِيَهدأ هذا العصفُ الوحشيُّ، ليَهْدأ كلُّ سَديمٍ في الجامِحَةِ الكبرى..."

لكنّ الصمتَ الأبديَّ يراوحُ في نرجسِهِ، وَتَميدُ الأشياءُ على خَزَفِ الأرضِ الأحمرِ. آهٍ، آآآآآآهٍ! سأداهمُ هذا العشبَ،

وأتركُ كلَّ صهيلٍ يدخلني،

أتركُ كلَّ نحاسٍ يدخلني،

أتركُ كلَّ أجيجٍ يدخلني،

أغرقُ في الأمواجِ إلى...

آخرِ جمجمةٍ...

هذا النَسْجُ من الدمْعِ يُرافقُ نَهْبَ الأرضِ – تَغيمُ الرؤيا، وتُطالِعُني مجزرةٌ حولَ ترابٍ يسكنهُ النَهْبُ. يعودُ إليَّ ضبابُ الصَلصال، وتنهضُ بيروتُ مكلَّلَةً باللعنةِ. فلْتَهدأ هذي القِمَمُ الوحشيّةُ والصوّانُ الوحشيُّ، لِتَهْدأ هذي الأرضُ على سيفٍ مَذْهولٍ...

تتحرّكُ جامِحةً وتعودُ الرؤيا:

رجلٌ

يتكسّرُ

في

أرضٍ

تتكسّرُ

حولَ

ترابٍ

يتَكسَّرْ...

كيمياءُ موتٍ لعذابِ سيزيف

وحدي في القارعةِ المكسورةِ حولَ الصمتِ المتهدّمِ،
وحدي في الصاريةِ المكسورةِ،
وحدي في عاصفةِ المعدِنِ،
وحدي في السَبْخةِ،
وحدي...

أتربّعُ تحتَ الشمسِ الصوّانيّةِ حيثُ يَهلُّ رمادُ
صدايَ وأعلِنُ بدئي من حجرٍ كلسيٍّ؛ لكنَّ الوقتَ يمرُّ بطيئًا،
ويمرَّ الليلُ،
يمرُّ الليلُ،
يمرُّ الصخرُ،
وأعلنُ بدئي:
١ – من أرضٍ تتناثرُ تحتَ ضبابٍ أعمى
٢ – من حجرٍ يتسرّبُ عبرَ وجوهٍ ثقِبَتْ،

٣ – من ذاكرةٍ تُمسَخُ ذاكرةً...

وهناكَ أرى غاباتِ الرملِ تُحاصِرُ جمجمةً، وهواءً
ينسجُ مَهْزلةً. لكنّي أبقى حيث أشدّ العُرْيَ إلى الأنهار، وأحمل
بيروتَ ثيابًا مزّقها الفَيْءُ القاتِلُ – أحملُ هذا القلبَ وأبقى...

ألظلُّ يقوم من الصور الشَوْهاءِ ويحمل بينَ مفاصِلِهِ
أحزانًا فارغةً وترابًا وحشيًّا. ويظلُّ هبوبُ المعدِنِ يطردُ فكرتَه
البيضاءَ، ويُمعِنُ في قُدّاسِ "الغامِضِ". لكنَّ النِسوَةَ يَخْرُجْنَ عَواري،
وعَواريَ يَدخُلْنَ الصَلصالَ، عَواريَ يَرْتأنَ "الغامضَ" بالغامضِ –
لن يبقى صَبرٌ
إلاّ
مَكْسُوًّا
بدِماهُ!

أرى بيروتَ تُخيطُ فضاءَ الطُحْلَبِ حولَ نحاسِ
الأفقِ. سأبقى وَحْشِيًّا أتشَرْنَمُ بينَ جراحِ شِهابٍ وصُدوعٍ في صحراءِ
اليأسِ. سأبقى حتّى يتلوّنَ وجهي بالأرضِ، وأبتلعُ الظلَّ كما يَفْتَرِعُ
الزحفُ مسافاتِ الأقصى...

يشتعلُ الكَيدُ على ذاكرةٍ جوفاءَ، وتنثقبُ الأرضُ.
يغيمُ "الغامضُ" مُشْتَعِلاً بمسافاتٍ فارغةٍ، ويقومُ الفَحْلُ إلى النِسوةِ
مَخصِيًّا؛ لكنَّ البَرْدَ يلفُّ مفاصِلَهُنَّ، ويتركُهُنَّ بغاباتِ المعدِنِ
مُنْتَظِراتٍ، أعيُنُهُنَّ على الذكَرِ المَلْجومِ - يصِرْنَ إليهِ عواري،
وعواريَ يدخلْنَ الصلصالَ...

وحيدًا كنتُ أرى، أتربَّعُ تحتَ الشمسِ الصوّانيةِ
حيثُ يَهُلُّ رمادُ صَدايَ، وأعلِنُ بدئي من حجرٍ كلْسِيٍّ:
وحدي في القارعة المسكوبةِ حولَ الصمتِ المتهدِّمِ،
وحدي في الصاريَةِ المكسورةِ،
وحدي في غاباتِ المعدِنِ،
وحدي في السَبْخَةِ،
وحدي...

ألمَيْت

رجلٌ مُقْتَنِعٌ،
عُذرًا:
رجلٌ لا-مُقتَنِعٌ
ينظرُ من نافذةٍ ويرى أشياءَ تدور. يُحَدِّقُ
بالغيْهَب. يَأْسى وَهْوَ يُحَدِّقُ. ينتظِرُ الآتينَ ولا آتينَ...
وينظرُ
في البلّور الشاسِعِ؛
تغرق في عينيهِ
ذاكرةٌ...
ليلُ الصوّانِ على الفجرِ يهدُّ الفَرَحَ الراحِلَ،
والأعشابُ تُشَقِّقُ غيمَ الصبرِ - ستَعرقُ هذي الأرضُ، ستشربُ من
دمها عَرَقًا، وسيحتفلُ "الغامضُ" بالفولاذِ. هنا أتصوّرُ للأشياءِ عيونًا
ورمادًا يتطاولُ نحوَ الآخرةِ المرّةِ، أو أتكسَّرُ في فجرٍ تُحْرِقُهُ الشمسُ
الدكْناءُ.

رُوَيدًا، يا الداخلَ صبرَ الوتِ رُويدًا؛ يتَقَصَّفُ حولكَ هذا الوطنُ المُرُّ وأرحلُ في غمغَمةٍ / يتحجّرُ في الصبرُ - أصَبِّرُ جَفنيَّ على حَجَرٍ / أتقطّرُ والدمعُ يلمُّ رَذاذي - وهنا يتَشَرَّبُني العُشْبُ الخائنُ، لكنّي أرجعُ مخذولاً، وأعاودُ ما عاودَني الليلُ، أهَدِّلُ عينيَّ وتنقبضُ المرآةُ. ولكنّ الوطنَ الميِّتَ يتركني في النصّ وحيدًا، حولي ظَمَأٌ ولَبالِبُ تسقطُ من فكّيَّ. رُوَيدًا، يا الداخلَ صبرَ الموتِ، سأرقدُ مَسكونًا بالظلماتِ وأطردُ من قلبي شعبًا نظّره الفولاذُ. سأطردُ من عينيَّ الرؤيا. وأنامُ على الثلجِ أغورُ... أغورُ... أغورُ... سأفنى في الثلجِ وأبقى رجلاً لا-مقتنعًا. وهنا تُشطَرُ ذاكرةٌ

ويهبُّ الواقعُ

في الفولاذِ

يهبُّ الواقعُ

في الثلجِ

وأبقى منتحرًا بالصمتِ. ألا لن يوقِظَ هذا النومَ حُطامٌ، لن يربضَ في "الغامضِ" إلاّ الغامضُ. والجسدُ المخذولُ تُبَعْثِرُهُ خَطَواتٌ مُغْفَلَةٌ... وأنا أنسى - أتحقّقُ في النسيانِ! يلمُّ الضَجْعَةَ كلُّ رمادٍ، حتّى يأسَنَ في قلبي ما ينتظرُ العشبَ الآخرَ...

مُورقةٌ خَطَواتي برَذاذِ الكافور، وهذا الوطنُ القاسي يُقعي منتظرًا. لكنّا لا نسألُ، والضجعةُ يَغْشاها الزِفْتُ -

وحيدًا أبقى في النصّ، وحيدًا أسكنُ أشيائي، ويظلّ الآنونَ ضبابًا يتحفّزُ نحوَ سَمَنْدَلَةٍ لا تأتي... آهٍ، تتقاطعُ حولي الأشكالُ وتحترقُ الرؤيا في اللفظِ، ويبقى

رجلٌ مقتنعٌ...

عذرًا:

رجلٌ لا-مقتنعٌ

ينظرُ من نافذةٍ ويرى أشياءَ تدورُ. يُحدّقُ بالفيهَب. يَأسى وَهْوَ يحدّقُ. ينتظرُ الآتينَ ولا آتينْ...

الحُطام

"سيلٌ بهذا الطول
من الناس، بحيث ما كان ليدخل في عقلي
أنّ الموت قد طوى هذه الكثرة!"
(دانتي)

كَمَنَتْ وعولُ الليلِ خلفَ دمٍ
وأضرمَ في ضَراوتِها الضجيجُ.
كمنتْ وعولٌ
وارتَمَتْ خيلٌ على الأشلاءِ
يجلدها أجيجُ.

وتلفّظتْ رؤيا، فهاجَ الصمتُ محمومًا يَمُجُّ حريقَه العاري على القَسَمَاتِ. شَأْ حتّى تُهدَّمَ ناطحاتُ البرقِ، إنّ العالمَ المهزومَ يغتصبُ المرارة، والبراري تنطوي في طعنةٍ مأجورةٍ، وَلْتُعْمِلِ الزلزالَ تحتَ الجمرِ / شَأْ، إنَّ السَمَنْدَلَ لن يهبَّ، وبينَ أضراسِ الصواعقِ ألفُ معتصِمٍ... سيهدأ في جناحِ العشبِ رَعْدٌ ماحِلٌ وتعودُ

أرصفةٌ مُزَعْزَعَةٌ كما تتناقلُ الأشياءُ بعضَ حكايةٍ خُسِفَتْ. تُرى، مَن يمتطي "فَتحًا" ويحملُ سُورة بعدَ انحدار الضاربينَ؟ هنا ستحترقُ البقيّةُ، والهجيرُ سيَمحَقُ الأشلاءَ. لن يبقى رمادٌ بعدُ، لن يعدو سَرابٌ في الخَواءِ.

هنا القضايا والخرابُ،
هنا الضراوةُ والوداعةُ والبقايا وَهْيَ تحتضنُ الحطامَ،
هنا الرجوعُ
هنا التكسُّرُ واحتراقُ العابرينَ،
هنا الرمالُ
هنا الدموعُ...

مَنْ يمتطي فتحًا ويحملُ سورة بعدَ انحدار الضاربينَ؟ على بقيّةِ رعشةٍ سننٌ تموتُ، وفي ضلوع الصمتِ بركانٌ من الأشلاءِ... لا يَطأنَّ هذي الأرضَ إلا جَلْمَدٌ، لا يَرْتَدِ الجرْدَ الخصيبَ سوى سَمَندلَةٍ تموتُ... ألا انهضي، يا صاعقاتُ، وفَسِّخِ الأبعادَ، يا طاغوتُ، فالبَعلُ المهدَّدُ لا يقومُ، وحولَ أمْداءِ الفريسةِ ألفُ ألفُ رصاصةٍ...

كَمَنَتْ وُعولُ الليلِ خلفَ دمٍ

وأضرمَ في ضَراوتِها النجيعُ؛

خَلْفَ الصدى والصمتِ بُهلولٌ يراوحُ صامتًا

ومدًى يجوعُ؛

خلفَ انتظار البرق صمتٌ لا يُزاحُ. ستضربُ الأعمارَ زوبعةٌ وتَفْتَرعُ المَشيمةَ، والقناعُ يُجَنُّ خلفَ غَشاوةٍ حمراءَ. يا ألهاذي، ألا قُدَّ السيوفَ من الهَباءِ، ويا مراراتُ انضحي بالوهمِ: لن يَلقى الصدى إلا الصدى...

كَوَمٌ من الأشلاءِ تقترفُ الأسى،

كُوَمٌ تميعُ على السَراب وتلتقي...

جَمرٌ وفحمٌ سَطَّرا حولَ المَباضِع بعضَ أحلامٍ. ولكنَّ النوارسَ لا تهبُّ، وخلفَ عاصفةِ المدى رَهْجٌ يُبَرقِعُ صخرةً كَسلى. ألا لا يَهْدَأنَّ هُبوبُكِ المجنونُ، يا رؤيا، إذا لم تُسفَحِ الأحلامُ – حتّى في بقايا الصبرِ، حتّى في الردى نَزْفٌ يلوحُ...

وعلى جفونِ الأفْقِ رَعدٌ يلتقي رَعدًا

وظَلْماءٌ تَبوحُ...

الصَلْصال

ألصدى يطأ أرضًا من الصلصال، والهوّةُ تستيقظ على شفير مُغَطًّى بجزُر الأقنعة.

ينفتح الصلصال عن ليل بحجم الشفير، تستيقظ الزوبعة.

ها يلُمُّ البرقُ سُطوعَ المَعدِن، وتركُنُ المياهُ إلى حجابٍ يَغْصبُ لازَوَرْدًا جريحًا. ها تخرج النساءُ إلى الصلصال، تُحيطُ بخلاخيلهنَّ زوابعُ من العقيق المسعور؛ تخرجُ النساء، ويُلقينَ على السماء بَهْرَجًا صامِتًا، حيث الليل ينسدِلُ على بقايا الرَأب.

ينفتح الصَلصال عن الصَلصال.

جريحًا أعدو، أيُّها المهرّج، على جحيم أبيضَ فوق صواعقِ الورد الكسيرة / جريحًا أطارد الحَدَأ البعيدَ / جريحًا أثِبُ إلى العصر كما يَثِبُ الأيّلُ على أنثى مخضّبةٍ بالبريق. لكنّ الهواءَ يرصد تاريخَ النهبِ الأكبر، والأرضَ تميدُ تحتَ أقدام الرَبْرَبِ. لن يبقى في وجهكَ، أيُّها المهرّج، إلاّ صَلَفُ الطلاءِ والمعدِن؛ لن يتحطّمَ

في وجهكَ إلاّ شرانِمُ مَرْمِيَّةٌ عندَ طَرَفِ الخَسْف؛ لن ينهضَ في وجهكَ إلاّ الصَلَفُ والحطام. آهٍ، آآآآآهٍ، أيَّتُها المجزرةُ، يا إهراقًا من الفِلِزِّ على جمجمة المهزلة!

ينفتح الصلصالُ عن الصلصال.

يخرجُ مقهورًا من زاوية الفجر، مُترَعًا برائحةِ الصنوبر والآس، وترتدي حوله الغيومُ أشجانَها، يخلعُ الفجرُ حِبْرَهُ في تَحَطُّم الفضاء...

كأنّه مِن خَلَل الصمتِ معدِنٌ مُزمِن،

كأنه النحاس...

وماذا كانت النساءُ يُخبِّئْنَ في أرحامِهنَّ آنَ تَضَوَّعُ الثمارُ على رُخام السماء؟ ماذا كُنَّ يخبِّئْنَ، آنَ كان الصبرُ يتكوّمُ على جنون الشفير، والأرَجُ يكمنُ في شقوق الأرض؟ لا! لَيَنْتَفِضَنَّ بعدَكَ هَلَعُ يَقُدُّ الحطام، لَيَرْتَأنَّ الهواءُ جرحَ الجمجمة. وكيف لا يستعيدُ الوعيُ ذهولَه، والسَمَنْدَلُ يتناثر فوق هضاب الصلصال...؟

أيُّها الكائن،

يا داخلاً حطامَ الجسد!

حول الصدى يهبُّ النفير، وبين السوسن رؤيا تنهض نحو بريق الأقصى. وأنا، الشاهدَ الدمويَّ لهذا العصر الدمويّ، أترجمُ الذعرَ ذعرًا، وأنتهبُ قطيعَ الرخام على حدود النذالة المضيئة. ألا فَلْيَكُن الأفقُ أكثر التماعًا حول سرير العظام والبراقع، ألا فلتَكُن الشَظِيّةُ أوغلَ في مَسار القلب، فإنني أنا الشاهدَ الدمويَّ على هذا العصر الصلصاليّ، أتقطّرُ حولَ مدار الفجيعةِ، وأسكن الركامَ الركام...آهٍ! أيُّها الأرَجُ المُنْتَقَعُ على سرير الصواعق، لن تهبَّ إلاّ في المدى الأكثر ضيقًا، لن تسكنَ إلاّ هاويةَ النفس. والبَهاليلُ التي تُهَمْلِجُ حولَ النصْل سوفَ ترتدُّ إلى قلبكَ الأحمر، وتُمَجِّدُ بطولةَ الباطل عندَ مُنْبَسَطِ الشفير.

أيُّها الكائن،

يا ساكِنًا حطامَ الجسد!

كانت بيروتُ جرحًا على منعطَف البُروق، تُدَندِنُ حولَها خلاخيلُ النساء، وتحترف الصمتَ والذهول. كانت تحمل أيقونةَ الهَرَب وتصطادُ البريقَ المذبوح. لَكَم حملَتْ رسْمَها على شفاه

الصدى، راكضًا به حولَ المياه وبُروق الأرَج. لكنّها الآنَ تقف بيني
وبين الكائن، شَبحًا صَلْدًا يدخل مَهَبَّ العويل –
عويلٌ، عويلٌ، عويل داخلٌ في الدم،
خارجٌ من الدم، عويلٌ، عويلٌ،
يصعدُ الأتونَ، موغِلاً
في الطعنة، يصطادُ الفجرَ،
عويلٌ،
عويلٌ يتَبَرَّكُ بقصفِ المعدِن،
ينطرحُ على قَهقَهَةِ الحديد،
عويلٌ يَرْفو المعدِنَ بالكائن
واللهَ بالجحيم،
يَستَنفِدُ الرعدَ حولَ بيروت، مُمْعِنًا في أحشاء الظمإ
الشارد، وعيونُ الزهرِ تحلم بالماء:
آآآآهٍ!... بعيدٌ هوَ الكائن،
بعيدٌ كما تتحطّم الغيومُ على السرابِ الحَجَر،
بعيدٌ، بعيدٌ، وفي عينيه
رمّةٌ كَسلى، بعيدٌ

وحولَ سحائبهِ المُرَّةِ خلاخيلُ ذُعرٍ
وصولَجانٌ من الليل...
بعيدٌ، بعيدٌ،
آهٍ... بعيدٌ هو الكائن...
لكنّ الأرضَ تبقى شَرخًا في مَهَبِّ الشفير. ظَمِئٌ هو
الوجهُ الموحِل، ظَمِئٌ، وفي ظمئهِ برودةٌ حادّةٌ، وزوبعةٌ من الضباب.
آآآآهٍ!
أيُّها الكائن،
يا ساكِنًا حطامَ الجسد!

وأبقى، وتبقى حولي صواعقُ المعدِن، يبقى الطَيْشُ
والنَهْبُ الشاردُ، تبقى الهوّةُ والشفيرُ، ويفركُ يديه في آخر المدى
الصلصال. وأبقى، وحولي ظَمَأٌ كافوريٌّ أبقى، أنا الشاهدَ الأبديَّ لهذه
المذبحةِ العصريّةِ – أشهدُ أنَّ المهزَلةَ لن تكونَ إلاّ أكثرَ هَزَلاً!
ويبقى حوليَ الكائن
محاطًا بالصلصال،
تبقى حوليَ الأرضُ

مَجبولةً بالصلصال،

يبقى حوليَ المدى المنهوبُ واللهُ المشتعلُ وكلُّ الشرخِ

والصلصال،

لكنّني وحدي، أشهدُ أنَّ المهزَلةَ لن تكونَ إلاّ أكثرَ

هزَلاً، وأمْعِنُ في اختراق الذهول، حاملاً بينَ يديَّ بعضَ الرماد،

وصَلَفًا لا يَرويه إلاّ هبوبُ المعدِن.

وداعًا، أيُّها الكائن،

وداعًا، يا حطامَ الجسد،

إنّني

موغِلٌ

في

صلصالِ

الأرض...

ملحق:

أشياء الصلصال

١ - الهاوية:

لِماذا، عندما تنكسر الشمسُ على الرَذاذ المعدِنيّ، تُفغُرينَ فمَكِ، وتَتَهَدَّلُ فيكِ اندِلاعاتُ الفِلِزّ؟ وعندما يسكبُ الكَرى مساءَ الصهيل تنحدرُ الحَدَآتُ على جفون الفضاء الفسيح. لكنّ وجهَكِ الحاضرَ أبدًا يُمَهِّدُ المسافاتِ أمامَ الذهولِ الكبير. وينهض "الغامضُ" من ثدييكِ، داخلاً المفاصلَ، حيث لا شيءَ إلاّ حقول النحاس... أيَّتُها الغريبةُ المألوفةُ، كوني أكثرَ امتلاءً عندما تصطكُّ الجماجمُ، وترحلُ المَلالاتُ إليكِ كالسُفُنِ الغارقة.

أيَّتُها الذاهبةُ في جفون النعاس الكونيّ، أيَّتُها الداخلةُ مذبحةَ الجفون المُغلَقَة، فيضي على هذا المدى الصلصاليّ، ولْيَكُنْ خُشوعُكِ المَصْعوقُ في صورَتِك. وعندما يهبُّ المساءُ بين البلّوطِ وزهْرِ اليَقْطين لن تجدَ شعوبُ النفطِ إلاّكِ مأوًى، فتكسر جفنيها، وتنامُ على حافتكِ السرمديّة...

٢ - مساحاتُ الغَباء:

"إلى محمد بلّوط"

رفوفُكِ اللولبيّـةُ تَنْبَسِطُ علـى الفـراغ الصَفيـق، وترقـصُ البَـهاليلُ علـى حـدودِكِ، مَطلِيّـةً بالقـار والصـدى. وحـينَ يستيقظُ النوم في المـدى الغـارقِ بالمسـاء، تتقـوّسُ دروعُ الليـلِ تحـتَ أشعّةِ المعدِن، وترفو ملامحُكِ الصبرَ بالجرح.

ويخرجُ "محمّد"، بعيدًا كالمسافة، خاشعًا بينَ ألَـق الذهول وحَلَكِ الجَبَروت، يركض مَصْعوقًا بين مَمَرّاتِكِ اللولبيّة. لكنَ الفراغَ يُغرِق خطَواتِه في المدى، وعينيـه تَغرقـان في العشـب، وعلـى صدر الحلم جِراحُها...

مساحاتٌ... مساحاتٌ... وجهُـها مُلَفَّعٌ بالنحـاس وغباره، وجهها الشفيرُ بينَ العظمِ والعظم. أيَّتُها الضربة في صَفاقَـةِ

الفراغ، علـى حـدودِكِ يُتلـى الزمـنُ مَعْدِنًـا مَعْدِنًـا، ويحمـلُ الفجـرُ الملجومُ صبرَهُ القاحلَ إلى بطاحِ الشُروخ...

يا مساحاتٍ من الصلصال الأبديّ،
يا وجهًا بائدًا لصلاةِ النحاس...

٣ - الجَسد:

تَنبتُ في الشرخ، أعمى كالخَفّاش، وتحتضِنُ وُعورُكَ سُطوعَ الأسلحة. لكنّ مِساحتَكَ المجهولةَ تنام في المَسامّ، ويبدأ الهَجرُ وئيدًا بين المفاصل المُخَلَّعَة. والربوعُ التي أتلفَها فَيْءُ الكَرى تعوي في عروقِكَ، وتصطادُ الزئبقَ والصقيع...

أيُّها المقهورُ آنَ تَمْجُنُ الأرض، على بُعدِ خيانةٍ واحدةٍ تُثَلُّ أمجادُ القرون، وتعوي الذؤاباتُ في مَهاويك. على بُعدِ خيانةٍ واحدة يهدأ القطا في مفاوز التّيه، وتذهبُ الطعنةُ بعيدًا بعيدًا...

ولكنْ، ما زلتَ تحتفظ حولَ أطرافكَ بأيقونات من الكافور، وتحمل في رعشتكَ ولعَ الطيشِ بالمعدِن والصلصال...

سلامًا، أيّتها الخيانةُ النورانيّة،
سلامًا، أيّتها الطفولةُ المجرمة،
سلامًا، أيُّها الوطنُ الذي لا يستفيق...

المجموعة الثالثة:

كتاب
ملوك الطوائف

"كنتم صِغارًا
تافهينَ مدى الديارْ.
صرتم صغارًا تافِهينَ
بلا ديارْ..."

(خليل حاوي)

ملوك الطوائف

" ونشأ على أنقاض الخلافة الأمويّة مجموعة من الدول الصغيرة كان همّها التنازع فيما بينها... ساسَها زعماء وأمراء عُرِفوا في التاريخ عندَ العرب بـ "ملوك الطوائف"."

(تاريخ العرب)

مجَّ الحديدُ وجوهَكم
فتَضَوَّرَت أشلاؤها جوعًا
وقد هبَّ الركامُ،
وتقلّصَ الزمنُ الوَبيلُ
على سكونِ رمادِهِ
واجتاحَهُ وطنٌ حُطامُ...
مِن أينَ؟... فالعصرُ انتهاكاتٌ سَرَقْنَ ملامِحَ التاريخ، والخطواتُ شوكٌ. كلُّ ما هدأتْ سريرتُهُ يمرُّ على الرمادِ، وها وجوهُكُمُ يُقنّعها المصيرُ –

فَلْيَهُبَّ العصرُ... إنَّ مرارةَ الشمسِ التي انفتحت

على أشيائنا تمضي، ويمضي خلفَها عَصْفٌ أخيرُ...

فَلْيَهُبَّ العصرُ... بينَ تفتُّحِ المجهولِ والرعدِ الذي

انتُهِكَت بسالَتُهُ تثاءَبتِ الخطى، ومَضَتْ دروبُ الوعدِ تسقطُ في

ضميرٍ بعثرَتْهُ كُسورُهُ... هذي عصورُ القادمينَ من الرمادِ تَغيضُ

راياتٍ بقلبي: هُبَّ، يا صلصالُ، واحتضنِ الدماءَ، وشأْ يكنْ في صَولِكَ

الداجي صَفيرُ

وتهبَّ عاصفةٌ تفيضُ على الداخلِ... ها عصورُ

الوعدِ ذابتْ غِبَّ أقنعةٍ وسرَّحَتِ الحصارَ، وها مرَرْتم بينَ أزمانٍ

مُخَلَّعةٍ فطأْطأتِ الرؤوسُ شموخَها؛ سيكونُ ما يُدني حطامَ العصرِ من

هَوْلِ الهبوبِ، سيولدُ التاريخُ مصطدمًا بأحصنةِ الهَباءِ... فَهُبَّ...

هُبَّ، يُها الحديدُ، ومُرْ يقمِ زبدٌ بأمواجِ البحارِ ويصدعُ الأشياءَ في

حجرِ الهديرِ

ولْيَكنْ موتٌ بموتٍ،

فالطوائفُ أرَّخَتْ لضميرِها لَهَبًا

وأدمَنَتِ المساءْ...

هذا أوانُ الشرْخِ

فَلْيَكُنِ الهَباءْ...!

* * * * * * *

من أينَ أبدأ الخطى؟

هنا تنامُ الملامحَ على الأقنعة – يصير القناعُ

وجهًا، تصير الأرضُ دمعًا بحجم المهزلة. ويخرجُ القَهرُ من كهوف

الليلِ، تَمضونَ إليه – ما أطولَ العصرَ الصلصاليّ! ما أثقلَ النسيم!

هنا ينفجرُ التساؤلُ، ينصدِعُ الترابُ / ينقسم... هنا أنتم: وشاحٌ

من الغروب على مَشرقِ الأمل. قد تدخل الشمسُ ورقَ التوتِ،

ويخرجُ الزوجانِ؛ قد تُقضَمُ الثمرةُ فَيُقْفِلُكمْ سيفُ النار... آآآآهٍ! ما

أطولَ العصرَ الصلصاليّ، ما أروعَ الدماء...!

بيني وبين أشلائكم التاريخُ المكسور،

بيني وبينكم كل هذا الأمل القاسي!

من أينَ أبدأ الخطى؟

تعَبٌ على ضريحِ الفضاء...

تعبٌ على ضريحِ الأرض...

وفي هبوب الصدى

تعبٌ... تعب...

بين وجهي وبين التراب الذي ينفسخ تحتَ أقدامهم

صدأ وتاريخٌ من الحطام.

كانت حولكم بُقَعُ الفضاء الممزّق وأشلاءُ الشمس وهي تفضح الذاكرة،

والذاكرةُ جدارٌ لأقنعة التاريخِ المهزوم –

هذا وجهكم:

نَفَقٌ يؤدّي إلى الصدى،

والصدى انعكاسٌ لذاكرةِ الأقنعة.

والظلامُ وشاحٌ، جدارٌ للأبدِ المحروق بين وجوهكم والأرض.

بينَ وجهي وبين التراب الذي ينفسخ تحت أقدامكم

صحراءُ من التعب والرماد

وكلٌّ... كلُّ هذا الدمار...

* * * * * *

كان تعب الخروج يهبُّ في عاصفة الحديد، وعلى النجوم مساحاتُ فطر. كان تعب الخروج أرضًا لأنقاض وجهكم، وفي المدى طعنةُ الصبر.

بين احتراق الأبدِ وعويل الأرض

تعبٌ...

بين الفضاء الفارغ والفضاء الفارغ

تعبٌ...

نامي، أيَّتُها الذاكرةُ، نامي...

لن تنهض ريحٌ في سديم الطوائف،

لن يكون عرشٌ للملوكِ بَعْدُ،

نامي...

* * * * * *

من أينَ أبدأ الخطى؟

كانَ الماءُ يحاولُ أن يفتحَ ألوانَه للأشياء؛ كانت النجوم تحاول أن تدخل زوايا العتَمَة، لكنّ الرملَ رايةٌ تلثمُ الأثير، وحولَ الذاكرةِ سُكنى الفراغ...

أجل، أيُّها المدى، في رتاجِكَ المُنخَلِع قَهقهةُ الجماجم وتَعَبُ المحاربين، في رتاجِكَ الباهتِ يكتبُ الحديدُ ملحمةَ الوطن، ويُقفِلُ السديمُ أسرارَهُ على مرَضِ العافية...

من أينَ أبدأ الخطى؟

* * * * * *

وقع السديمُ على مساحاتِ التَعَبْ!

لِضَرائحِ الذكرى عويلٌ... مُدَّ وجهَكَ، يا رمادُ، فلا نوافذ تُدخِلُ النيرانَ؛ مُدَّ صَقيعَكَ الحَجَريَّ في رحِمِ التراب، ومُرْ يكُنِ نومٌ طَويـ...يـ...لٌ...! مُرْ تُهَدَّمْ كلُّ جَبْهاتٍ شَمَخْنَ فما تركْنَ سوى بروقٍ أينَعَتْ شجرًا لَهَبْ.

وقعَ السديمُ على مساحاتِ التعَبْ!

كان الزمانُ يمرُّ محتَضِنًا نِهايَتَهُ (قعدتُمْ في الصباحِ. قرأتمُ الأخبارَ. عاينتم مواقعَكم وعاينتم ضبابًا يَخْتَلي بالفكرِ...) نومٌ واحتراقُ مسافةٍ. نومٌ ومطرقةٌ من الفولاذِ يَرفعُها القَتامُ.

فَلْيَكُنْ ما كانَ:

وجهي باردٌ

والدربُ أعصابٌ رُخامُ.

فَلْيَكنْ ما كانَ:

أقدامُ المدى كُومٌ من التاريخِ

يمسحُها الصدى... وينامُ!

بكائيّة لملوك الطوائف

مَنْ قالَ يُخرِجُني الرمادُ إلى الرمادِ، وتنتهي أرضي على عينيكُمُ؟ مَن قال يبتدِئ الخروجُ من احتضاراتِ الحطامِ؟

بيني وبين الأرضِ أوجُهُكم وما نفضت تواريخُ المهازلِ حين دَثَّرَها الحديدُ، وأرّخَتْ أبَدًا من الصَلصالِ يهزجُ في الرُكامِ.

مَن قال إنَّ وجوهَكم ليستْ تمرُّ على الفضاءِ فيَفتحُ التاريخَ في مِيثاقِ مُحْرَقَةٍ؟ يجيءُ الليلُ نحوي حامِلاً أطْمارَهُ وينامُ حيثُ تنامُ ذاكرةٌ من الشعبِ المُضَمَّخِ بالجراحِ. هنا اتَّكَأتُم فادلَهَمَّتْ رُؤْيَةٌ، ونَما الحديدُ على غيوم النار. كنتُ أخيطُ ما تَرِثُ الحضارةُ من حجارةِ إرْثِها الملعونِ، كنتُ أمرُّ في عطشِ الصدى فيمرُّ رعدٌ طرَّزَتْه جِراحُهُ. مَن قال إنَّ الخارجينَ من الذهولِ يُخَلِّفونَ شُعورَهم بينَ الجَلاميدِ البعيدةِ؟ ها تَرامى الجرحُ في سَهْلِ النجومِ الباكياتِ، وها ارتَمَيتُ فأرّخَتْ أرضي لأرضي وجهَها.

بيني وبين الأرض أوجُهُكُمْ

وصلصالُ التواريخِ التي مَرّتْ على أيديكُمُ

فَهَوت وحاصَرَ وجهَها الموتُ الزؤامُ.

بيني وبينكُمُ الترابُ

وكلُّ ما تركَ الحديدُ،

وكلُّ ما بَنَتِ العِظامُ.

كم كنتُ أملأ رؤْيَتي بالضوءِ! لكنَّ المدى

يَهوي على ميثاقِ جَمهَرَةٍ يحطّمُها الصدى،

وأمرُّ في رؤْيا تُهَدهِدُ ليلَها حيثُ ارْتَعى اللبلابُ

أيّامَ الجراحِ، فلا أمرُّ ولا أنامُ...

هذا احتضارُ رمادِكمْ - مَن قال يُخرِجُني الرمادُ إلى الرمادِ؟ مَنِ انتهى مثلَ انهدامِ صاعِقٍ يَروي انهدامَ المعدِنِ المصهور...؟ آآآآهٍ! قد يقودُ الليلُ قبرَ المستحيلِ إلى إلى فضاءٍ فارغٍ، قد ينتهي وجعُ الجِدارِ إلى جدارٍ مُقفَلٍ... آهٍ! لَوَ أنَّ الجمرَ يُنهي موتَهُ بفتوحِهِ...!

عُشْبٌ يحطّمُ تُرّهاتِ الذكرَهْ

ومدًى يمرُّ على دروعِكُمُ

فَيفتحُ لي مديحي،

ويَقرأ كلَّ نفسٍ في مديحِ الجَمرِ،

يقرأ لي ضريحي،

ويهبُّ في خَسْفِ العيونِ الماكرَهْ.

مُدّي رمادَكِ، يا نفوسُ، وهُبَّ، يا فولاذُ، لن يطأ الثرى إلاّ سُهادُ المستحيل. لَوَ أنَّ وجهي طاوَعَتْهُ دموعُهُ لَهَوَتْ كواكبُهم على ميثاقهم، ولَوَ أنَّ بينَ عظامِهِمْ رمتِ القبورُ رُفاتَها لَتَكَوَّمَ التاريخُ في حجرٍ وفجّرَ نفسَهُ. آهٍ، اهدإي، يا نفسُ، إنَّ الشاهدَ المجنونَ يَرْتَجِلُ البقيّةَ، يفتحُ الأنقاضَ في أبدِ التساؤل. لو يُقيمُ رمادُهمْ سَدًّا من الليلِ السميكِ على ثلوجِ الرؤْيةِ البلهاءِ، لَوْ أنَّ الضحايا أرّختِ أعمارَها للجرحِ، لامْتَصَّتْ حطامَ الشرقِ وَهْوَ يذوبُ في صحرائهِ... مُدّي رمادَكِ، يا نفوسُ، وهُبَّ يا صلصالُ، لن تبقى طحالبُ للخروجِ، أنا النفوسُ تُهَدْهِدُ اليأسَ المطرَّزَ حولَ أطماعِ الطوائفِ، والرياحُ تقومُ من قُمَمِ الزمانِ إلى بلادٍ لا تكونُ.

شُدّي رحالَكِ، يا نفوسُ، على رمادِ العمرِ،

ها هُوَذا الجنونُ

يأتي، ويرقدُ في صخورِ وُعورهِ موتُ حنونُ –

وطَنٌ يُسَيِّجُ نفسَه بالمستحيلِ

ويحتوي وَهْجَ البُقَعْ.

ألصمتُ يَبْرُكُ فوقَ خاصرَةِ الوجعْ –

للصمتِ أطفالٌ ووجهٌ وانتظاراتٌ وأشلاءُ ضحايا.

كنتَ رُؤْيا.

غيرَ أنَّ مداكَ لا يَسَعُ القبيلةَ.

كنتَ تمشي هادِرًا بدِماكَ تُفرِغُكَ الخطى

وتقودُها بشرٌ يُفَكّكُها الحطامُ.

مِن أينَ تدخلُ

والصحارى ترتمي فيها الخِيامُ؟

مِن أينَ تدخلُ، أيُّها الرائي،

وأفواهُ الزمانِ رمالُ تاريخٍ،

وتاريخٌ ركامُ؟

مُدّي رمادَكِ، يا نفوسُ، فإنَّ بين النصِّ والأرضِ انتظاراتٍ تموتُ، وهُبَّ، يا هَوْلَ الطواغيتِ العِتاقِ، فلن يكونَ الليلُ إلاّ مُوغِلاً بظلامِهِ. هذا ابتداءُ العصرِ، فلْيَهوِ الفضاءُ بيأسِهِ. هذا ابتداءُ العصرِ فلتَقُمِ الذنوبُ.

وَلْتَكُنْ عينٌ بعينٍ. ليسَ في طعمِ الرمادِ سوى الحُموضةِ.

فَلْتُجَنَّ الريحُ، وَلْيَكُنِ الهُبوبُ...

هذا ابتداءُ العصرِ: تخترعُ الطوائفُ ما يقولُ ملوكُها أبدًا، ويخترع الشحوبُ

ما يَلغُمُ التاريخَ بين القبر والقبرِ. أنتظارٌ بائدٌ، وحريقُ أجنحةٍ تَهمُّ فلا تطيرُ. وُجوهُكم وطنٌ وأحلامٌ لمَنْ زرعَ الفضاءَ دُجُنَّةً. آهِ، اهدَإي، يا نفسُ، إنَّ الشاهدَ المجنونَ يدخلُ في ملوكِ طوائفٍ حيث المدى صخرٌ وصحراءٌ وشعبٌ لا يقومُ. وُجوهُكم صَدَأ ترَسَّبَ في العظامِ، وجوهُكم تهوي إلى النصِّ الجريحِ فلا يهبُّ سَمَندَلٌ. آهِ! ارتَفعْ، يا جرحُ، وانتهبِ الفحولةَ، كلُّ أرضٍ أرّخَتْ لدمائها، كلُّ انتظار طاردَتْه حُتوفُهُ...

مَن يقرعُ الصمتَ الأخيرَ؟

ومن يلجُّ فلا يرى إلاّ الرمادَ؟ لأنتَ وجهي، أيُّها اليأسُ الحليفُ – وكيف لا تمضي على الصدإ المُواصِلِ زحفَهُ وتنامُ في

ليلٍ وقبرٍ مدّدَتْهُ وجوهُهُمْ فينا؟ يمرُّ العصرُ مُحْتَضرًا، ويكسِرُ رايةَ التاريخِ، يكسِرني.

وجهٌ يطاردُني

وينبتُ بينَ أنقاضي وجوهًا...

مَن يلجُّ فلا يرى إلاّ رمادًا؟ من يهدهدُ لعنةَ التاريخِ من غيبٍ تأبّدَ ليلُهُ؟ هذا ابتداءُ العصرِ، فاتّخذوا قِناعَكُمُ وناموا. لن يكونَ الليلُ إلا موغِلاً بظلامِهِ!

أرضٌ على أرضٍ تردُّ دمارَها،

والرُعْبُ يفتحُ وجهَهُ لِصدى العويلِ.

أرضٌ على أرضٍ تموتُ، وتحتها

زمنٌ يُضَمِّخُ جرحَهُ

في هولِ وعدٍ مستحيلِ...

قبور لملوكِ الطوائف

١ – قبر:

عينٌ يوغِلُ فيها لبلابُ الصبرِ المحروقِ
وأخرى ترقدُ في الليلِ.
ترابٌ يُكمِلُ لوحةَ هذا القبرِ،
ترابٌ يأكلُ هذا القبرَ،
ترابٌ يُغرِقُ طائفةً تتفيّأ تحتَ ترابٍ...

١ – قبر:

في الأحلام رمادٌ –
في القبرِ رمادٌ.
شعبٌ يفتحُ أحشاءَ الشمسِ
ويخرجُ من رئةِ الليلِ.
رمادٌ لشعوبٍ تسكنُ في مَهزلَةٍ سَمَّوها وطَنًا.
تاريخٌ يكتبُ طائفةً تتكسَّرُ في تاريخٍ.
في القلبِ رمادٌ

يمضغُهُ طعمُ رمادْ...

٣ – قبر:

نَبَشوا.
وجدوا وجهًا مَخصِيًّا يأكلُ وجهًا مَخصيًّا...
نَبَشوا.
وجدوا وجهًا يَنبش في وجهٍ مَخصِيٍّ...
نَبَشوا.
وجدوا رُعْبًا وبلادًا تبحثُ عن قبرٍ،
وجدوا رجُلاً يطرحُ في القبر رُجولَتَهُ
ويصيرُ ملامحَ في وجهٍ مَخصِيٍّ.
نَبَشوا.
وجدوا فِلسًا دَمَويًّا تتشرّبُهُ طائفةٌ،
ورمادًا للشعبِ المَقهور،
وأكفانًا للزُلْفى...

٤ – قبر:

وجهٌ يتخلّى عن كلِّ ملامِحِهِ.

وجهٌ يتكسّرُ في وجهِ اللهِ

وأحلامٌ مَقهورَهْ.

وجهٌ ينسى أنجُمَهُ

في وجهِ مَيْتٍ...

وجهٌ يُخصيهِ الفِلْسُ

وتُخصيهِ آبادٌ مَقدورَهْ.

٥ – قبر:

ألأمّةُ تكسِرُ سَيْفًا يحملُهُ اللهُ.

دُروبٌ تُغلَقُ في الأمّةِ.

بينَ الأمّةِ والقبرِ فراغٌ.

طائفةٌ تَسقطُ في الأمّةِ – تُسقِطُها.

هيَ ذي الأمّةُ والقبرُ المفتوحْ.

٦ – قبر:

صدأ للوجهِ المَطموسِ بطائفةٍ مَطموسَهْ.

صدأ لِملوكٍ يَتَقيَّأها الفكرُ

وحالاتُ الوطنِ المتكسِّرِ.

أحلامٌ للصدإ المَرميِّ على قبرٍ مَنسيٍّ.

صدأ لِفضاءِ الجدَثِ المَنسيّ.

٧ – قبر:

أللهُ تَمَدَّدَ في القبرْ.

خَلّى العرشَ لأطماعِ مُلوكِ طوائفِهِ...

المجموعة الرابعة:

كتاب إسماعيل

مدخل إلى إسماعيل

كان اسمُهُ مُسَيَّجًا بلَيْلَكِ المسافَهْ –
كانَ اسمُهُ المسافَهْ.

تقولُ جدّتي:
ما زالَ إسماعيلُ هائمًا في ذاتِهِ
عَيناهُ لؤلؤٌ
وفي يديهِ شَمسُهُ المُخَبَّأهْ.
تقولُ جدّتي:
ما زالَ إسماعيلُ خَيمةً
على سواقي الضوءِ والعبيرِ
في عينيهِ يُجبَلُ المدى،
وفي يديهِ شمسُهُ.

تقولُ: مِنْ زَمانْ
كانَ اسمُهُ مُسَيَّجًا بلَيْلَكِ المسافَهْ –
كان اسمُهُ المسافَهْ...

نشيد إسماعيل

يمشي الزمانُ إلى الزمانِ. تمالكوا أنفاسَكمْ.
يمشي الزمانُ... فلا وقوفَ. تمالكوا أنفاسَكمْ.
والليلُ يبتلعُ الزمانَ. تمالكوا أنفاسَكمْ.
ليلٌ لإسماعيلَ تُفرغُهُ ملامحُهُ.
ليلٌ لشمسٍ أقفلَتْ أنوارَها وتكوَّمَتْ.
ليلٌ لأحلامِ الزمانِ ولا زمانْ،
والليلُ يبتلع الزمانْ...!

يا مَنْ يُسافرُ في هديرِ الليلِ، نَمْ!
عبثًا تفتّش عن بقايانا على الجدرانِ. نَمْ!
عبثًا تَلوكُ كلامَنا.
عبثًا تفتّشُ عن فدائيٍّ يشاءُ فيصنعُ التاريخَ، نَمْ!
عبثًا تفتّشُ في هدير الليلِ، نمْ!
ليلٌ لزنبقةٍ يُلَوّنها الجُمانْ.
ليلٌ لأقنعةٍ وأقنعةٍ وأقنعةٍ...

ليلٌ لرعدِ الصوتِ يَصْهَلُ
في سيوف "الفتحِ" يعقبهُ دخانْ.
ليلٌ لأزمانٍ تلمُّ جراحَها،
والليلُ يبتلعُ الزمانْ...!

كان اسمُهُ في الشمسِ إسماعيلْ
(ويظلُّ إسماعيلُ منكسرًا).
كان اسمُهُ في الرملِ إسماعيلْ
(ويظلُّ إسماعيلُ من حجرِ التعبْ
رملاً ومن غيمِ الرحيلْ...)
كان اسمُهُ في الظلِّ إسماعيلْ
(سمّاه بَعضُهُمُ خِيامًا
أو رحيلْ،
سمّاهُ بعضُهُمُ خرافَهْ.
عيناهُ رملٌ واليدانِ غَمامةٌ شمطاءُ
والقدمانِ تَيْهُ...)
كان اسمُهُ مُسَيَّجًا بلَيْلَكِ المسافَهْ –

كان اسمُهُ المَسافَهْ...

يمشي
وتحضنُهُ جراحُهْ...

عيناه أرصفةٌ من الطوَفانِ
لم يُغسَلْ
ولا غُسِلَتْ جراحُهْ!

مِن أينَ يبدأ مَحوَ تاريخِ القبيلةِ
يبدأ التكوينَ؟
سَيْلٌ من مجرّاتٍ فَناءٍ،
سيلُ أحصنةٍ وفي عينيهِ مذبحُهُ
(تُراهُ يَشُجُّ بالنظرِ الكواكبَ،
يركبُ الحُلُمَ المصفَّحَ؟)

لا يمرُّ

ولا يراوحُ –
كادَ يُتلِفُهُ الكلامُ.
عصرٌ من الطوَفانِ يخفُرُهُ،
ويَخفُرُهُ الظلامُ.

أمشي
وبيتي نائمٌ
(قدمايَ دربٌ
والرمالُ بقيّةٌ...)

(مَن أنا؟)

لكنّني طيفُ البقيّةِ
وهْيَ تحلُمُ في الحطامْ...
أمحو الزمانَ – ولا زمانَ –
يكادُ يُتلِفُني الكلامْ!

كفَنٌ، وتثقبُ كلَّ جمجمةٍ أثيرَ الشرقِ –
قيلَ: تجيئهُ نارٌ وترفعُهُ الغيومْ...
ودّعتُهُ،
لكنّني أمضيتُ عمري صورة مجهولةً...
ودّعتُهُ
ومَضَيْتُ في عينيهِ
لستُ بمُنتَمٍ،
لكنّني قسّمتُ وجهي للتخومْ:
بشرٌ يُكوِّرُ ربَّهُ درعًا لِطائفةٍ،
قزمٌ تألّهَ
واحتمى بالأرضِ يرفعُها سماءً...

ومضى...
ومضيتُ في عينيهِ تنبذني القبائلْ:
يمشي وعيناه نجومٌ
والمراراتُ وشاحُهْ.
يمشي وتحضنهُ جِراحُهْ...

في قلبهِ فَوَرانُ أجيال

وثمّةَ غيبةٌ مجهولةٌ... (شعبٌ يمرُّ ويمسحُ التاريخَ / كلُّ قبيلةٍ

وجهي، وكلُّ مرارةٍ

وجهي، وكلُّ خطيئةٍ / وطنٌ يمرُّ...)

حتى الصلاةُ تصيرُ أقنعةً ونعلاً!

بين عيني والفضاءِ مرارةٌ

وعلى الصدى صمتٌ أمرُّ...

ودّعتُهُ

فإذا بهِ خَطواتيَ الأولى،

إذا بضميرهِ صوتي وأحلامي...

وكنتُ الشرقَ يخبطُ في مهازلِهِ –

غدوتُ الشرقَ يخبطُ في مَهازلِهِ:

بقايا

من حطامِ الدهرِ

تحرسُ ما دعَتْهُ موطنًا،

وتظلُّ ترفعُ في البطاحِ خِيامَها... وجِمالَها...

وتضيع بينَ الرملِ... شيئًا كالرمالِ!

مضى...

ومضيتُ في عينيهِ تنبذني القبائلْ /

بيني وبينَ الأرضِ أعيادٌ

رسائلْ.

بيني وبين مداخلِ الآتي مَفازاتٌ،

ملوكُ طوائفٍ –

لم يبقَ من جسدي سوى اللغةِ القتيلْ.

لم يبقَ من حجرِ الجناحِ سوى الحجرْ.

لم يبقَ من وطني سوى لفظٍ

وصحراءٍ يضيع بها الدليلْ...

ويمرُّ إسماعيلُ في وطنٍ / دِماهُ غيمةٌ،

ويداهُ حقلٌ لِلمسافَهْ...

ويمرُّ مِن أجلِ العصور تجمّعتُ في دمعةٍ

ورمَتْ ملامِحَها الخُرافَهْ.

ويمرُّ إسماعيلُ مثلَ خرافةٍ عربيّةٍ،

ويقولُ للأرض: ِ اتبعيني!

(لا يمرُّ ولا يُراوحُ /

إنّهُ زمنُ الهَباءِ السرمديُّ).

يمرُّ إسماعيلُ مثلَ خرافةٍ عربيّةٍ

(لم يبقَ منه سِواهُ) يخرجُ من لُهاثِ الشِعرِ

مُختلِفًا، كثيرًا،

والسماءُ قرارُهُ،

والحُلْمُ يُسرِجُهُ حِصانْ.

ويطيرُ فوقَ الليلِ؛ يحزمُ موجَهُ في حُلْمِهِ

والليلُ يبتلعُ الزمانْ...

يا مَنْ يُسافِرُ فوقَ جرحِ الليلِ

إسماعيلُ موجُ الليلِ

إسماعيلُ لونُ الليلِ

إسماعيلُ جرحُ الليلْ...

يا مَن يَقُدُّ الرعدَ من نزْفِ الغَمامْ،

أخرجْ من الكتُبِ العتيقةِ واحترِقْ.

أخرجْ من التوراةِ، فُضَّ بكارة الأرضِ،

احْترِقْ...

(نجمٌ لإسماعيلَ يُحرِقُ في الظلامْ

أسمالَهُ، ويغورُ في الرُؤْيا،

وفي الرؤْيا ينامْ).

أخرجْ من الزمنِ الميتِ، وجُسَّ نبْضَ الرعدِ،

واحترِقِ، احترِقْ...

أمشي

وتحضنني الجِراحُ.

مُتَوَغِّلاً في غَيهَبِ الرؤْيا

يحطُّ بيَ الجناحُ

في كوكبِ الدمِ / (مَن يُكَوِّنُ من جديدٍ

باسْمِ هذا الشرقِ،

باسمِكَ؟) هل يصيرُ الرملُ عينًا للمياهِ؟

وَجَدْتُني أمشي إليكَ،
أصيحُ: كُنْ، فيكونَ...
أحترفُ المسافةَ، والمسافةُ لَيْلَكُ...

يمشي
وتحضنُهُ الجراحُ /
جراحُهُ سَفَرٌ إلى سِفْرِ الدخولِ،
جراحُهُ سَوْطٌ يحزُّ ظهورَ "أبناءِ الأفاعي"،
يَصْدَعُ التَلْمودَ
باسْمِ الشرقِ،
باسمِ عروبةٍ أصفى من التكوينِ:
كُنْ فيكونَ...
إسماعيلُ، إسماعيلُ...
لُمَّ حطامَكَ المتدَّ وادخلني،
ولُمَّ الوعدَ في ضَرَباتِ صاعقةٍ
تُلَخِّصُ نَهْضةً عربيّةً من قلبِ هذا الشرقِ.
إسماعيلُ، لُمَّ حطامَكَ المتدَّ وادخلْني

ومهِّدْ لِلمدى العربيِّ أغنيةَ الرجوعِ.
(على عيونِكَ وردةٌ،
والليلُ يحبلُ بالغيومِ –
غيومُكَ الجمرُ المؤجَّجُ فاحترقْ...
أعصابُكَ الجمرُ المؤجَّجُ فاحترقْ...
وكنِ الهبوبَ،
كنِ الذي سيكونُ يا أُسماعيلُ،
واحترقِ، احترقْ...)
باسمِ العروبةِ ينحني،
وجراحُهُ سَفَرٌ إلى سِفْرِ الدخولِ،
جراحُهُ سَوطٌ يحزُّ ظهورَ "أبناءِ الأفاعي"،
يصدعُ التلمودَ،
باسمِ الشرقِ،
باسمِ الأرضِ تخرجُ من ضبابِ القبرِ،
تحترفُ التواصُلَ.
يا الذي مِن جَمْرِهِ جَبَلَ الكواكبَ والنجومَ،
يصيرُ وجهُكَ كلَّ وجهٍ،

ويصيرُ صوتُكَ كلَّ صوتٍ...

باسمِ هذي الأرضِ لُمَّ حُطامَكَ المتدَّ وادخلني،

ولُمَّ الوعدَ في ضَرَباتِ صاعقةٍ

تُلَخِّصُ نهضةً عربيّةً من قلبِ هذا الشرقِ،

باسمِ الوعدِ،

باسمِ الحلْمِ،

باسمِ الرعدِ يجتاحُ المكانْ،

ويظلُّ إسماعيلُ نَبْضًا في النجومِ

يلخّص الدنيا،

ويخترعُ الزمانْ،

ويظلُّ إسماعيلُ "فتحًا"

فوقَ خيلِ البرقِ

يحترفُ الحياة

ولا زمانْ...

(١٤ - ٧ - ١٩٨٨)

مرثية إسماعيل

- ١ -

داخلا في لعنةِ الوقتِ

وعيناهُ حُطامُ،

لَفَظَ التاريخَ في غربتهِ

والغربُ وحشٌ وظلامُ...

مِن طعْمةِ الأرضِ المريرةِ يَبْتَدي

وتميدُ تحتَ الأرضِ شَرْنَقَةُ الدُجى...

أيمرُّ؟ / كانَ يمرُّ في غَسَقٍ يُطَرِّزُهُ الضياعْ

وجبينُهُ المجروحُ يمتشقُ الحضارة

والحضارةُ خِرْقَةٌ...

أيمرُّ؟ /

كانَ يمرُّ في أشيائِهِ

خَرِبًا بليدا...

يُهدي إلى عينِ الزمانِ زمانَهُ وعيونَهُ،
وإلى الإشاراتِ التي تُمَيِّزُهُ صَديدا،
ويَفيضُ في رملِ المدى رملاً
وبعضَ عشيّةٍ مكسورةٍ /
عَرَقٌ... ويحترقُ الغضَبْ...
عَرَقٌ... وينطفئُ اللَهَبْ...
مِن طَعمةِ الأرضِ المريرةِ يبتدي،
من طعمةِ الوقتِ الكسيرِ
وطاقةِ الهذيان:
لا أرضٌ تمرُّ بطَعْمَةِ إلدمِ،
لا بلادُ؛
والموتُ تاريخٌ مُعادُ...!

- ٢ -

في الليلِ،
حين تصيرُ شمسُ الأرضِ فَحْمًا،
تُهجَرُ الخطَواتُ في الدربِ البَوارْ

ويصيرُ إسماعيلُ حُلمًا
في عيونِ الشمسِ /
أعطي للتخومِ لهيبَهُ،
وأوزّعُ النَبَضاتِ في هَولِ الحِصارْ...
في الليلِ
تخترعُ الحضارةُ غربةً عربيّةً
ويغيبُ سيفُ "الفتحِ" تحتَ جليدِهِ،
وتجفُّ أعصابُ البذارْ -
غَرْبٌ
وعاصفةٌ من الدُوَلِ السبايا
تمشي إلى ألَقِ القصائدِ،
تُفرِغُ الخطَواتِ من خَطَواتِها:
وطني المرايا،
وطني خِيامُ الأنبياءِ تناثرت فيهِ شَظايا.
مِلْحٌ أنا،
حجرٌ تُفَتِّتُهُ القضايا
ويمرُّ تحتَ ركامِهِ الخاوي

ويُفجِعُهُ الركامُ –

مِن أينَ نبني العرشَ مُخضَرًّا

وكلُّ عروشِنا

بشرٌ حُطامُ...؟!

– ٣ –

في الفجرِ،

قبلَ رمادِنا،

قبلَ السدودِ وقبلَ تاريخِ الصحاري،

كانت رياحُ الوَعرِ تسكنُنا،

وتحفرُ نارُنا أسماءَنا،

ويضِجُّ في أعصابنا عَصَبُ البراري...

أعطيكَ هذا القلبَ يفتحُ خطوَهُ جَمْرًا،

ويفتحُ دربَهُ جمرًا،

ويغرقُ في مَتاهاتِ الجِمار،

أعطيكَ هذا الفجرَ

سُنبلةَ الحقولِ وطعمةَ الأصواتِ –

إسماعيلُ،

أهدي الوقتَ للهذيانِ؛

شُدَّ عليهِ أحلامَ الرصاصِ

وشُدَّ هذا الصمتَ

ولْيَكُنِ الغروبُ

أعلى من الهذيانِ،

ولْتَكُنِ الذنوبُ

هوجاءَ تَصْدَعُ وقتَنا المنهارَ؛

شُدَّ على الإشارةِ قبلةً وثنيّةً،

شُدَّ الرمادَ على الرمادِ

فيثقبَ التاريخَ من ضَجَرٍ

وينطفئَ اللهَبْ.

سقطَ السديمُ على أساطيرِ السنينَ

وهَدَّ أرصفةَ الغضَبْ...

– ٤ –

الأرضُ سردابٌ من الصبرِ المقدَّدِ في العروقِ –

(أمَشيتَ؟) كانت حولَكَ الزَفَراتُ تمشي
والجِراحُ قصيدةً – (أمشيتَ؟)
كنتُ أراكَ تمشي في البروقِ
وتُجَمِّعُ الغيمَ المُنَدّى
غيرَ كفٍّ من لهيبِ الشمسِ
يهوي في الرمالْ،
ويعودُ إعصارًا
يُزَوْبِعُ ما تجمّعَ
من غيومِ الغيثِ
في شَبَقِ الرجالْ –
ألأرضُ سردابٌ وفي خطواتِهِ عَفَنُ الدروبِ...
(مشيتَ
تحتَ عريشةِ الليلِ
اشتَهَيتَ الخمرَ، هل كانَ العِنَبْ
عَرْشًا لزهوِ الليلِ في عُرْسِ المحالْ؟
أمَشيتَ؟ لكنَّ الخطى
رملٌ...

ولونَ الأرضِ رملٌ...
والغضَبْ
رملٌ... ورملٌ... ورمالْ...)

– ٥ –

في الليلِ
كانَ رمادُهُ دربًا،
وكانَ الليلَكُ المجروحُ تاريخًا،
وكانَ الوقتُ فحمًا / لم يعدْ
يمشي إليهِ سوى ضميرٍ ماحِلٍ.
في الليلِ،
حينَ يصيرُ وجهُ الغربِ ثقبًا في السديمِ،
ينامُ وجهي في سطور النصِّ –
إسماعيلُ، هذي الأرضُ تَيْهُ، والرياحْ
عادةٌ تزني وأحلامٌ تُباحْ...
هل كانَ في خَطَواتِهِ إلاّ شعوبٌ
هدّها طولُ النُباحْ؟

- ٦ -

مِلْحُ

وكأسٌ من ترابِ الملحِ.

مفتاحٌ يدورُ ولا يدورُ:

يظلُّ بابُ الوقتِ مُنقفِلاً

ولونُ الوقتِ مُنقفِلاً –

يمرُّ على الترابِ ولا يمرُّ:

هَمسٌ، وأعصابٌ مُحَجَّرَةٌ،

وأزمانٌ تَكُرُّ...

ويظلُّ بابُ الوقتِ مُنْقَفِلاً

وأحلامُ اللهيبِ شَظايا،

ويظلُّ إسماعيلُ جرحًا في الضميرِ

تلفّهُ خِرَقٌ، سَبايا،

ويظلُّ وجهُ الشرقِ مُنْقَفِلاً

تدوسُ جبينَهُ قَدَمُ البَغايا...!

(شباط – ١٩٩١)

المجموعة الخامسة:

كتاب بابل

"جيلٌ يأتي وجيلٌ يمضي، والأرض قائمةٌ مدى الدهر."

(سِفر الجامعة)

" مَن يدري ما هو خيرٌ للشر مدةَ أيامِ حياتهمِ الباطلة التي يقضونها كالظلّ؟ ومن يُخبر البشرَ بما يكون فيما بعد تحت الشمس؟"

(سِفر الجامعة)

١ - لوحات

- لوحة -

- ١ -

بين وجهها والفضاء
فراغٌ،
وحطامُ الفراغ...

- ٢ -

وجهٌ ينفتح على صحارى المدى
والأفقُ رملٌ
يرقد فوقَ الرمل.

- ٣ -

شعب سَرابيّ

في وطن سرابيّ؛

والأملُ ظلٌّ غريب

في هجير الصحراء...

- ٤ -

"جميعُ الأمور تُعيي فلا يستطيع الإنسانُ

أن يشرحَها...

ما كانَ فهو الذي سيكون..."

أرضٌ عَصِيَّةٌ كالدمعة،

وطنٌ كالزئبق،

ناجيتُ قلبي

فإذا بهِ مُنقفِلٌ كالدائرة -

لماذا، لماذا لا تؤمنينَ بالأنبياء

يا بابلَ الأرضِ الخراب؟

- ٥ -

باطلٌ هذا الضباب المُداجي،

باطلٌ هذا التراث السَرابيُّ مِن أنسِجةِ النور،

باطلٌ هذا البرجُ السامقُ

من عصارةِ الألمِ والدمِ والدموع...

- ٦ -

"ناجيتُ قلبي قائلاً:

هَلُمَّ فأبلُوَكَ بالفرح،

وإذا هذا أيضًا باطل..."

أوّاهْ!

"ليس تحت الشمس شيء جديد..."

- لوحة -

من قال: بين الوطن والوطن
إعصارٌ أو قفزةٌ؟
"لِلحرب وقتٌ
وللصلحِ وقت؟"

كان بيني وبين المدى
بابل
وتاريخ من السراب...
كان بيني وبيني
تراث من الطوائف
وهذا الوطن الذي لا يقوم!

- لوحة -

"التفتُّ إلى جميع أعمالي التي عملت يداي
فإذا الجميع باطل وقبْضُ الريح"!

بابلُ، بابل،
كيفَ، ونحن فيكِ، الخروج؟

٢ - قصيدة بابل

(أو رحلة جَلْعاد)

- ١ -

مُبحرٌ في ضجيج السكينةِ
أحملُ وجهيَ عارًا
على كتلةٍ من ترابٍ
تُسَمّى وطَنْ...
بيننا الصَلبُ
والحجرُ المُستَكينُ الذي لا يُزاحُ
وكلُّ فضاءِ الكَفَنْ...
مبحرٌ في الجليدِ المُؤَصِّلِ نحوي
لعلّيَ أكشطُ عن جسدي
وطنًا
غارقًا
غارقًا
في العَفَنْ...!

- ٢ -

هادِئٌ...
في عيونيَ تَيْهُ،
وفي الدربِ يحتشدُ التَيْهُ -

كيفَ، إذًا،
تتجمّعُ في قدمي الدربُ،
أخرجُ من غابةِ الأرز
نصفَ إلهٍ
فأبتكرُ الملحَمَهْ؟

هادئٌ...
والمدى مستحيلٌ كدائرةٍ -
كيف تنفتح الدائرَهْ؟
كيف أخرجُ من بابلٍ
لأعودَ إليها جديدًا،
وبابلُ عيناي،

بابلُ في قَدَري غائرَهْ؟

- ٣ -

كان جَلعادُ مِلحَ الثرى
والثرى رَطِبٌ،
يُخرِجُ الفِطرَ من كلِّ برعُمَةٍ...
(أخلعُ الآنَ وجهي
وأطمرُهُ في الجليدِ الجليدْ...
أخلعُ الذاكِرَهْ
وأعودُ جَنينًا إلى السِمْتِ
أسترجعُ الذاكِرَهْ -
هكذا أفتحُ الدائرَهْ!)

ولكنّه الوقتُ
يضربُ وجهَ السديمَ بحافِرِهِ
ويقدُّ غبارَ الولادةِ عن طِرْحِهِ
فيكونُ الوطَنْ

شامخًا كالرِياءِ الذي اخترقَ الشمسَ
وانحلَّ في الأقنعَهْ
وجهَنا
وسَنا الذكرَهْ...

(أخلعُ الآنَ وجهي
وأطمرُهُ في الجليدِ الجليدْ...
داخِلٌ في الغبار
وكلُّ مرارتِهِ
انَّهُ... لا يُريدْ!)

- ٤ -

قبلةٌ من جليدٍ
على شعلةٍ من لهيبِ الضياءْ،
وعشتارُ خارطةٌ للمدى
(كفُّها مَطَرٌ
قدماها سَديمٌ طويلْ...

وفي العينِ أرجوحةٌ
للحنينِ الثقيلْ...)

- ٥ -

بابلُ اشتَعَلَتْ
(هل رأيتَ لهيبًا يُجلّدُ أضلاعَنا
في صحارى الصدى؟)
بابلُ اشتعَلَتْ:
كيفَ ينفجرُ الزرعُ من رَحِمِ الأرضِ؟
كيف يصير المدى
لَهَبًا واحتراقًا؟
ولكنّه الوقتُ
يضربُ وجهَ السديمِ بحافِرِهِ
ويطيرُ...
(أتسكُنُني النارُ؟)
يحترقُ الجسمُ رحلتَهُ
في الضبابِ المسمّى وطَنْ.

مُبحِرٌ في الجليدِ المُؤصّلِ
يكشطُ عنه الكَفَنْ،
مبحِرٌ... مبحِرٌ...
أفقُهُ صِهْلَةُ النار
تنفرُ من وطنٍ
غارقٍ
غارقٍ
في العَفَنْ...!

- ٦ -

إنّهُ الآنَ يبتكرُ المَلحَمَهْ /
يخرجُ الأفقُ من غابةِ الأرز
مثلَ جَنينٍ
وينزفُ وحشُ المسافةِ -
(عيناه مِلحٌ،
وبينَ أصابعِهِ الزمنُ المرُّ،
لكنّهُ واقفٌ يأكلُ الوقتَ

والوطنَ المتفكِّكَ / هلْ
يتقدّمُ منهُ
أمَ أنَّ غناءَ الزمانِ المسافرِ
يُقفِلُ حولَ الدروبِ المدى؟)

إنّهُ الآنَ يبتكرُ المَلحَمَهْ
ويمرُّ من الموتِ عبرَ بحار الحديدِ المُحَمّى
إلى شَبَقٍ مثلَ وَهمِ الخلودِ –
يمرُّ من الموتِ عبرَ المعاناةِ،
يحلمُ بالكَرَز المتوحِّش،
بالشمسِ وَهْوَ يُعيدُ إليها الملامِحَ،
يصنعُ منها عصيرَ الخلودِ –
ويحلمُ بالأرضِ ثديًا وطِفلاً
ومَهدًا يغنّي له عاشِقانْ...
ولكنّه الوقتُ
يضربُ قلبَ السديمِ بحافِرِهِ،
ويُعيدُ الولادة نحوِ المعاناةِ،

يختصرُ الحلْمَ /
(هل يُخرِجُ الشِعرَ مملكةَ الكونِ؟
أمْ هل يعودُ الهَباءْ
وطنًا للرحيلِ
وعُرْسَ فناءْ؟)

– ٧ –

بابلُ تقرعُ الفكرَ
(هل يوقِظُ الليلُ نارًا؟)
يمرُّ الصدى فوقَ وجهي
كَلَسْعِ الحديدِ الذي أمطرَتْهُ المُعاناةُ،
يخترعُ العصرَ
أرصِفةً للرياءِ،
ووجهي على النار يمسحُها بالندامةِ:
بابلُ جرحي
وبابلُ عُمرٌ تغَمَّسَ بالكُفرِ والموتِ،
بابلُ هذا الفضاءُ الذي طرّزَتهُ الغَرابات،

بابلُ مزرعةُ الطيفِ،
بابلُ عمرُ السَرابِ وقد أجَّجَتْهُ الرمالُ.
تُرى
يوقِظُ الليلُ نارًا،
وينتحرُ الوقتُ في ليلِهِ السرمديِّ؟
أعودُ إلى الدربِ
والدربُ مُحرِقةٌ مثلَ حلْمٍ طويلٍ
ورائعةٌ مثلَ حلْمٍ طويلٍ،
ومَلْحَمَةُ الوقتِ تجلدُني /

إنّني موغِلٌ في فضاءِ الترابْ
في جذور النباتِ
أفتّشُ عن عُشبةٍ
تتحدّى سَرابَ الغيابْ...

– ٨ –

كيف ينحدرُ الوقتُ من قصرِهِ المستحيلِ

إليَّ،
ويلثمُ وجهي،
ويركضُ خلفي إلى وطنٍ كالسَرابِ
تَخَلّى عنِ الأرضِ؟ / كيفَ
أعيدُ الخروجَ إلى بابِهِ المُتَصَدِّعِ
أوْ
أزْرَعُ الوقتَ في صدرِ مِنجَلْ،
وأحتَرِفُ النارَ؟ / كيفَ
أديمُ التَوَهُّجَ، بابلُ،
والعَصْفَ والهَدْمَ؟ –
هذا الحِصارْ
يُلازِمُ قلبَكِ / والموتُ يَفتَتِحُ العصرَ...
هذا الحِصارْ
جَمَلٌ...
كيفَ؟ / لا يَفتَحُ الوقتَ غيرُكَ،
لا يقرأ الزمنَ المرَّ غيرُكَ،
لا يُشعِلُ البرقَ غيرُكَ،

هذا الحِصارْ

بقايا الزمانِ الذي ماتَ

والسرُّ سِرُّكَ –

لا يكسِرُ الأسْرَ غيرُكَ،

يا الخارجَ مِن تاريخِ الصَدَإِ المَركومِ

إلى تاريخِ البشَرِ...

لَهَبُ الآتي يرشحُ من كفَّيْكَ:

تُقَوَّضُ مَهزَلَةُ القدَرِ،

ويُقَوَّضُ تاريخُ البَشَرِ...

يا الخارجَ من تاريخِ الزَهْرِ

ومن أنفاسِ الزَهْرِ

ومن لونِ الزَهَرِ

سَمِّ الأشياءَ

وعَلِّمْنا الأسماءَ

وكنْ ما ليسَ يكونُ:

كنْ رعشَةَ هذا الكونَ المَيْتِ،

كُنِ الصاريَ،

كنْ ما ليسَ يكونُ:

بَرْقًا يحمِلُهُ في حُلُمِ الأرضِ جُنونُ،

وكنِ الكونَ الأزَلِيَّ،

كُنِ الإعصارَ يُزَوْبِعُ أفلاكَ الأربابِ

ويخلِقُ أربابًا أخرى

طَرَّزَها فجرٌ مَكنونُ...

– ٩ –

يمشي...

قدماهُ تنبتُ في الرملِ شموسًا

وبحيراتٍ

وربيعًا أخضرَ /

يمشي...

جسدًا يغرسُ في الرملِ زهورًا وأقاحي

وصباحًا بكرًا

لم تلْثِمْهُ شمسُ صَباحِ...

يمشي...
قدماهُ فوقَ الأرضِ
صَفيرُ رياحٍ...

(١٩٩٠)

المجموعة السادسة:

كتاب السندباد

عندما هاجر السندباد وعاد

"السندبادُ كالإعصار إن يهدأ يمت.

(صلاح عبد الصبور)

- ١ -

طَوَتْكَ المسافاتُ وانبلَجَتْ في يديكَ النجومُ،

وكنتَ رَحيلاً

إلى مُدُنِ الخوفِ والعشْقِ

في آخرِ الأمسياتِ...

تَحَلّقَ حولَكَ نَبْضُ الزمانِ الأخيرِ،

وأدمَنَكَ البحرُ وَجهًا عَتيقًا.

خلتْ من ضميرِكَ أرضُ القرى،

وانحنَتْ خلفَكَ "الحربُ" تمضغُ صمتَ النجومِ.

تركتَ السماءَ قناعًا،

تركتَ الفضاءَ نحاسًا

يحاصرُ نَزْفَ الليالي...

- ٢ -

من زمانٍ رمادْ

لم تُلَوّحْ سَفينَهْ

- منذُ أن تركَ السندبادُ البلادْ -

كانتِ "الحربُ" تهدرُ في الناسِ

خافَ وراحَ ولمّا يعُدْ...

واضمَحَلّتْ ظلالُ المدينَهْ،

وبكى النخلُ والموجُ،

والسندبادُ تحنَّطَتِ الدربُ في يدِهِ.

هربَ النَسرُ،

والصبرُ هاجرَ في القلبِ،

والصدى لاهِثٌ، والعبارَهْ

غرقت في المسافاتِ

واختنقَتْ في شِفاهِ الحِجارَهْ...

كنتَ في آخرِ الدربِ صمتًا

يفتّش عن وجهِهِ،

والسَرابُ يُحاصِرُ كلَّ العيونْ.

طوتْكَ المسافاتُ

وانتحَرَتْ في خطاكَ الليالي؛

رمتكَ المتاهاتُ عبرَ الصدى.

كلُّ شيءٍ تجلّى لِعينيكَ –

صار المعادُ يَنابيعَ ذُعرٍ

وكفّاكَ وَهجًا من الشوكِ والرملِ

حولَ الدُنُوِّ الجديدْ...

– ٣ –

كان في وهجِ عينيكَ شوقٌ غريبٌ

يُنازعُكَ الظلَّ.

حاولتَ... حاولتَ...

لكنَّ وجهَكَ عادَ،

وأتْلَفَكَ البحرُ والموجُ –

عُدتَ إلى الأرضِ وجهًا عتيقًا،

سَباكَ التشرُّدُ،

هاجرَ فيكَ اشتياقُكَ،

عدتَ إلى البيتِ

تَلتمُّ شيخًا بصمتِ المدى.

كلُّ شيءٍ تجلّى لِعينيكَ –

حاولتَ أن تختفي،

أن تعودَ إلى البحرِ،

لكنّما كنتَ في آخرِ البحرِ

و"الحربُ" حولكَ أفْقٌ.

رمتْكَ المتاهاتُ خلفَ المتاهاتِ،

ضيّعتَ عمرَكَ،

حين تجلّى لعينيكَ هذا السكونُ الأخيرْ..

– ٤ –

أُفرِغَ الليلُ من أوجُهِ الناسِ،

أعْتَمتَ،

نازَعْتَ ظِلَّكَ فيْءَ الطريقِ،

ترَهَّلْتَ،

هاجَرْتَ والليلَ في الرُؤيا.

وإذا "الحربُ" تُلقي الجماجمَ فوقَ الورى.

يبزُغُ الصمتُ،

تنأى المدينةُ،

تبقى...

تغرقُ الدربُ في البحرِ،

ينطفئُ الناسكُ المَيْتُ،

تَبقى...

يرحلُ الصمتُ،

تنأى النسورُ العتيقةُ،

تبقى...

ترحلُ "الحربُ"،

تنأى مع الكلِّ،

تبقى

وحيدًا، وحيدًا مع الكهفِ تسكُنُهُ،

والعويلْ

يتصاعدُ منكَ ويُصلَبُ فوقَ جباهِ الأصيلْ.

ضجَّ فيكَ اللهاثُ،

وضجّت عواصفُ غضْبَتِنا البكرِ،

كوّنتَ "حربًا" ودربًا حزينَهْ

وانطفأتَ / حُمِلْتَ مع "الحربِ" عبرَ الخضمِّ

وعيناكَ جوعٌ مُدَمَّى

على عويلِ السفينَهْ...

(١٩٧٤)

عودة السندباد

- ١ -

تدخل الدربَ في ظلِّ مركبةٍ للمتاهاتِ،
لكنّما تنزفُ الدربُ بينَ يديكَ.
تَهاوَيْتَ مُنتحِرًا خلفَ بَهْوِ السديمْ
وأتلَفَكَ الشِعرُ والحبُّ...
عبّأتَ رملاً
وضاجَعتَ شَوكَ الترابِ -
تراخَيتَ في مُدُنٍ أعمِيَتْ،
واصطدمْتَ بمدٍّ من الليلِ،
مدٍّ من الزحفِ والشوكِ،
مدٍّ من الموجِ قاسٍ...
تعودُ رُخامًا،
ووجهًا يُراوحُ خلفَ الحطامِ القديمْ...

- ٢ -

تدخل الآنَ مُفْتَرَقَ الصبرِ،
أو جِلدَ صخرٍ تدحرج منذ عصور عِجافٍ...
تدخل الآنَ ظلَّ المتاهاتِ
والبَرْدُ يثقبُ جوعًا طويلاً...
وتهوي
إلى حيث ينبسطُ البحرُ في قرمزٍ لاهِبٍ
شوكةً
أو نُحاسًا قديمًا.
ويُضنيكَ، يؤلِمُكَ البحرُ، يا سِندِبادُ،
يحوِّلُكَ الصبرُ نُصْبًا قديدًا...
رُبَّما تُشرِقُ الشمسُ ثانيةً عنكَ
أويَستديرُ الترابُ كنَهْدٍ بعيدٍ
على قصْعَةٍ من حطامِ السديمْ
وينهضُ في وجهكَ الموجُ
بُرْجًا من اللَيْلَكِ المستحيلِ؛
ولكنّكَ الآنَ تهوي

إلى حيث يُرديكَ شِعرٌ مريضٌ،
وتبقى رُخامًا
ووجهًا يُراوحُ خلفَ الحطامِ القديمْ...

- ٣ -

بعيدًا...
كما يحلمُ النورُ بالنور،
تلقى الترابَ نُحاسًا،
وتلقى البحارَ نُحاسًا،
بعيدًا...
كما تُلْهِبُ الأرضُ وجهَكَ بالدمعِ،
تهوي،
كما الأرضُ في يأسها المستفيقْ؛
وتأوي إلى آخر البحرِ
ظلاً تَعوبًا يُراوحُ عندَ انغلاق الطريقْ...!

- ٤ -

ترجع الآنَ في ظلِّ مركبةٍ للمتاهاتِ
والأرضُ تنزفُ بينَ يديكَ -
تمدُّ يدًا من ترابٍ وشوكٍ،
تمدّ حطامَ السفينِ
إلى آخرِ الأفْقِ،
تحضنُ أمَّكَ وهْيَ تموتُ
وتنزفُ بينَ يديها النحاسْ...
تدخلُ الصمتَ في الهاجسِ المرِّ،
تنزفُ رملاً وغيمًا يَباسْ،
وتهوي وحيدًا
إلى حيث يُرْديكَ شِعرٌ مريضٌ؛
وينهضُ حولَكَ مَدٌّ من الليلِ،
مدٌّ من الزحفِ والشوكِ،
مدٌّ من الشوكِ قاسٍ...
تعودُ
كما يُشعِلُ الليلُ أشباحَهُ

في ثيابِ الأديمْ،

تعودُ كما تُضرِمُ الأرضُ عيدًا حزينًا،

تعودُ رخامًا،

ووجهًا يُراوحُ خلفَ الحطامِ القديمْ...

(١٩٨٠)

السندبادُ الأخير

- ١ -

أقفلَتْ وجهَها الدربُ

وانثقبَ الصمتُ -

مَن يُغلِقُ الوقتَ؟

ثمَّ ابتعادُ...

أيُبقيكَ هذا التمدُّدُ منحجِبًا؟

أقفلَتْ وجهَها الدربُ -

كنتَ السؤالْ

غريبًا وفي يدكَ البحرُ تُسكِنُهُ حِسَّكَ المَيْتَ.

أينَ الهبوبُ؟

تُراكَ مررْتَ على آخر الدربِ فانشَطَرَتْ

ثمَّ نمْتَ، تُراكَ...؟

وبيروتُ أحجيةٌ ثقبَتْ صمتَها فانثقبْتَ...

هنا آخرُ اللونِ.

ثمَّ ابتعادُ...

أيُبقيكَ هذا التمدُّدُ منحجبًا؟

– ٢ –

وردةُ الحلْمِ تحلمُ في هاجسٍ من رمادٍ.

جثثٌ تعبرُ اللونَ – ثَمَّ اصفرارٌ

ولونٌ غريبٌ...

كطعمِ الرمادِ...

بقيّتُكَ الآنَ تثقبُ صوتَ الغيابْ.

مَن هنا؟ وجهُكَ؟ أخفِهِ عنّا... سَرابْ؟

جَرَسُ الليلِ يُحرقُ ما واكبَتهُ انتظاراتُهُ.

مَن هنا؟ حولَكَ السرُّ...

مَنْ؟...

لِيَكُنْ، فَهْوَ لن يُفلِتَ الحلْمَ من رُقَعِ الأمسياتْ.

لِيَكُنْ...

جَرَسُ الليلِ يُحرقُ ما قدّستْهُ الرُفاتْ.

– ٣ –

أقفلَتْ وجهَها الدربُ

وانثقبَ الصمتُ –

ثُمَّ جِدارٌ وما تقذفُ الأرضُ. ثَمَّ انسدالٌ. على الأرضِ بعضُ غبارٍ وأغشيةٌ لا تُعَدُّ. أيحملُكَ البحرُ ثانيةً أم تظلُّ على الوقتِ مُلقًى؟ وكفّاكَ تنفتحانِ على اللونِ (يعبُرَكَ اللون عبرَ التحوُّلِ)

ثُمَّ تَلوحانِ بينَ الهَواجسِ –

منْ يقرعُ الذاكرَهْ؟

ربّما أدمَنَ الوقتُ أرضَكَ، أو

أدمَنَتْ أرضُكَ الوقتَ...

من يقرعُ الذاكرَهْ؟

ربما أخذتْكَ الطيورُ المُهاجرَهْ.

ربّما افترَعَ الوقتُ جَفنيكَ –

لكنّكَ الآنَ أنتَ

فمن يقرعُ الذاكرَهْ؟

- ٤ -

مِن هنا تكسِرُ المعدِنَ المُرَّ /

حولَ يديكَ النَوارسُ
والبحرُ يقرأ وجهَكَ.
حولَ يديكَ البقايا
وأنشودةُ الصمتِ.
مَنْ؟
تدخلُ الآنَ خارطةَ الوطنِ المستحيلْ.
يداكَ تُديرانِ أشرعةَ البرقِ،
تنجذرانِ بأرضِكَ.
مَن يحملُ العشبَ؟ هذا الفضاءُ رمادُ
... وتُغلِقُ حُبَّكَ،
تُغرقُكَ الأرضُ عبرَ التواريخِ:
مُفتَرَقٌ أنتَ
والأقحوانُ الأخيرُ يُحَطِّمُهُ عشقُهُ.
دمٌ وتواريخُ تفتضُّ من جثةِ الوعدِ تاريخَها

فلِمَن ترحلُ الآنَ، يا سندبادُ؟
وحيدًا تراوحُ في النصّ،
تبحث عمّا يُسَمّى...
وما يرسمُ الوقتُ مُسْتَودَعٌ للرمادْ.
هنا زمنُ النومِ
والأرضُ تسحبُ أقدامَها
ثمَّ...
مَن يُشعِلُ الوقتَ،
من يحملُ العشبَ،
من يقرعُ الذاكرَهْ؟
هكذا يفتحُ النصُّ أشجانَهُ لي
وينحدرُ الزمنُ المستحيلُ
إلى آخر الإنفصامِ (لِمنْ ينحني
ولمن تخلعُ الشمسُ أثوابَها بعدُ؟ وجهٌ
أمَ أنَّ الدموعَ انتحَلْنَ دَياجيرَهُ
ثمَّ ذُبْنَ...؟
أراوحتَ بينَ دمٍ قذرٍ

ودمٍ قذر...؟)

مُفتَرَقٌ أنتَ

ومفترَقٌ هذا التاريخُ

وكلُّ رمادٍ مفتَرَقٌ...

عيناكَ لِباسُ العشبِ

وعيناكَ سديمُ الأرضِ المحروقةِ –

مُفْتَرَقٌ أنتَ

فما وجهُكَ حينَ تذوبُ الدهشةُ؟

ما عيناكَ؟

مراوحَةٌ؟

خارطةٌ للنَزْعِ الكونيِّ

وللجُرحِ الكونيِّ؟ –

تمرُّ من الجرحِ

إلى ما يجعلُ هذا اللونَ كطعمِ رمادٍ صعبًا –

مُفتَرَقٌ أنتَ

ومفترَقٌ هذا الكونُ

وكلُّ رمادٍ مفتَرَقٌ...

ما أصعبَ هذا النصَّ!

تُراني أسكنُ وجهَكَ

أم أسكنُ غيبَتَهُ؟

أم أسكنُ ما يكسرهُ السهمُ إلى قسمين:

فضاءٌ

وفضاءٌ...؟

مفترَقٌ أنتَ وموعدُكَ النارُ

وهذا الحبُّ المقفَلُ،

مفترَقٌ هذا التاريخُ وكلُّ رمادٍ مفترَقٌ...

يتكسّرُ هذا اللونُ وتبقى.

تتناثر هذي "الحربُ" وتبقى.

تتعطّل كلُّ دروبِ النصّ وتبقى

خارطةً، مفترَقًا

بحثًا عمّا يحملُ إسمًا

في خارطةِ الكونِ الآتي...

(١٩٨٣)

حطّام السندباد

أضَبابٌ...

أم طرُقاتٌ تخطفها عيناكَ على مذبحةِ الموجِ؟

ضَبابٌ

أم طُرُقاتٌ تغرقُ في لجّةِ عينيكَ

وأنتَ حطامٌ

ينثرُهُ الوقتُ على بابِ المَنفى؟

مَن يقرعُ قلبَكَ؟ –

مدَّدْتَ يديكَ،

طوَيتَ شُرودَكَ،

واستلْقَتْ رؤْياكَ –

أنغَلِقي، يَتُها الرؤيا، انغلِقي، انغلِقي...

ماذا يحملُ هذا الإسمُ المسكونُ بوحلِ الطُرُقاتِ؟

وماذا يبقى

حينَ تُكَوِّمُ تاريخَكَ في قنبلةٍ؟

آآآهِ!

أنغَلِقي، يَتُها الرؤيا، انغلِقي، انغلِقي...!

(١٩٨٣)

موت السندباد

يفتح الوقتُ وجهَكَ

أوْ

يُغلِقُ الوقتُ وجهَكَ،

ما همَّ؟

تحتَ السَراب سرابٌ

وبين التجاعيدِ مِطْحَنَةُ الوقتِ. كيفَ اهتدَيتَ إلى النصِّ والوقتُ يُغلقُ رؤْيتَهُ، ولِمن تكتبُ النصَّ؟ كنتَ ترى الشمسَ تركعُ في ورقِ التوتِ والأرضَ تُجمَعُ في نُطفةٍ،

والفضاءَ يعلّقُ أنجمَه في يديكَ ويرحلُ، يثقبُ مَسرحَهُ ويفيضُ سكونًا – لِمن تكتبُ النصَّ (مِنفضَةٌ أم شعوبٌ تجوعُ إلى رحلة في الرمادِ؟) وكُنهُكَ محترقٌ – إنّها وقفةُ اللازَوَرْدِ العقيقيِّ فاشربْ رَحيلَكَ ولْتَفْتَحِ الشرقَ حتى يقودَ الشروقَ إلى موتِهِ / كُنهُكَ الآنَ نارٌ

وتحتَ السرابِ سَرابٌ،

فكيف اهتديتَ إلى النصِّ،

كيف اهتديْتَ...؟

كيف تُفلِتُ من وجهِكَ الآنَ؟ / مُتَّهَمٌ بالرحيلِ

ومُتَّهَمٌ بالبقاءِ ومتّهَمٌ بالمُراوَحَةِ – ألوقتُ أفلسَ والأرضُ لَمّت وُريقاتِها وتعرَّتْ... تعَرَّ، تعرَّ إذًا، واقطفِ الكرزَ المتوحّشَ من جبهةِ الشمسِ / مُتَّهَمٌ بالرحيلِ

ومتّهَمٌ بالبقاءِ

فهلْ ينبتُ الوقتُ في وجهِكَ الآنَ؟

تحتَ الرمادِ وبينَ حراشِفِهِ طُرُقٌ... مركبٌ أنتَ والشمسُ تكسِرُ أنهارَها دونَ سقفِكَ – تحتَ الرمادِ وبينَ حراشِفِهِ طُرُقٌ / كيف تحني الرئاتُ اللُهاثَ ولا تَعَبٌ غيرَ أبخرةِ الزاحفينَ؟ –

أتُفلِتُ من نصِّكَ الآنَ؟ رُؤْياكَ غامضةٌ

والصقيعُ يمدُّ عناكبَهُ،

والرمادْ

طُرُقٌ...

عندما انحجَرَ الصوتُ في البرقِ لم تُعشِبِ الأرضُ

(هل أمطرَتْ؟) عندما انتصبَ البحرُ فوق الشواطئِ مَجَّ الحديدَ ولم

تُعشِبِ الأرضُ (هل أمطرَتْ؟) عندما قُمتَ من نومِكَ المرِّ لم تُعشِبِ

الأرضُ. حتى الرمادْ

مطَّ أذرُعَهُ وتثاءَبَ،

حتى الرمادْ

نزَّ منه اللهاثُ ولم تُعشِبِ الأرضُ (هل أمطرَتْ؟)

إنَّكَ الآنَ تخرج من وجهِكَ المستحيلِ وتحترفُ الطَيْشَ، يحملكَ الموجُ

نحوَ احتراقِكَ: هذا اللهيبُ ثقيلٌ، وهذا الدمارُ الذي قد يُقسِّمُ

وجهَكَ، يا سندبادُ، مُراوَحَةٌ... آهِ! لا تستطيعُ المغادرة الآنَ –

مُتَّهَمٌ...

حولكَ الجذْرُ يَنْحَسِرُ النورُ عنهُ

وحول مداكَ التنانينُ،

مُتَّهَمٌ،

آهِ، مُتَّهَمٌ...

حولكَ القفْرُ واللهَبُ المستحيلُ،

فهل يُسحَبُ النصُّ منكَ؟ / وحيدٌ، وحيدٌ أمامَ

المَاءِ، وكفّاكَ أرصفةٌ من خرابٍ... تَهمُّ –

وُلوجُكَ صعبٌ والتاريخُ بقايا.

حطَبٌ في عينيكَ

وحولَ مَداكَ لهيبٌ...

حَطَبٌ...

حَطَبٌ في خَطَواتِكَ والتاريخُ بقايا – مُتَّهَمٌ أنتَ

ونصُّكَ أصعبُ من أحلامِكَ. آهِ، وُلوجُكَ صعبٌ... تدخلُ /

تَهوي /

ينقفلُ التاريخُ عليكَ – لماذا لا تُمطِرُ عيناكَ

فيمتدُّ إلى الجذرِ رَذاذُكَ؟

تَهوي /

أعمَقُ ما في هَولِكَ هَولُكَ!

تَهوي /

أنتَ شريدٌ، تركعُ في شمسِ الشرقِ وتكسرُ

عينيكَ ولا تحلمُ، تهوي (هل تُمطِرُ كفّاكَ؟) / لماذا تَستَجْدي الشرقَ

وترحل في الجرحِ بعيدًا؟

تَهوي /

أعمقُ ما في هَولكَ هَولُكَ!

تَهوي /

لا تُجديكَ ذبائحُكَ الآنَ ولا أحطابُكَ /

تَهوي –

آهِ، الهُوَّةُ

آهِ، الهوَّةُ

آهِ! الهوّةْ...

(١٩٨٤)

سندباد الرحلة المستحيلة

– ١ –

أوغَلَتْ بين عينيهِ دربٌ

ولَمَّ الصدى جَفْنَهُ المُتَحطِّمَ –

كانَ الخِضَمُّ يقودُ الخِضَمَّ إلى التَّيْهِ،

والصبرُ يَذوي على موجةٍ

هاجَرَتْ لونَها.

كانتِ الأرضُ أضيقَ مِن إبرةٍ،

والبراري

وجوهًا من الصمتِ

حولَ اتِّهامٍ طويلٍ...

أوغَلَ الطَعنُ في الطعْنِ

وانعقَدَ الرُعْبُ بينَ الرذاذِ:

هنا هَوَّمَ الشبحُ المشرَئبُّ

وعادَ إلى البحرِ،

عادت إلى البحر كلُّ الخطى...

مُتعَبًا كنتَ ترمي الحقائبَ،

توغِلُ في الصمتِ:

غيمٌ، ثلوجٌ من الفكرِ،

بعضُ وحامٍ عَقيمٍ،

سكونٌ...

ويذوي على وجهكَ الآسُ والزَعفرانُ،

تمرُّ الليالي عليكَ

وينطفئُ البحرُ في مُقلتَيكَ،

يُراوحُ بينَ ضلوعِكَ وجهُ الدروبِ...

ولا يوقِظُ الدربَ إلا رحيلٌ إلى الأقنعَهْ!

حينَ كانَ الخِضَمُّ يقودُ الخِضَمَّ إلى التَيهِ

كنتَ غيابًا،

وحولَ الليالي

عيونُ الليالي،

وحول العيونِ

ليالٍ... ليالي...

لماذا إذًا هاجر البحرُ ألوانَهُ

واستَعانتْ بكَ الريحُ كي تجلُدَ البحرَ، يا سندبادُ

أغادَرْتَ؟

أمْ أنَّ آلِهَةَ البحرِ أمْسَكْنَ مركَبَكَ الطُحْلَبيَّ...؟

أغادرْتَ؟

كانت ثقوب الصدى تُخرِجُ الكونَ من هَولِها

وينتحرُ العشقُ في مقلتيكَ،

يدورُ بكَ البحرُ،

يحترقُ الموجُ فوقَ الشواطئِ –

كيف السبيلُ إليكَ

وأنتَ الرحيلُ إلى حُلُمِ النصِّ،

يا سندبادْ؟

– ٢ –

أوغَلَتْ بين عينيهِ دربٌ

ولَمَّ الصدى جَفنَهُ المُتَحَطِّمَ –

كنتَ تقرأ

حينَ تقطّرَتِ الشمسُ في قلبكَ الغَسَقيِّ.

تَلَوَّنتَ بالأرجوانِ الذي نزَفَ الدربَ والوقتَ –

كيفَ احترقتَ

وأنتَ تقطّرَتِ الشمسُ في قلبكَ الغَسَقِيِّ؟

(هنا تفتحُ الدربُ ألوانَها لي.

أمرُّ على مَطرَحِ الليلِ،

أتركُهُ في يديَّ –

ويكسِرُني الليلُ،

يكسرُني الهَدَفُ المستحيلُ /

أمرُّ على خاطِرِ العشقِ

(هل كانَ عشْقًا؟)

ويطردُني الوطنُ المستحيلُ

و...

ها تفتحُ الدربُ أشجانَها لي...)

تَرامَيتَ، يا سِندبادُ،

رحَلْتَ إلى النصِّ والنصُّ محتَرِقٌ،

رحَلتَ إلى الوطنِ المنحني

وهْوَ يُغلِقُ عينيهِ فوق البحار،

رحلتَ إلى آخرِ الرحلةِ المستحيلةِ

حتّى ترامَيتَ

مثلَ البذار الذي اختنقَتْ أرضُهُ

في انفجار الترابِ –

ترامَيتَ في المدِّ،

في قلبكَ الغَسَقِيِّ،

ترامَيتَ حتّى انعَقَدْتَ مع الرعدِ

بينَ الرذاذِ،

وأسْدَلتَ عينيكَ فوق الرمادِ،

ترامَيتَ في المدِّ،

في قلبكَ الغَسَقِيِّ،

وفجّرَكَ العُشْقُ،

فجّرَكَ الوجْدُ، يا سندبادُ،

تقطَّرتِ الشمسُ في قلبكَ الأرجُوانيِّ /
كنتَ الطريقَ المحالَ إلى الوطنِ المستحيلِ
تُوَزِّعُ قلبَكَ أرصفةً للجياعِ،
وينتحرُ العشقُ في مُقلتيكَ –
تمرُّ على النصِّ،
تغرقُ في النصِّ تحتَ انهمار الضَياعْ...

(١٩٨٥)

رؤيا السندباد

– ١ –

كلما أوغلَت في مَتاهاتِكَ الدربُ
أتْلَفَكَ العشقُ،
وانقفل البحرُ حولَ مَداركَ.

(هلْ تُفرِغُ الوقتَ من ذاتِهِ
أو تُراكَ تَسيلُ مع الوقتِ، يا سندبادُ،
ويُقفِلُكَ العشقُ...؟
هل أمطرَتْ بينَ عينيكَ والدمعِ،
أوْ
تُراها ترامت على حلمِكَ الشمسُ واحترَقتْ...؟)
كنتَ تخرج من هاجسِ الزهرِ نحوَ الرحيلِ،
ولكنّما البحرُ يُلقي بأشلاءِ عظْمِكَ في مُتْحَفِ الليلِ.
تغدو غريبًا،
يداكَ رمادٌ، وعيناكَ كهفانِ...

آآآآه...! (أمُتَّ ؟

أمَ أنَّكَ تُبعَثُ حيًّا إلى جنّةِ الموتِ، يا سندبادُ...؟)

هنا الزمنُ المتحجِّرُ يُلقى على صدركَ البضَّ،

تخرجُ حيًّا،

تموتُ،

وتخرجُ حيًّا،

ولكنّما كنتَ دومًا تموتُ...

وتمشي على ما ترسَّبَ منكَ جنازتُكَ المستحيلةُ!

آهٍ! لماذا تُرى، تستديرُ السطورُ، وينقفلُ النصُّ

حوليَ حينَ أراكَ؟ يصيرُ الفضاءُ مدادًا فَراغًا يُطَرِّزُهُ الوجعُ المتلألِئُ،

والبحرُ ريحًا تهبُّ، مُلَوَّنَةً بازرقاقِ الفجيعةِ.

كنتَ تنامُ على نصّكَ المستحيلْ

والصدى يتساقطُ فوقَ الصدى،

والضَياعُ يُعانقُ وجهَ الرحيلِ الطويلْ...

- ٢ -

كيف طارَدَكَ البحرُ حين رأيتَ انتهاءَكَ منهُ

فَعُدْتَ إليهِ

كما تُشرقُ الشمسُ بعدَ الدُجى

نقطةً من دمٍ في جبينِ الفضاءْ!

وحمَلْتَ السفينَ إلى حيث لا ينضجُ الخبزُ،

حيث السماءْ

ترتدي وجهَها

وتُضَيِّعُ ما عَرَفَت من ملامِحَ...

غادرْتَ،

واللهُ شاخَ على الرحلة المستحيلهْ.

حمَلْتَ السفينَ، وطارَحَكَ النصُّ آلامَهُ -

رأيتَ النجومَ تحطُّ على ورقِ التوتِ أرصفةً

يثقبُها الإنشطارُ - رأيتَ السفينَ

دخانًا يطير بمن فيهِ نحوَ الرمادْ،

وكنتَ المجاذيفَ،

كنتَ الرحيلَ الذي يمخضُ الأرضَ موتًا...

لماذا، إذًا، تلبسُ النصَّ، يا سندبادُ،
تَحوكُ بهِ حلْمَكَ المستحيلَ،
وتكسرهُ مثلَما يكسِرُ الغاضِبُ اللهَ،
تكسرُهُ، ثمَّ تركعُ فيهِ،
وتبكي عليهِ،
وتكسِرُهُ...
ثمَّ تركعُ فيهِ...؟

وحيدًا،
وحيدًا كما تُفرَغُ الأرضُ من ذاتِها
تحملُ العصرَ بعضَ شظايا
وشمسًا مُخَبّأة،
وجماجمَ...
تحمل هذا السفينَ الذي قدّدَتهُ الجِراحُ،
وترحلُ... ترحلُ... توغِلُ في البحرِ، يا سندبادُ،
يحاصرُكَ الشوقُ... والشوكُ...
توغِلُ في البحرِ –

يحملُكَ الحُلْمُ نحوَ انتهاءِ السديمْ،
وتبقى برحلتِكَ المستحيلةِ
وجهًا يُراوحُ خلفَ الحطامِ القديمْ...

(١٩٨٥)

السندباد والتاريخ

رمتِ البقايا في البقايا ما يخلّفه فراغُ البحرِ / كانتْ أعينُ الريحِ احتراقًا، كانتِ الأرضُ اسودادًا في جبالِ الموجِ (هل هاجرتَ في عرشِ الطوائفِ أو تُراكَ تركتَ في التاريخِ جرحًا ليسَ يندمِلُ؟)

كانت طباعُ الرملِ تلتَمِسُ الحصارَ – تُلامِسُ التاريخَ، تَصْدَعُهُ؛ وفي قاعِ الملوحةِ يَكْسِرُ القِرشُ الملامِحَ... إنّهُ زمنُ الملوحةِ. إنّها أرضي، وفي أرضي قرارٌ قصَّفَتْهُ لعبةُ الموتى... (تُراكَ رميتَ أشرعةَ المراكبِ في البحار ورحتَ تنفصلُ

وتفصلُ باحتراقِكَ كلَّ ما رفَعَتْ ذراعُ البرقِ؟) تحت الرَدْمِ تاريخٌ وذاكرةٌ تَضَلُّ طريقَها. كانت عيونُ البرقِ محبرةً تُطرِّزُ في الفضاء ِحريقَ أنجُمِهِ – يُطَرِّزُكَ الحريقُ، يُطَرِّزُ الوقتَ المحجَّرَ في مَزابلِ كلِّ طائفةٍ، وتحتَ الردمِ تاريخٌ وذاكرةٌ...

لِمَن تبكي...؟ أتحتَرِفُ الضَياعَ أمَ أنَّ وجهَكَ كان محرَقَةً لشعبٍ أرَّخَت أطباعُهُ زمنَ الحصار؟ لِمَن، تُراكَ، تَزِفُّ

صمتَ المستحيلِ، تمرُّ مثلَ النيزَكِ المَحمومِ، تُجْفِلُ وحشَهُ، تمضي وتحترفُ الضَياعْ؟

كانت على عينيكَ أرصفةٌ تطولُ

كما يُطيلُ العقمُ صحراءَ القناعْ،

كانت بعينيكَ البقايا تصدَعُ التاريخَ. هل نَهَضَتْ رمالُ الشرقِ تحترفُ الهبوبَ أوَ أنَّ عاصفةَ الترابِ كَبَتْ، فما نهَضَتْ رياحٌ بعدُ؟

وجهُكَ يفتحُ الآتي، ووجهُ الأرضِ مُنقفِلٌ على قبرِ الطوائفِ. وجهُكَ البحرُ المُشَرَّعُ للضبابْ...

رمتِ البقايا للبقايا ما يخلّفُهُ فراغُ البحرِ / كانت قُبَّةُ الحلُمِ المصفّحِ نيزكًا، كان السَرابْ

كَفَنًا يُلَفِّعُ لعنةَ التاريخِ، يُعمي ما تراخى الموتُ عنه / كيف تسكُنُني وأنتَ قرارتي؟ كيف السبيلُ إلى دخولِ عمادةِ الترحالِ؟ / وَصْمَتُكَ البَغيضَةُ أنّكَ الآتي، ولكنّ السماءَ تكوّمت في

مُهجةِ البركانِ وانفجَرَتْ، أمُتَّهَمٌ أم أنَّ النصَّ مُتَّهَمٌ بإبقـاءِ المدى في الدائرَهْ؟

طَمَرَتْكَ أنقاضُ الطوائفِ،
والملوكُ تبيعُ لَحمَكَ
من بقايا الذاكرَهْ.

(١٩٨٦)

المجموعة السابعة:

كتاب الزمن المكسور

الزمن المكسور

أرض

(تكوين)

في حبّة صَبْرِكَ

تستقبلُ صمتَكَ،

تُقفِلُ عينيكَ

وتَنقفِلُ...

في ضجّةِ هذا الصمتِ المزمِنِ

يرمي "الغامضُ" لونًا

عبرَ عصور

تمحوكَ وتحتفِلُ...

(حديث)

– هل تتصَوَّرُ أنَّكَ طيفٌ؟

– أبدًا... لم أولَدْ في شكلٍ...

- هل تتصَوَّرُ أنَكَ ريحٌ؟

- أبدًا لا صوتَ لديّ

- ما أنتَ إذًا؟

- لا أعرفُ،

آهِ، الصمتَ، الصمتْ!

(عودة إلى التكوين)

في الطين تحاول أن تُصبحَ طينًا - تخرج من أرض الشوكِ وبين مَداكَ وذاتِكَ بُعدٌ يستغرقُ في البُعدِ. تحاولُ أن تصبحَ شكلاً (صعبٌ أن يدخلَ مخلوقٌ في شكلٍ!) لكنّكَ تخرج مَغلولاً بفضاء فراغٍ: إسمًا مجهولاً أو جمجمةً أو...

وطنًا!

- يُضحِكُني أن يصبحَ شيءٌ ما وطنًا - تتكوَّمُ، تُسدَلُ فوقَ فراغي، يُسدِلُكَ الصمتُ المزمنُ:

- مقتَنِعٌ؟

- أبدًا. لكنّي قد أصبحُ شكلاً!

في حبّة صَبرِكَ

تركع داخلَ جمجمةٍ،

تتجمّعُ في كفّيكَ

وتنقفلُ...

في مَنفى ذاتِكَ

تحملُ عُريَكَ

تُقفِلُ عينيكَ

وتَبتَهِلُ...

(٨ - ٣ - ١٩٨٤)

الأرض

- ١ -

شاختِ الدنيا
وشاختْ سُمرةُ الصحراءِ
في عرْقٍ أصيلْ،
غيرَ نَبْضٍ
في جنوبِ الأرضِ
شَقَّ المستحيلْ...

نَزَلَ اللهُ إلينا
حاملاً مِسحةَ زيتٍ
وترابًا من جنوبِ الأرضِ زَيتونًا -
أكَلْنا: لم يكن للطَعْمِ طَعمٌ.
ربّما ينقفلُ القلبُ على المِفتاحِ
أو ينقفلُ القلبُ على الأرضِ،
وقد يَثقلُ في الجيبِ صَريرُ البابِ / هلْ

ينزلُ اللهُ إلينا
حاملا بعضَ ترابٍ
من جنوبِ الأرضِ؟
لكنَّ المدى
وحشٌ،
ووجهَ الأرضِ وحشٌ،
والحدودْ.
جِيَفٌ تَلمودُها الصخرُ
وريحٌ من ثَمودْ...

- ٢ -

ربّما يقتحمُ الوقتَ
وفي عينيهِ جمري وبريقي.
ربّما ينزفُ من أحلامِهِ
قبلةَ الأرضِ ووعدَ الفجرِ،
أو يفتح في الدربِ طريقي.
ربّما يفتحُهُ البرقُ على فجرٍ

لهُ رائحةُ البرقِ
وضَوْعُ المَطْرَةِ الأولى:
سِلالٌ من بريقِ الشمسِ،
ريشُ الوثبةِ الكبرى،
جناحٌ / ما الذي يثقبُ جسمَ الوقتِ
أو مُفترَقَ الكشفِ
على تاريخِنا المَنفِيِّ؟
من يَقوى على كَسرِ جليدِ القبرِ
أو يجرفُ تاريخَ الركامْ؟
باسمِهِ يشتعِلُ التاريخُ،
يصطادُ الظلامْ،
باسمهِ يخرجُ وعدُ الفجرِ
من ليلِ الحطامْ...

شاختِ الدنيا
وشاختْ سُمرَةُ الصحراءِ
في عرْقٍ أصيلْ،

غيرَ نَبضٍ
في عُروقِ الأرضِ
شَقَّ المستحيلْ...

- ٣ -

يلثمُ الوقتُ جبينَ الأرضِ،
يأوي في تَعاليهِ إليها،
ويَهبُّ...
يَضَعُ الخدَّ على الخدِّ،
ويُغري حبُّهُ الأرضَ،
ويُغريها المُحِبُّ...
يلثمُ اللهُ جبينَ الأرضِ،
يأوي في تَعاليهِ إليها،
ويَصبُّ الطُهْرَ ما بينَ يديها،
ويُداري رفّةَ العينِ على حزنِ الجنوبْ...
ما الذي يثقبُ وجهَ الوقتِ:
تاريخٌ من الموتى،

وتاريخُ غُروبْ...

وقعَ الغيمُ إلينا / كانَ جيلاً

يابسًا يَهوى الصحارى،

كانَ حُلْمًا باردًا،

ورمادًا...

وَقَعَ الغيمُ - وقَعْنا /

غيرَ أنَّ الوَمْضَ يجتاحُ الجليدْ

ويَشقُّ الرملَ خَفْقٌ نابضٌ

يَزْعَقُ في الليلِ المديدْ...

ما الذي يثقبُ وجهَ الوقتِ؟

ريشُ الوثبةِ الكبرى،

صَهيلُ البرقِ والرعْدِ،

وأعيادُ الحريقِ:

فتحَ الصقْرُ طريقي...

يلثمُ الوقتُ جبينَ الأرضِ

والصحراءُ عيدٌ بائرٌ -

يزرعُ الصقْرُ بأعماقِ الثرى

وجهي ونَبْضي،

يخلعُ الدهْرَ ويرمي

جثةَ الدهرِ على الدربِ ويمضي...

- ٤ -

أيُّها النُسْغُ، وأنتَ القادمُ المُحتَرِقُ،

كلُّ دربٍ فيكَ دربٌ في رؤانا،

كلُّ نَبْضٍ في الرؤى مُفْتَرَقُ،

كلُّ نجمٍ ثقْبُ

تحتَ جبينِ اللهِ / ماذا

يتركُ الدمعُ، ودمعي

طَلَلٌ بين حُطامِ العصرِ والمَنفى؟

وماذا

يتركُ الرعدُ على صَمتِ الطُلولْ؟ -

بَرَكَ الليلُ الذلولْ...

أيُّها النُسْغُ، وأنتَ المَوْجُ في كلِّ مَتاهٍ،
لُمَّ فينا النارَ،
والتَمَّ رعودًا في شِفاهي...

- ٥ -

فَرَسُ البحرِ تمرُّ...
تَمْسَحُ الأرضَ بعَصْفِ اللهَبِ الآتي؛
و"صورٌ" يَلْثُمُ البحرُ يديها،
ويعودُ الأزرقُ المحبوبُ من رحلتِهِ
عُشْقًا بطيئًا...
يمسحُ الصقْرُ جناحَيهِ بلونِ الغيمِ
أو بالأرضِ / صَلّى،
بارَكَ الأشجارَ والتربةَ -
قالَ البحرُ لِلبحرِ:
تطيرُ الريحُ بالصَقْرِ إلى جُرْحِ الحدودْ،
يُقفِلُ الأرضَ على الأرضِ،
يُقيمُ التربَةَ الرطْبَةَ من ليلِ السدودْ،

يُغْدِقُ البحرُ جَناحيهِ إليها،
تمسحُ الأرضُ دِماهُ بيَديها...
ويطيرُ الصَقْرُ:
يعلو شَمْخَةَ البحرِ
وحُمّى الزَبَدِ المجنونِ...
يعلو الريحَ
يلتمُّ غبارًا ورياحا،
يثقُبُ العشْقَ،
يعيدُ النارَ نارًا
والتواريخَ كِفاحا...

يَزرعُ الصقرُ بأعماقِ الثرى
وجهي ونَبْضي،
يخلعُ الدهرَ ويرمي
جثةَ الدهرِ على الدربِ ويمضي...

(١٥ / ١٦ - أيلول - ١٩٩١)

تجلّيات عُروةَ بن الوَرْد في مملكة الصعاليك

- ١ -

صمتٌ، ويلتَهِبُ المدى.
صمتٌ، ويخرج من جليدِ الأرضِ
نارٌ / ربّما
كانَ السبيلُ إلى السماءِ شَرارة...
أو رُبّما
كانَ السبيلُ إلى الجحيمُ شرارة...
لكنَّ "عُرْوَةَ" كانَ يحتضنُ الثرى
ويفيضُ قمحًا ("عُروةُ"
غفَتِ السماءُ على يديهِ
ورمَتْ طَهارتَها إليهِ...
"عُروةُ" في أفْقِهِ المَلجومِ يَبرقُ كالشَرارةِ /
كيفَ تُفْضي الخطوةُ الوَلْهى إلى سِرِّ السؤالْ؟
"عُرْوَةُ" يحتلُّ أحلامَ الجنوبِ
وليلَهُ الدامي،

وتلثمُهُ التِلالْ...)

- ٢ -

كفّانِ من حَجَرٍ وماءْ،
ومدًى يضمُّ بأفْقِهِ صوتي
وصوتَ الضاربينَ بسيفِهِم درعَ الفضاءْ.
كفّانِ من مطرٍ
ومن عُشْبٍ وماءْ
تذرو البذارَ على الجنوبِ / كأنّما
لا صوتَ فيهِ غيرَ صوتي،
وكأنما
لا موتَ فيهِ غيرَ موتي،
وكأنّما... /
كفّانِ من لَهَبٍ
وصُعلوكٌ يُقسِّمُ جِسمَهُ لِسِواهُ،
ينزف من مَدامِعِهِ الضياءْ –
جسدٌ من الغضَبِ،

جسدٌ من اللهَبِ،

جسدٌ يمرُّ على الحدودِ

فترقصُ الفرسانُ في خَبَبِ،

جسدٌ من الإعصار

من عشْبٍ وماءْ...

- ٣ -

تاريخُ "عُروة" غيمةٌ

(وتَغيبُ في الغيمِ القبائلْ...)

تاريخُ "عُروة" وضةٌ

(وتَغيبُ في الوَمضِ الفَضائلْ...)

تاريخُ "عروة"... "عروةٌ"...

و"الشَنفرَى" وسِواهُ

حينَ يصير من دمعِ الجنوبِ

وحين يغرقُ في الترابِ

فَيَنْبتُ الشجرُ،

وتصيرُ كلُّ الأرض صُعلوكًا جنوبيًّا

يشاءُ فـ"تُخلَعُ" البشرُ،

ويخترعُ الزمانُ، كما يُسِرُّ الغيمُ، أخبارًا

لريحِ صبيّةٍ

زرَعت صَبابتَها على ريحِ الجنوبْ...

- ٤ -

من يقرعُ الأفلاكَ

حينَ تكونُ في الأفلاكِ رائحةُ الثرى؟

من يُطفئُ النيرانَ في خُطُواتِ "عُروة"؟ /

خطْوُهُ زلزالُ أحقابٍ،

وأحصنةُ الزمانْ

صَخَبٌ على صخبِ المدى...

تاريخُ "عروة" صهلَةٌ

نسفتْ جِبالَ الثلجِ في عقمِ الصدى؛

خَطواتُهُ أفُقٌ من القمحِ المُذهَّبِ

يُغرِقُ الصحراءَ / قدْ

يُحصي النباتُ جذورَهُ

ويمرُّ تحتَ النار مُنفَرِدًا.
دمٌ، ويمرُّ "عُروةُ"
ساحبًا بجراحِهِ الدنيا.
دمٌ، ويقودُ "عُروةُ" كلَّ سنبلةٍ.
دمٌ، ودماءُ "عروة" أفْقُهُ،
مَلَكوتُهُ الأبديُّ / "عُروةُ" أغنِيَهْ
ورَحيقُها لَفَّ الأغاني
وانتهى قَمحًا وزَيتونًا ونارْ...-
من أينَ تُفْتَتَحُ الدروبُ
وكلُّ ما تركت بقايا "الفَتحِ"
يدفنُهُ البَوارْ؟

- ٥ -

ألعرْقُ زوبعةٌ من الشَبَقِ الرهيبِ
و"عُروةُ" يُحصي النباتُ جذورَهُ.
في كلِّ أفْقٍ وجهُهُ،
في كلِّ نهرٍ وجهُهُ،

في كلّ جذرٍ من جنوبِ الأرضِ ينبتُ وجهُهُ...
ويفيضُ "عروةُ" في الترابِ
فينبتُ البشرُ،
وتصير كلُّ الأرضِ صُعلوكًا جنوبيًّا /
كأنَّ الريحَ تقرأ وجهَها.
وكأنّما الحَجَرُ
مَسَّتْهُ زوبعَةُ الحياةِ
وصارَ نَهرًا / "عُروةُ"
أنشودةٌ ناريّةٌ في حَلقِ طفلٍ
فاضَ من يدهِ السديمُ / و"عُروةُ"
ترنيمةُ الريحِ التي نزَلَتْ إلينا
من سماءِ الحلْمِ / ينزلُ "عروةُ"
والجِسمُ أجيالٌ من الطَوَفانِ
يغسلُ جرحُهُ الأرْضا،
ويَفيضُ قمحًا في خُطاهُ
ويوقِدُ الرَفْضا.
جِسْمٌ يُقسّمُهُ جُسومًا.

لَمْعٌ يُمَرِّرُ في البروقِ بُروقَهُ،
يهوي على عَصَبِ الترابِ
فينبتُ البشرُ،
وتصير كلُّ الأرضِ صُعلوكًا جنوبيًّا /
يدٌ وسماؤهُ عُشُقٌ،
يدٌ، وفضاؤهُ ثَمَرُ...
تاريخُ "عُروة" قبلةٌ ناريَّةٌ
يغفو بها
ومدًى رهيبْ؛
ويظلُّ "عُروةُ" قِفزَة فوق الجباهِ
تُعيدُ رسمَ الشرقِ
سيفًا من لهيبْ...

(٢٧ - ١٢ - ١٩٩١)

قريش

"حبّذا العيشُ حينَ قومي جَميعٌ
لـم تُفَرّقْ همومَهـا الأهـواءُ
قبلَ أن تطمَعَ القبائلُ في مُلْـ
ـكِ قُريـش، وتشـمتَ الأعـداءُ"

(الرقيّات)

- ١ -

هادئٌ مثلما يهدأ الصدى -
بين وجهي وذُعرِ القبيلةِ وادٍ
وكلُّ المدى...

هادئٌ...
(كيفَ تَحْتَرِفُ النارُ بردَ الخليقةِ
والشعبُ يحترفُ الدمعةَ الفارغَهْ؟)
هادئٌ..
حولَ وجهي حُطامٌ

وظِلٌّ تَهافَتُ في بيدِهِ مُقَلٌ...

(كيف يحترفُ الموتَ شعبٌ

وتقترنُ الأرضُ بالمستحيلِ؟)

قريشٌ

تمرُّ كما يخلعُ الموتُ أجفانَهُ المُغْلَقاتْ

تُقَسِّمُها وحشةُ الظلْمةِ المطمئنَّةِ:

ماضٍ من النُسْغِ يُبحرُ في فَتحِهِ

وآتٍ مَواتْ...!

- ٢ -

هادئٌ مثلما يهدأ الصدى -

حولَ وجهي وهذي القبائلِ مَحْلٌ:

جذورٌ تَغيضُ بأحداقِها

ورمادٌ تُعَشِّشُ فيهِ الخطى /

حَطَبٌ...

كُوَمٌ يابسةٌ تَتهافَتُ في سَبَخاتِ الوطنِ الجَرْداءْ...

حَطَبٌ مُشتعِلٌ ينزفُ بَرْدًا في وجهِ الظلماءْ... /

حولَ وجهي وهذي البقيّةِ محلٌ:

قُريشٌ تغورُ بأحزانها

والمدى مُستقرٌّ على الجرحِ

والشُرُفاتُ انتحارٌ بليدٌ تَفَتَّحُ في مُقلةِ الليلِ -

(هلْ

تتركُ الأرضُ أنقاضَها

وتمرُّ على وجهِنا من صقيعٍ؟)

قريشٌ تمرُّ

ويحملها الوطنُ المُنضَوي في لُفافةِ تَبْغٍ.

قريشٌ بأوردتي

وبأوردتي مَلَكوتٌ ردى -

بين وجهي وذُعرِ القبيلةِ وادٍ

وكلُّ المدى:

هادئٌ كما يهدأ الصدى...!

- ٣ -

كيف ينتحرُ الضوءُ من أسْفلِ السفحِ

والنارُ تَضرى على أفُقٍ من جليدٍ؟
على وجهكَ العشْبُ يذبلُ.
في وجهكَ البردُ،
في وجهكَ الوطنُ المُضْمَحِلُّ /
ترابٌ
ولا زرعَ إلاّ اللبالِبَ –
أيُّ يدٍ تفتحُ البابَ إنْ هَبَّتِ الشمسُ،
أيُّ البقايا تَراكَمُ إنْ عَرْبَدَتْ نارُها؟
هادئٌ...
كانَ وجهي مَغارًا،
والصدى حجرًا...
كان بين المَرارةِ والدمعِ
شَرْخٌ...
وبيني وبين البقيّةِ شَرْخٌ...
فكيفَ تُدَثِّرُني تُربةٌ
وينبتُ فيَّ الرَبَلْ؟

– ٤ –

هادئٌ...
ألُمُّ بقاياي من أحرفِ النصِّ –
وجهُكَ وجهي،
وقلبي رحيلُكَ في التيهْ /
كانت عيوني
كهوفًا لِغَزْوِ الرطوبةِ.
كنتَ الرمادَ الذي غَمَرَ الزَمَنا.
كنتَ أنتَ الوليمةَ
والليلُ من حَوليَ الكفَنا.)

(٢٨ – ١١ – ١٩٨٦)

الخروج من الزمن المكسور

رحلة نوح

- ١ -

يدخل

إلى المدينة التي اشتعلَتْ في رئتي،

اشتعلتْ تحت صهيل النحاس وأرَقِ المَجامِر

يدخل

بينَ الفَينةِ والفَينةِ تَراهُ غريبًا – صعبٌ أن يكونَ الإنسانُ بُعَيدَ دخول ما مألوفًا، وصعبٌ أن يلبسَ وجهَ الماضي –. ولكنْ يفتحُ الألْفَةَ، ويأخذهُ الذهول.

هناكَ يركع...

(إنّها البدايةُ:

كيف تُخرِجُ من البداية أنهارًا ووطنًا؟

كيف يصير الجرحُ أرضًا

والعقلُ مَتاهاتٍ للحلُم؟

إنّها البداية:

آخرُ ما يكسره الرماد،

وآخر

ما يتركُهُ الأسَنُ الموحِلُ في الوحل...)

– ٢ –

تكسرُكَ الأجفانُ عندما تدخل –

غريبٌ أن تكونَ في العيون ولا تكون!

تكسرك الأجفان

(كيف يستقبل المَرْءُ الضدَّ وهو يوقَدُ في حَنجرَةِ الماضي؟ ولكنْ... لِيَكُنْ! إنّه الآنَ يدخل، يمسحُ عنه الرمادَ ويدخل،

تكسرُهُ الأجفان...)

– ٣ –

هل يصير النخيلُ نوافيرَ بخور

والسَعَفُ مراكِبَ للرحيل؟

إنّه يكسِرُ الرتاجَ ويُعلِن:

"مُعشِبةٌ جثثُ الموتى، مُعشِبٌ وجهُكِ، أيَّتُها المدينةُ المومِس! بعيدةٌ هي المرافئُ في أشرعةِ الرحيل، بعيدٌ صَداكِ الأوّل. لكنّني

إذْ استقبلُ وجهَكِ الآتي

أخرجُ من وجهي

وأعودُ إليكِ."

ويعلن:

هذا أوانُ الأشرعة،

فلْتَكُنِ الهَيولى أوّلَ ما بعدَ الرماد،

وَلْتَكُنِ النار..."

ويعلن:

"ما أجملَكِ الآن،

ما أجملكِ،

أيّتها المدينة المومِس!"

- ٤ -

وقال:

"هل يصير الماء مِمحاة للشرق؟"

وقال:

"سفينتي هدأت

والصواري تنهض من الصقيع."

مشى باتجاه الزرقة. خرج من الضباب. كان وحده. كانت عيناه رُؤيَوين وكفّاه ينابيعَ ماء زلال. مشى... كان وحده، ولكنّه كان كثيرًا...

- ٥ -

عانق نوح البكاء...

(أكان يبكي

أم يغسل طُحلَبَ نفسه؟)

تململ،

ولَجَ الضوء،

مرّ فيه شهابًا،

وعانق البكاء...

رأى الشوارع ركامًا. رأى الباب تِفْلاً تحتَ القرار. بكى. رأى الزهرة تخرج، تَعرى من خجلها، تغتسل في الشمس. رأى الليل يخرج من القمر. رأى الرُّفاتَ تنهض: "طوبى للذين يغسلون حِللَهم بدم الحَمَل ليكون لهم سلطان على شجرة الحياة، ويدخلوا المدينةَ من الأبواب". بكى. ولَجَ الضوءَ وعانقَ المدينة.

- ٦ -

تلتهم الرؤيا عينيه،

تصفعه الريح،

تهتزّ به السفينة.

يركع في مذبحه. يتعانق. تهتزّ من حوله الأشجار. ترقى إليه الكلماتُ بَخورًا. يسبرها. يفجّرها ضوءًا. يرحل في نفسه: مسافاتٌ... مسافاتٌ عاريات، والسَعَف يورق أجنحةً، والأرض غيم يحتضن الطير... مسافاتٌ... مسافاتٌ عاريات... مدينة بكر تركع فوق تراب بكر. قَبَسٌ يفتح المسافةَ، والعصر أوّل الدخول.

يركع في مذبحه. يتعانق.

تلتهم عينيه الرؤيا.

تصفعه الريح،

تهتزّ به السفينة...

- ٧ -

كيف لا يصير الزمن

نهرًا يُورقُ في عينيه،

يخلع ثيابَه ويرحل؟

كيف لا تأتي إليه المسافة

مورقةً

وتغرق في عينيه؟

يدخل ـــــــ*

الشوارع تراب والجسد أرض. مذبحه غرابة مدهشة في أرض لَمْلَمَت جرحَها، دخلَتْ إليه، صارَت قَبَسًا، خاطِرة في رحيل الضوء الأبدي.

يدخل ـــــــ*

بين الزاوية والزاوية

نبع من البخار،

وتحت الألم الأخير

دوارُ اليَقظَة

أو ما يشبه الدوار...

إنها لحظة التجلّي،

فابدأ غرابتَكَ المضيئةَ، أيُّها الزمن،

وانهَمِرِ... انهَمِرْ...

– ٨ –

كيف كان الحلم

آنَ ذهبَ إلى نفسه فلم يجدها،

كان يحلم:

شطآن من الزهور، وأرضٌ

يخشع عند رَمْلِها الضباب.

كان يحلم:

مليءٌ. ودروب المدينة خَجْلى أمامه ترنو إليه.

دروب المدينة موغِلةٌ في الكآبة الكوكبيّة. مليءٌ. وحوله الصعودُ لُمَعٌ

في الرؤيا. والمسافةُ بلا مَسافة.

أوَاهْ!

كانت الأرض تنزلق في أفكاره

لَولَبًا مُضيئًا،

صَمتًا مُوَقَّعًا،

ويحلم...

– ٩ –

بكى الموج. تأوّه. هَفا إليه.

هدهدَتْه السنواتُ الحمراء.

بكى الموج.

حمله إلى آخر الذكرى،

ولَفّهُ بضوئهِ.

نَزَّ محبّتَه وانفتح:

"ظَهَرَت في السماء آية عظيمة:

امرأة ملتَحِفَةٌ بالشمس، وتحت قدميها القمر، وعلى رأسها إكليلٌ

من اثني عشَرَ كوكبًا، وهي حبلى، تصيح وتتمخَّض وتتوجّع لِتَلِد.

وظهَرَت آيةٌ أخرى في السماء: إذا بتِنّين أشقرَ عظيم، له سبعة

رؤوس وعَشْرَة قرون، وعلى أرؤسِهِ سبعة أكاليل، وقد جرّ ذنبُه ثلثَ

كواكبِ السماء وألقاها على الأرض. ووقف التنّين قبالةَ المرأة المشرِفة

على الولادة لِيبتَلِعَ ولدَها عندما تلِدُه..." آهٍ!

نزّ محبّته وانفتح:

انهمَرَت ولاداتُه.

حملَ السعَفَ وغمغم.

أرّخَ للأرض عمرًا جديدًا.

نزَّ محبّته وانفتح:

كان كالصِدْفَةِ

مُضيئًا،

غريبًا حتى الذهول.

هدهدَتْه المرائي وحَمَّلَتْه بكرَها،

فعاد،

بكى، تأوّهَ.

نزَّ محبّته وانفتح،

ثمّ دخل الضوء...

- ١٠ -

كانت المدينة بين يديه أنشودة جديدة،

تحيط بها أيقونةُ الضياع.

دخل إلى الليل - لَبسَهُ.

دخل إلى النهار - لبسَه.

ثمَّ أوغلَ في ذاته:

إنّه المدينة

عندما يصير العشب بوّابةً للدخول،

عندما يصير الشجر

حارسًا للضوء في المَلَكوت الكبير.

ولكنْ

ظلّتِ المدينةُ أنشودة جديدة

حَمَلَها إليه.

هدهدَها وبكى،

وبكتْ معه المدينة.

- ١١ -

يدخل.

تكسره الأجفان عندما يدخل.

رَنا إلى صِدْفَتِهِ المضيئة

وانجذرَ فيها، وغاب...

كانَ بين الفَينَةِ والفَينة

يَتَلَوَّنُ بالحلُم.

كانَ يأكل نفسَه حين يجوع،

ولكنّه حدّقَ بالأرض

ودخل ــــــــ*

- ١٢ - <u>الأرض</u>

وَجهٌ مُكَلَّمٌ يَمسحُه الطوَفان،

غَسَلَ فيهِ الكَلَمَ والكَلِم.

وجهٌ لم يعد كالوجوه،

لكنّه أكثر صِدقًا،

أو ربَّما

أكثر استدارة...

ونامَ نوح...

كان في حلمهِ يجوع يومًا بعد يوم،

ينكسر ... ينكسر...

كان يَتَلَوّن بالحلم،

ويدخل ــــــــ*

- ١٣ - الحلم:

ضبابٌ كما الماس في شَفافيته،

يحاصرُ الوطن...

تحتَ الجسَدِ والرُمّةِ

يَنبوعٌ من المِلح،

وشلاّل من البخار...

ونَهَضَ نوح.

لوّحَ بالشراع واتّحَدَ بالمَسافة -

صارَ والمَسافةَ توأمين...

نَهَضَ،

وكفّاهُ مَطَر،

وعيناه قَمَرانِ جائعان.

- ١٤ -

كيف يمكن أن نُخرِجَ من شيء ما

وطنًا؟

كانت رياحُهُ تِلالاً من البلّور

ووجهُهُ منارة لا شيءَ يعلوها.

أنتَ المُوفَد

بينكَ وبينكَ نهرُ نار.

أناَ الموفَد

والأرض طينٌ للتكوين...

كيف يُمكِنُ أن نُخرجَ من شيء ما

وطنًا؟

تكوَّمَ.

تداخَلَ.

صلّى ونام...

ثمّ

خَرَجَ وطَنًا!

- ١٥ -

صارَ شجَرًا.

صارَ أنهارًا وحصًى.

صارَ ريحًا وبحرًا وأشرِعة.

كلُّ ما له ليسَ له.

كلُّ ما فيه ليس فيه...

لكنّه

في غَمرَةِ الانخطاف الكوكبيّ

تحوَّلَ عنه

وغابَ في الكلّ...

- ١٦ -

يومَها

أشرقَتِ الشمس

وانهَمَرَ مهرَجانُ النهار.

يومَها

ارتَدَتِ الوجوهُ وجوهًا

والأرضُ أرضًا.

وغَفا.

ضَمَّ إليهِ الحِجارةَ والأرضَ والسماء.

صارَ مَطَرًا

يَنهَمِرُ فوق الكلّ -

صارَ هوَ الكلّ...!

(٢٠ - ٣ - ١٩٨٤)

- ١ - عناوين الحالة:

- ١ -

ألوجهُ شمسٌ
واليدانِ مسافةٌ وَرديَّةٌ
والقلبُ فجرٌ في الندى.
قَدَّ السكونَ
وردَّهُ
حُمَمًا تُزَوْبِعُ في المدى...

- ٢ -

مِن أيِّ ثقبٍ في الضميرِ
تَسَرَّبَتْ نارُ الجحيمْ؟
عَصَمَ الشموخُ جَبينَهُ؛

خَلاَّهُ عاصِفَةً تُزَلزِلُ سُحْنَةَ الليلِ البَهيمْ...

- ٣ -

سَقَطَت مَهاوي العارِ
في هَولِ الصراعْ.

- ٤ -

أيَظَلُّ، غيرَ الجمرِ،
عنوانُ الصراعْ؟

- ٥ -

عَصَمَ الشموخُ جبينَهُ.
جمرٌ بكفّيهِ،
وجمرٌ مِلْءَ عينيهِ،
وفي أوصالِه طَبعُ الجِمارْ -
أيظلُّ يغسِلُ وحدَهُ
ما يحتويهِ القلبُ
مِن عارٍ وعارْ؟

- ٦ -

ألصبرُ سِردابٌ
من الثلجِ المكدّسِ في العروقْ -
ما زالَ يعلكنا الردى
ويُشيحُ عن أمَلِ الشروقْ.

- ٧ -

مِن أفقِ الآهاتِ طَبعٌ لا يُمَلُّ -
زَندٌ من الصوّانِ
يحرسُ ماردًا
في عينيهِ غَضَبٌ يُطِلُّ.

أيظلُّ يَحْملُ عارَنا
وبكفّهِ سيفٌ يُسَلُّ؟

- ٨ -

ضَرَبَ المدى

فانشقَّ عن شَرَر الغَضَبْ -
وتَوالَدَ العُمرُ العظيمُ ضمائرًا
تَلْتَمُّ في سَيفِ اللَهَبْ.

- ٩ -

غَضَبٌ... غَضَبْ...
ألبرقُ صارَ مَنارة.
والجرحُ أبرقَ والتَهَبْ.

- ٢ - قصيدة الفارس:

- ١ -

سقَطَت عظامُ الليلِ... فاختنقوا هنا.
سقطت مدائحُنا عنِ الشرُفاتِ...
فاختنقوا هنا.
سقطت مدينتُنا...
كم من حطامٍ هبَّ يخرجُ من حطامي!

وألمٌ في جُرحي الجِراحَ،
أطاردُ الأشباحَ،
أركعُ في انهزامي:
سقطت مدينتُنا،
سقطَ الإلهُ على الظلامِ...

أمضي /
سَمايَ مليئةٌ بالأقنعَهْ.
وسَمايَ داليَةٌ من الألغامِ
فانفَجِرِ... انفجِرْ...
وتَحَصَّني بالصاعِقَهْ
وبفارسٍ ضَرَبَ الزمانْ.
أمضي...
وأسمَعُ في هُتافِ الشعبِ
حَشرَجَةً محنّطَةً
ولونًا مُنكَسِرْ –
أمضي /

وأقدامي بقايا غَيهَبٍ –
سَأمٌ يمرّ على الوُعور
فيترك الصَوّانَ ماءً آسِنًا
ويُبيحُ أحلامَ القدَرْ...
قدَرٌ يمرُّ على عزيمةِ فارسٍ،
ويعودُ مُنكسِرًا،
وينكسرُ القمَرْ...

أمضي /
خَطايَ على الرمالِ جنازَةٌ،
وخُطايَ أضواءُ المسافةِ والليالي،
وخُطايَ قافلةٌ من التاريخِ
قافلةٌ من الندَمِ المُحالِ،
وخُطايَ أشباحُ المدينةِ
وَهْيَ تغرقُ في السؤالِ –
سقَطَتْ مدينتُنا،
سقطتْ مدائحُنا،

سقطَ الإلهُ على الرمالِ...!

- ٢ -

بيروتُ، مُدّيهِ بصَبرِكِ -

نامتِ الأقمارُ في عينيهِ نامتْ...

وَنَمَا على كفّيهِ فجرٌ مُنْتَظَرْ،

وتدافَعَتْ نبَضاتُهُ

تمحو رمالَ العار

عن وجهِ القدَرْ

حقلاً وأغنيةً بلا حدٍّ يُزَنِّرُها البشَرْ:

"بيروتُ أغنيتي...

بيروتُ صاريَتي...

بيروتُ حقلٌ من مسافاتِ الضياءِ

تنامُ في ليلِ العُروبةِ /

إنّه التاريخُ مصطدِمٌ

بأحصنةِ الهَباءِ...

بيروتُ أغنيتي -

بيروتُ رائحةٌ من الطيبِ المُضَمَّخِ بالدماءِ

وحدي أفَتِّتُ بالأظافِرِ موتَنا... وحدي...

وأكسّرُ الأفُقَ المُصَفَّحَ بالردى... وحدي...

وأجدّدُ التاريخَ حنّطَهُ الصدى... وحدي...

وأنا اللهيبُ أطاردُ الموتَ البليدَ،

أنا الدوالي

أذبحُ العنبَ المعتَّقَ للأُباةِ،

أنا الزمانُ... أنا الزمانْ..."

بيروتُ، مُدّيهِ بصبرِكِ،

لن يكونَ سوى الذي كانت مشيئتُهُ وكانْ...

نَهَضَ المدى

من آخرِ التاريخِ /

لُمَّ الآنَ، مِن بينِ البقايا، وَجهَنا

وحُطامَنا،

وبقيّةَ الندَمَ المُخَبَّا في الزوايا،

واجبلْ بها الآتي،

وهُبَّ معَ الضحايا
لَهَبًا يُزَوْبِعُ ما ترَسَّبَ
من ظلامِ العارِ في عارِ السبايا،
وَلْيَكُنْ ما شئتَ:
سَمِّ الكونَ كونًا
والمَنيَّةَ نُزهةً وَرْدِيَّةً،
أو سَمِّ بيروتَ الوليدةَ باسمِها –
"بيروتُ أغنيتي...
بيروتُ صاريَتي...
عُمري بها أبَدٌ،
والليلُ حَنجَرَتي..."

– ٣ –

صبرٌ لعاشِقةٍ،
وأحلامٌ تُهدهِدُ وَجنةَ الطفلِ القتيلْ.
سَقَطَ الترَنُّحُ في اشتِعالِ الأرضِ
واشتَعَلَ السبيلْ...

ها كُلُّ وجهٍ يستوي في غيمةٍ
ويمرُّ فوقَ الهَدمِ:
واجَهْنا أعاصيرَ الحديدِ بجسمِنا،
وبجِسمِنا لَمَّتْ بقايا الشرقِ
طِيبَ المَطْرَةِ الأولى
ولَمَّ الغرْبُ ضَوعَ الشرقِ...
لكنَّ البقيّةَ أوصدَتْ تاريخَها
وتفَتَّحَتْ هَدْمًا
وتاريخًا ذليلْ،
ليلاً لِعاشِقةٍ
وأحلامًا تُهدهدُ وجْنةَ الطفلِ القتيلْ...

– ٥ –

ألزَنبقُ البرّيُّ ينبتُ في وُعورِ الروحِ،
والأحلامُ إعصارُ
يُقَوِّضُ ما تَسامى من بروجِ اللعنةِ الأولى

ويحترفُ الصَهيلْ –
برقٌ، ويَصهَلُ كلُّ عرقٍ
من عروقِ الأرضِ،
ينبعثُ القتيلْ...
برقٌ، وتُزهرُ في الخَلايا
قُبلةٌ جُوريَّةٌ / سقطَ المساءُ
وفارتِ الرؤيا على عينِ الغيوبِ / يمرُّ
مُنتَزِعًا وَميضَ البرقِ من وَمَضاتِهِ
ويمرُّ مُختَرِعًا عمادَةَ أفْقِهِ
وعمادة الغَضَبِ البتول...
يمرُّ في بيروتَ عاصفةً
ويُقوِّضُ الشرقَ المُجَذَّرَ في العقولِ،
ويُقوِّضُ التاريخَ في طَفَراتِهِ:
"بيروتُ أغنيتي...
بيروتُ صاريَتي..."
ويلمُّ من تحتِ الحطامِ وجوهَنا،
ويلمُّ أيدِيَنا وأرجُلَنا،

وبقيّةَ الآتي،
ويجبلُ في مَسافاتِ الضياءِ
خلاصةَ التاريخِ والبشرِ،
ويمحو لعنةَ القَدَرِ:
"بيروتُ أغنيتي...
بيروتُ صاريتي...
عمري بها أبَدٌ،
والليلُ حَنجَرَتي..."
بيروتُ، مُدّيهِ بوَهجِكِ –
لن يكونَ سوى الذي كانت مَشيئتُهُ.
يُها الوطَنُ المُبَدَّدُ بينَ أحرفِ جَهلِهِم
وغَياهِبِ التاريخِ –
أعطي الآنَ هذا الشكلَ للآتي
وأخترعُ النقيضَ:
قصيدة كُتِبَتْ بماءِ الرفضِ
أو كُتِبَتْ بنارِ الصحوةِ الأولى /
يُها الزَندُ المُكبَّلُ في دُجى التاريخِ

لُمَّ الآنَ، مِنْ بينِ البقايا، وَجهَنا
وحُطامَنا،
وبقيّةَ النَدَمِ المُخبّا في الزوايا،
واجْبل بها الآتي،
وهُبَّ على الضحايا
لَهَبًا يُزَوْبِعُ ما تَرَسَّبَ
من ظلامِ العار في عار السبايا –
لن يكونَ سوى الذي كانت مَشيئتُهُ،
يُها الوطَنُ المُبَدَّدُ بينَ أحرفِ جَهلِهِمْ
وغَياهِبِ التاريخِ:
يجعلُ منكَ أغنيةً
ورمزًا للورودِ
وللغيومِ ونكهةِ الأشياءِ،
يجعلُ منكَ خدًّا مُتْرَعًا بالشمسِ،
أو وَجهًا تُطَرِّزُهُ الحقولْ...
يصيرُ ما أَلِفَتْهُ عينُ الشمسِ
أو أفضَتْ إليهِ بسرِّها:

أَمَمٌ تزولُ وكلُّ ما أَلِفَتْ يزولْ

لكنّهُ النارُ التي تَبقى هُنا...
لكنّهُ النارُ التي تبقى هنا...
لكنّه النارُ التي تبقى هنا...

(١٩٩٢)

المجموعة الثامنة:

كتاب الحرب

قصيدة الشيء

(الشيء موجود غيرُ مُحَـدّد في شـكل أو هَيأة، ولا هو مرتبط بشخصيّة معيّنة. إنّه خلاصـة الكلّ في الزمـن الـرديء، حـين لا يبقـى اسمٌ ولا كيان ولا وجود...

والشيء لا يختصّ بكـلّ زمـان ومكـان، بـل يختـص بالعـالم العربـي عمومًـا، وبلبنـانَ خصوصًا في السنوات الأخيرة الماضية...)

يخرج من ثقب في التربةِ
أو من ثقب البابِ...
وقَدْ يخرج من ثقبِ الروحِ
ومن ثقبِ الجسمِ / يقول الراوي:
كانت شمسُ الغربةِ تُشرِقُ
في غاباتِ البلّوطِ
على المُفتَرَقِ الأوّل من قلبي؛
ويكادُ الوطنُ الغائرُ في سَوْسَنَةٍ

أن ينسى عينيهِ على شُبّاكِ جَوارحِنا،
أو ينسى بعضَ قوافي الشِعرِ
بأوّلِ بابٍ من أبوابِ الألَمِ.
ويقولُ الراوي:
مِن عيدِ السَقَمِ
تخرجُ عينانِ مُدَوَّرَتانِ
وتخرجُ خَطْواتٌ من قلبِ التُربةِ
أو تعبرُ خَطْواتٌ
في بئرِ القلْبِ؛
وقدْ تخرجُ عَينانِ من البابِ
أو الحائطِ
أو من ثقبِ الروحِ –
هُنا أولادُ الحارَةِ
عُمْرُهُمُ حَبلٌ
وعُيونُهُمُ طَيّاراتٌ من وَرَقٍ...
وهنا صفصافٌ يحنو فوق ينابيعِ التُربةِ،
يقطفُ من لونِ الماءِ

طباشيرًا لِلّوحِ الأسودِ
أو
زَنبقةً مُشرِقَةً
لِحقولِ زَنابقَ كان الأطفالُ يَشيدونَ بها وطَنًا...
ويقولُ الراوي:
يخرجُ من جَرَسِ الصمتِ
بأرضٍ تلبسُ قبّعةَ الليلِ،
وتلبسُ تحتَ جواربها لَحمًا محروقًا
وهضابًا من كَرَزٍ برّيٍّ
وكنائسَ من فولاذٍ ورصاصٍ،
ومعابدَ للجرحِ بعَينِ الأطفالِ...
يقول الراوي:
حينَ يُلامِسُ موجُ البحرِ السِمْتَ
ويخرجُ من عينيهِ السَرَطانُ البحريُّ
ويخرجُ ليلٌ مُسْوَدُّ الفَيْءْ
يتجلّى "الشيْءْ"...

وطَنٌ كالإبرةِ يَنسَلُّ إلى العِرْقِ،
وقَدْ يَنسَلُّ إلى حُلُمٍ يُشبهُ جِلْدَ الضَبِّ /
"أمَرَّ؟"
- "مَرَرْتُ أنا، لكنَّ الوقتَ..."
- "أمَرَّ؟"
- "أدَارَ المِفتاحَ ولكنْ لم يُفتَحْ بابُ الوطَنِ..."
مرَّ الوقتُ
ومرَّ مُحَدِّثنا
وأدارَ المِفتاحَ، ولكنْ
لمْ يُفتَحْ إلاّ بابُ الكَفَنِ!

وطنٌ كالإبرةِ يَنسَلُّ إلى العرْقِ
وقدْ يَنسَلُّ إلى القلبِ،
يُصافِحُني
ويعودُ فيخرجُ من عينيهِ السرَطانُ الصخريُّ /
"نُواحُ؟"
- "بل جَرَسٌ وصَهيلُ البرْقِ.

تَعالَ اتبَعْني...
أعني: هل بعتَ الحبلَ المَشدودَ؟
أتْبَعني، واقْفِلْ جَسَدَ الوقتِ على الوقتِ...
أراكَ بموتٍ
أعني بسلامٍ إنْ مُتُّ سَعيدًا
(هلْ ماتَ "الشيءُ"؟)
- "نواحُ؟"
- "بل خَطَواتٌ نحوَ القلبِ المثقوبِ.
أبعتَ الوقتَ؟ تَفضَّلْ
أدخُلْ هذا الوطَنَ الشَبَحِيَّ..."
ولكنَّ البابَ ضَبابيٌّ
والعَيَّ يُصافِحُني
ويمرُّ وفي شَفَتيهِ بَسَماتٌ...بَسَماتٌ...بَسَماتْ...

الأنجُمُ عنقودٌ مِن طَعمِ "الحَرْبِ"
وعنقودُ الداليةِ انتَثَرَتْ حَبّاتُ صَباياهُ
وصَباياهُ صَفَدُ:

"هل تَصطادُ على شَطِّ المُتَوَسِّطِ؟"

– "أصطادُ الناسَ

وتَصطادُ الناسُ حكاياتِ الأمَلِ المُرهَقْ."

مَرِضَ "الشيءُ". جَزِعنا.

عالَجناهُ بالحُقْنَهْ

وبحَبّاتِ الفالْيُومِ وبالأفيونِ،

وعالَجناهُ بالإبرةِ .

(هل كانَ يرى وطنًا كالإبرةِ

ينسلُّ إلى العرْقِ؟

أكانَ يرى

"شيئًا" كالوطنِ المَرْمِيِّ على خارطةِ القلبِ

منَ الشرقِ إلى الغَربِ؟)

– "أتصطادُ على شطِّ المتوسّطِ؟"

– "أصطادُ الناسَ

وأغلِقُ يوميًّا كلَّ رمادٍ

يتمَطّى فوق الخارطةِ الكبرى

من بَحرٍ ومُحيطٍ،

أصطادُ الوقتَ وأخترقُ الكَرَزَ البرّيَّ

وأطردُ آخرَ حُفنةِ شَمسٍ

من لبنانَ إلى البصرةِ،

من شَطِّ العُرْبِ

إلى شطِّ المتوسّطِ؛

أصطادُ الوقتَ

ويصطادُ "الشيءُ" صليلَ القيدِ المتسرِّبِ

من ثقبِ البابِ

إلى ثقبِ الشمسِ

إلى ثقبِ الإنسانِ –

أحاولُ أن أقفلَ هذا الألمَ الهابطَ من صوتِ الأجراسِ

ومن مِئذَنةِ الصحراءِ

ولكنَّ "الشيءَ" يعودُ إليَّ

ويسحبُني في صوتِ رَذاذِ القَتْلِ

إلى كيسِ الوطنِ المَخنوقِ بِمِمحاةِ العَرَبِ.

عانقتُ الجوعَ وأنكرَني نَسَبي

وسألتُ الراوي: "أينَ أخُوَّتُنا؟"

كانَ الصمتُ يلفُّ الدمعَ
من المتوسّطِ، من أقصى الكونِ
إلى شطِّ العَرَبِ...

عينٌ تهبطُ من برجِ الصمتِ وترمُقُنا.
عينٌ تصعدُ من عُشبِ الأرضِ وترمُقُنا.
عينٌ تخرجُ من ثقْبِ الأرضِ وترمُقُنا.
عينٌ تخرجُ من عينٍ...
عينٌ تعلو فوق شريطٍ عند جنوب الأرض وترمقنا.
عينٌ تدخل من بابٍ مفتوحٍ
عند شمال الأرض وترمقنا.
لكنّا، مُنهَمِكينَ بقطفِ الكرز البرّيّ من الأحلامِ،
ومنهَمِكينَ بوصفِ الليلِ،
ومنهمكينَ بجنسِ ملائكةِ الجنّةِ
لا عينَ لنا ترمقُ أنفسَنا!

"ألشيءُ" ينحني على السماءِ

أو على الترابِ،
يجمعُ الحنينَ والحصى
ويُخبرُ السنينَ عن فُتوحِهِ.
(و"الشيءُ" يغزلُ المسافةَ الجَريحَهْ
على عيونِ ليلِهِ
– وليلُهُ يُشبهُنا –
ويَطرقُ الأبوابَ،
يُخبرُ النجومَ عن عيونِهِ الجريحَهْ
وينحني على السماءِ –
تُسدِلُ السماءُ فوقَها ستارَها،
تُسدِلُهُ أيّامُهُ الجريحَهْ...)

كلُّ جديدٍ صارَ قديمًا...
كلّ قديمٍ صارَ قديمًا...
كلُّ جنونٍ صارَ قديمًا...
و"الشيءُ" قديمًا...
يرقصُ صمتٌ فوقَ الصمتِ:

سيأتي زمنٌ

يتلوّنُ فيهِ الليلُ بلونِ النور،

سيأتي زمنٌ

يتحوّل فيهِ سريرُ العاشقِ حقلَ بَخور

والعاشقُ نجمًا

أو أشجارَ صلاةٍ...

يرقص صمتٌ فوقَ الصمتِ:

سيأتي زمنٌ

يهبط فيه الفجرُ من الليلِ

ويجلسُ قربي (يولدُ في الخمرِ

وعيناهُ عِنبٌ

ويداهُ دَوالٍ...)

يأتي زمنٌ

يحملُ فيهِ الشاعرُ من حِبْر قصيدتِهِ

جَسَدَ الجنّةِ

أو... مطرَ التكوينْ...

خرجَ "الشيءُ" إلينا

باحثا عن لغةٍ تُشرقُ من قلبِ الفضاءِ،

باحثا عن جسدٍ

يلبسُهُ، ويدٍ

تُخرجُ الأشياءَ من حكمِ الهَباءِ –

خرجَ "الشيءُ" إليهِ:

إنّهُ يمشي ويمشي خلفَهُ

جرَسُ الآتي

وأحلامُ السماءِ...

(٧ – ٩ – ١٩٨٨)

الهباء

هابطًا من أفقِ الصمتِ
وعيناي شُموعْ
أقرأ الأرضَ، وأرفو
لغةَ الأرضِ بأحلامٍ وجوعْ –

هابطًا من أفقِ الصمتِ
أسَوّي مُهجَتي بالأرضِ
(هذا وطنٌ يعرفُ أن يبتلعَ الرعبَ، وهذا
ماردٌ من ورقٍ
يدعونَهُ الشعبَ!)
أسَوّي مهجتي بالرملِ:
هل كانَ المدى
يسألُني عن طائرِ الشرقِ؟
ولكنْ
ليس بيني والسماءْ

غيرُ صحراءٍ من الشمعِ
وصحراءٍ من الدمعِ
وصحراءٍ على دفترها الفارغِ
تاريخُ الهَباءْ.

(إنّه ينثرُ في قَهوتِهِ حبّاتِ هالٍ
وعلى الهالِ دروبًا للضياعْ –
أتُرى يخرجُ من بئرِ يديهِ
أم، تُرى، من رئةِ الوقتِ؟)
يمرُّ الوقتُ في الدربِ كأسرابِ الصبايا
حاملاً باقةَ ريحٍ؛
يدخلُ الدارَ إلينا
ندخلُ الحائطَ / من أينَ؟ /
وقد ندخلُ ما يشبه شكلَ القلبِ من بابٍ
ومن نافذةٍ مسرعةٍ.
يسألُنا الوقتُ: أما زالَ الفضاءْ
فَرَسًا جامحةً؟

لكنّهُ سرعانَ ما يرحلُ

في قصرِ الهَباءْ...

وقعَ العصرُ على غصّتِهِ:

قطّرتْ نافذةُ الحقلِ دموعًا؛

قطّرت لوزًا رماديًّا وظلاً محرقًا.

وقع العصرُ على غصّتِهِ:

يهربُ من فجرٍ إلى فجرٍ

ولكنَّ المدى

فحمٌ...

ويلوي صوتَهُ،

يُدخِلُهُ في ثقْبِ المِفتاحِ –

لا ينفتحُ البابُ...

ويبقى الوقتُ مقفولاً

على عصرٍ جليديٍّ...

عَبَرْنا

من جحيمِ الشَفَةِ السُفْلى إلى

شفةِ الأرضِ:

نبشنا –

كانتِ الأرضُ حِجارًا وغبارًا،

(إسحَبِ الريشةَ واكتبْ في عِظامي.)

كانتِ الأرضُ هَباءً.

ومن النافذةِ العَجلى خرجنا

وسقطنا في المدى –

كانتِ الأرضُ صحارى من هَباءٍ

ينصبُ التاريخُ فيها خِيَمًا

لشعوبٍ من صدى...

يسألُ الصمتُ الصدى:

هل يهبط اللهُ إلينا

من عيونِ الغيمِ؟

هل تلتصق الأرضُ بأهدابِ السماءْ؟

يسألُ الصمتُ:

أشَعْبٌ تَعبُر النارُ عليهِ

كانَ فيها القاتلَ المقتولَ،
وانضمَّ إليهِ
وطنٌ يسكنُ في غيمِ الهَباءْ...؟
يسألُ الصمتُ، ولكنْ
ليس بين الصمتِ والصمتِ سوى
خارطةِ الليلِ وإيقاعِ الخواءْ...

هابطًا من أفُقِ الصمتِ
وعيناياَ ترابٌ:
هبطَ الليلُ إلينا من عيونِ الغيمِ.
كنّا خارجَ الوقتِ / تُرى
هل دخلتْ في جِلدِنا الشمسُ؟
تساقطْنا طويلاً، ورحلْنا
في عَياءِ الطُرُقِ المُكْتَنِزَهْ.
كيف نمضي
في خروجِ العصرِ من معجزة الوقتِ
ونحنُ المعجزَهْ؟

هبطَ الليلُ إلينا:
ذاتَ فجرٍ
أسْرَجَ الوقتَ، ورَشَّ الوقتَ بالحُلْمِ فناما.
وتلفّتنا إلى الأرضِ، رأينا
كيف صارَ الليلُ صحراءً
وصارَ الوقتُ رملاً
والتواريخُ حُطاما...

أسْرِجوا النارَ،
أكسِروا بابَ الحصارْ:
خرجَ الماردُ من كُتُبِ الصغارْ...

(١٢ / ١٤ - ٩ - ١٩٨٨)

الصقر والحجر

" إلى ابطـــال الحجـــارة في الأرض المحتلّـــة "

١ –

يسأل اللهُ عن الدنيا، ولكنْ
لا جوابُ:
أرضُهُ قَفرٌ، وكفّاهُ سَرابُ...

٢ –

يمضغ القفرُ زمانَ الشهداءْ.
كان بينَ الرملِ والرملِ
سَرابٌ خضّبتْهُ الشمسُ في شَهوَتِها،
أمَّةٌ عَفّرَها العارُ –
يَضيعُ العمرُ
والآياتُ كُفرٌ في الشفاهْ
والأناجيلُ هَباءٌ مُطرقٌ

يسكتُ عن هَولِ الجريمَهْ!
كان بين الرملِ تاريخٌ
تقاسَمنا بهِ العارَ،
لبسناه عيونًا
ورفعناهُ فُتوحاتٍ وصحراءَ وَليمَهْ.
ثمّةَ القفرُ...زمانُ القَفرِ...
لكنَّ شهابًا
يجرحُ الليلَ
ويرتدُّ إلى الآفاقِ
صقرًا طافِرًا من مُهجةِ الأرضِ
وأحشاءِ الزمانْ
يمسحُ العارَ عن الدنيا،
يُعيدُ المركبَ المُكتَظَّ بالعُرْبِ
إلى برِّ الأمانْ...

– ٣ –

يسألُ اللهُ عن الدنيا، ولكنْ

لا جَوابُ:
أرضُهُ قَفرٌ وكَفّاهُ سَرابُ...

يسألُ اللهُ ويُعييهِ الصدى
(أمَّةٌ مّذهولةٌ بالصقرِ
يَلْتَمُّ جناحاهُ ضمائرْ
خَضَّبَتْهُ الشمسُ في شَهوتِها
وسقاهُ الرعدُ،
نمّتهُ المَجامِرْ –
أمّةٌ مَذهولةٌ بالصقرِ في مرتَعِها
تَمسحُ الأرضَ
وتُخفي عارَها
وتنامُ...)
سألَ اللهُ... فأبكتْهُ الخِيامُ:
أمَمٌ يبصُقُها التاريخُ
تَبكي حولَها الأطلالُ
و"الفتحُ"،

ويَبكيها الأنامُ...

– ٤ –

ومضَةُ القَهرِ...
وتاريخٌ من القَهرِ الطويلِ –
غَمَّسَ الكلُّ يديهِمْ بدماهُ،
حاصروهُ بالعَويلِ،
سَمّروهُ لاجِئًا في أرضِهِ...
ثمّةَ القفرُ ورملُ القفرِ
والعُرْبُ
وتاريخٌ من الصمتِ الرهيبْ
غيرَ صقرٍ خارجٍ من غضَبِ الشمسِ
وإعصار المغيبْ،
قال: "لا قَفرٌ، ولا رملٌ وعارُ –
أنا قَصفُ الرعدِ
والتاريخُ في عينيَّ طينٌ وابتكارُ..."

ضرَبَ الصقرُ جَناحيهِ وطارْ.

خلّفَ الأرضَ

وفي الأرضِ رياحٌ وغُبارْ...

قيامة

- ١ -

غضَبٌ في عَصَبِ الأرضِ

وفي الشمسِ غَضَبْ -

نَزَفَ الجرحُ على الدنيا لَهَبْ...

إنّهُ الليلُ -

ينامُ النجمُ والأفلاكُ

لكنَّ عذابَ الأرض يبقى ساهِرًا،

وينامُ البحرُ...

[مَنْ تُخرجُهُ الشمسُ من النار

ويبقى نابضًا

كالعَصَبِ الطافِرِ من زَلزَلَةِ الأكوانِ؟

مَنْ

ينتزعُ النارَ من النار

ويبقى نابضًا؟]

إنّه الليلُ –

ينامُ النجمُ والأفلاكُ

لكنّ الأماني لا تنامُ...

غَضَبٌ يَبْرُقُ في الليلِ

تَشَهَّتْهُ الأنامُ،

والمدى يسألُ عن بيروتَ:

بيروتُ ارتَمَتْ شَطًّا من الأحجار

والأصدافُ فرَتْ...

والثريّا

كَرَزٌ يسقطُ فوق الناسِ...

من يسأل عن بيروتَ؟

(... ليلُ الموجِ طفلٌ،

وزمانُ البحرِ أزمانٌ رمادُ...)

يخرجُ الموتُ من الليلِ

ويلتفُّ على الليلِ السهادُ.

غضبٌ في عصَبِ الأرضِ

وفي الشمسِ غَضَبْ

نَزَفَ الجرحُ على الدنيا لَهَبْ...

– ٢ –

كيف ينأى اللهُ عن شُرْفَةِ بيروتَ؟ –

(على وجهي بقايا غَيْمَةٍ

تَحْتَرِفُ البَرْقَ...

وفي عينيَّ رعدٌ ومطرْ...)

كيف ينأى اللهُ عن نافذةِ البحرِ،

يُخَلّيها حِصارًا،

ويمطُّ الليلَ ذُعرًا وحجرْ؟:

تَتَرٌ من أمّةٍ مَسبيَّةٍ

تبكي على عارٍ طويلٍ،

ومَغولٌ رافقوا الفجرَ إلى زَنزانةٍ،

شَجّوا جَبينَ اللهِ /

(ليلٌ

طارَ من جَبهتِهِ ورمى في قلبِهِ الشمسَ،

وقالْ:

"أقتُلُ الموتَ،

أردُّ الأرضَ عِيدًا،

عَصَبًا يَطْفرُ من غَيبوبةِ الدنيا) –

يطيرُ النَسْرُ:

في خَفْقِ الجناحِ الصَلْبِ أعيادٌ

وفي عينيهِ كونٌ يبتدي.

في جانِحٍ يلتمُّ عُمْرُ الفَرْقَدِ،

في جانِحٍ تَلْتَمُّ شمسٌ من غَضَبٍ –

إنّه الجرحُ الذي يغسِلُنا:

نَزَفَ الجرحُ على الدنيا لَهَبْ...

(١ – ٤ – ١٩٨٩)

نهر الموت

"إلى شهداء المجزرة."

– ١ –

سالَ الدمعُ على ألسِنةِ الشمعِ

وأغصانِ الزيتونْ.

عَبَرَتْ صَلَواتٌ

من تاريخِ القَهرِ

إلى طُرُقاتِ القَهرِ المَكنونْ...

مَن يَبحثُ في الظلمةِ عن قَمَرٍ؟

(قمرُ الليلِ انحلَّ ضَبابًا فحميًّا

ورصاصًا زَنَّرَ خاصرةَ الفجرِ

ورصَّعَ أجفانَ النومِ

على خاصِرَةِ الطُرُقاتْ.)

نَهْرٌ... ويَفورُ القَهْرُ...

نهرٌ... ويفورُ النهرُ –

يخترعُ الموتُ ملائكةً وشياطينَ

ويرسمُ أقمارًا من لَهَبٍ وحديدٍ.

مَن يبحث في الظلمةِ عن قمرٍ؟

صَهَلَ الموتُ يدوسُ بحافِرِهِ وجهَ الليلْ.

صَهَلَ الليلْ...

– ٢ –

بين الناسِ وبينَ الشاهدِ ليلٌ...

طُرُقاتٌ... تاريخٌ من رملٍ...

ودهورٌ صحراءْ...

بين الناسِ وبينَ الشاهدِ

نهرُ الحلْمِ وَوَرْدُ اللهَبِ:

يتحوّلُ صوتُ الفجرِ شَميمَ دِماءْ.

بين الناسِ وعودُ الحقبِ

ورعودٌ من تاريخِ الغَضَبِ...

يتحوّلُ صوتُ الفجرِ غيومَ دماءْ...

سالَ الليلُ على ألْسِنَةِ الشَمْعِ

وأغصانِ الزيتونْ.

عَبَرَتْ صَلَواتٌ

من تاريخِ القَهْرِ

إلى طُرُقاتِ القهْرِ المَكنونْ...

– ٣ –

أللليلُ تَنَفَّسَ ليلاً مفتوحًا في عَتَماتِ الأشياءْ

أللليلُ تَنَشَّقَ فجرًا مفتوحًا

وتنشّقَ نَظْراتِ الطاغوتِ / يمرُّ

على العصْرِ. يُفجّرُهُ.

ويُفجّرُ ما يَدّافَعُ من أحلامٍ

في ذاكرةِ التاريخِ –

على الوجهِ البالي وجهُ

يقصدُهُ البحرُ لِيَرميَ فيهِ السمكَ المَيتَ.

على الوجهِ البالي حقدٌ وشَظايا –

أليلُ يقودُ الليلَ إلى مزرعةٍ لِضحايا.

يتنشّقُ نَظْراتِ الطاغوتِ

وأحلامَ الطاغوتِ

وقَهْرَ الأجيالَ المنسوجِ على نَهرِ الموتِ /

لدينا مِفتاحٌ

يتنفّسُ في ثقبِ العصرِ.

يدورُ المِفتاحُ على القلبِ –

يظلّ القلبُ رتاجًا

والليلُ رتاجًا

والطاغوتُ رتاجًا من حِقدٍ ودمارْ –

عصرٌ يذرفُهُ الصمتُ

وتحميهِ دِمَنٌ وبَوارْ...

سالَ الليلُ على ألْسِنَةِ الشمعِ

وأغصانِ الزيتونْ.

عَبَرَتْ صَلَواتٌ

من تاريخِ القَهْرِ

إلى طُرُقاتِ القهْرِ المكنونْ...

– ٤ –

فجرُ الوعدِ على الحدَقاتِ

وفي إسفلتِ الليلِ المفتوحْ.

وعدٌ... وتمرُّ رياحُ الآتي

في ملَكوتِ الوطنِ المذبوحْ.

وعدُ الفجرِ يسيلُ على ألْسِنةِ الشمعِ /

هنا الغَضَبُ

جمرٌ وبَخورٌ،

وهنا اللَهَبُ،

وهنا الوردُ غيومُ الغَسْلِ

يُحَرِّرُ عصرَ التغييرِ –

هنا الغَضَبُ...

فجرُ الوعدِ على الطُرُقاتِ

تسلّلَ في الصَلَواتِ

وفي السَنَواتِ

وفي أعماقِ الزيتونْ.

نبتَ الوعدُ المَكنونْ

شعبًا من نار

تَتَنَفَّسُهُ النارُ فَيَلتَهِبُ القدَرُ.

صَهلَ الفجرُ تُزَنِّرُهُ بَشَرُ.

صَهَلَتْ زوبعةُ الرفضِ

تحطّمُ بُرجَ الموتِ

ويعقبُها المطرُ...

يلتهبُ الشمعُ وأغصانُ الزيتونْ.

يلتهبُ الفجرُ المَكنونْ...

(٣ - ١٠ - ١٩٩٠)

المجموعة التاسعة:

تجلّيات اللون

بيان الشعر الثاني:
- الشعر والبنية الموسيقية -

قد تكون الموسيقى الشعرية من أصعب ما في القصيدة الحديثة لأنها تحوّلت إلى بنية متكاملة، ولم تعد تواتُرًا كمّيًّا مُسقَطًا على النصّ من الخارج. فبعد أن كان للقصيدة اتّجاه صوتيّ أساسيّ واحد، مُحَدَّد، صار لها وقعٌ مُطَّرِد من الداخل، مُتَغيّر باستمرار، يعيد تشكيل نفسه طالما أنّ النص يتشكّل تشكُّلا متواتِرا.

ولمّا كانت القصيدة الحديثة قصيدة الحال الشعري بامتياز، بمعنى أنها لا تنقل أفكارًا محدّدة، بل حالاتٍ نفسيّة، لم يعد من الممكن أن يأتي الصوتُ مُسَطَّحًا، مُملاً.

هكذا، كانت الموسيقى في القصيدة الحديثة موسيقى الإمكان، إذا صحّ التعبير، لأنها ترصد التحوّل، وتعبّر عنه، في آن. لم يعد الوزن أو التفعيلة، وحدهما سبب الإيقاع في النص الشعري، بل صارت عملية النغَم تنطلق أيضًا من داخل الكلمة نفسها، من أحرفها، وعلاقة هذه الأحرف ببعضها في شبَكَة النصّ. فالواقع الآن، في النص

الحديث، مستوًى أساسيّ في مستويات المعنى، أي بنية معنويّة لا يمكن بحال أن تكون بمَعزِل عن الحقل الدلالي العام للقصيدة.

والكلمة، كقوة من قوى التعبير، لا تُتَمِّمُ وظيفتُها في المُرسَلَة الشعرية إلا إذا وُظّفتْ، عَمليًّا، داخل شبكة متكاملة من الوحَدات المترابطة، فتكون لها بنية سياقيّة يُوَظَّفُ من أجلها الإيقاع في مجموعة وَحَدات من البديهي أن تكون متحوّلة، لأنّ الحال الشعرية، كما ذكرنا، متحوّلة، من جهة، وغامضة غموضًا متفاوتًا، من جهة أخرى.

ما مِن مرسلَة شعرية خالية من الموسيقى؛ ولكنّ هذه الموسيقى تختلف باختلاف الناس والتجربة والنصّ. فقد تكون هادئة خفيّة، وقد تكون ظاهرة، ضاجّة، صاخبة، وقد تتنقّل بين هذه الحال وتلك، وبين هذا المستوى وذلك في سبيل توفير أرفع مستوى لأداء المعنى. فالقصيدة، في نهاية المطاف، يهمّها، أولاً أن تترك لذّة ما، وإيقاعًا بنَبْضِ الوجود، وانخطافًا معيَّنًا في نفس الآخر. والشعر قوّة، حدّه الصورة والرؤيا، والموسيقى أيضًا، من شأنه أن يتسرّب إلى عمق أغوار الوجود، ويزامل الله في عملية الخلق والتكوين. وإذّاك، تكون الموسيقى حالاً من حالات التألّه، وتعاليًا للإنسان على إنسانيّته، ليقبض بهذا التعالي على اهتزازات المطلق وهي تتشكّل حتّى في أصغر الأشياء...

أمّا أن يقول بعضُهم: هذا "شعر الصمت"، وهذه "موسيقى صامتة"... فكلامهم يعكس عجزًا وتفاهة، لأنّ العصر الحديث عصر توتُّر وانقباض، وتضارُب وضجيج، وتحرُّك مستمرّ؛ وهو صورة للمدن الكبرى، والمصانع والآلات، حيث لا مكان للهدوء، ولا حظّ للرومنسيّات العاثرة... كما أنّه عصر التفكير المتّزن الهادئ، والباحث بتعقُّل عن الآتي وعن أسرار الماضي، من غير أن يكون إغراقًا في ما مضى... فلا صمتَ في كلّ هذا، بل حركة لا تهدأ...

هكذا تكون وظيفة الموسيقى في أيّة مرسلة شعرية توجيه المستوى الدلالي ليكون أكثر تكاملاً واتّساعًا، وبالتالي أعظمَ أثرًا.

ولئن يكن النص محتويًا على وحَدات وزنيّة (تفاعيل)، أو خاليًا منها، فإن الإيقاع أساسيّ لاستكمال بنيته. وعندي أنّ الشعر لا يمكن أن يخلو من الإيقاع، لأنّه، عندئذٍ، يتخلّى عن إحدى أخطر وظائفه في التحريك والإيصال. ولعلّ البنية الإيقاعيّة في النصوص الحديثة الخالية من الوزن أصعب منها في تلك التي تحتوي عليه، لأنها تتطلّب لتحقيقها دقّة وذوقًا لا نقع عليهما في النصوص الموزونة، ومع ذلك، فليس هذا مقياسًا مطلَقًا، لأنّ من الموزونات ما لا يتوقّف عند حدود التفعيلة، بل يتخطّاها إلى حدود أصوات الأحرف والتلاعب به، ليشكّل في المُرسَلة الشعريّة كلاً متكاملاً، لا ينفصل.

حضارة اليوم تفترض موسيقى مختلفة تعبّر عنها، وتُوَظِّف في سَحبِ الرؤيا على آفاق أوسع. إنّها موسيقى التوتُّر الرهيب، موسيقى التمزّق الداخليّ والصراع، موسيقى الثورة الدائمة والفَوَران اللذين لا يهدأان، موسيقى الأزمات المتلاحقة في عالم أخذ يضيق على الإنسان المتطلّب... موسيقى التأمُّل والتفكير والتروّي أيضًا... باختصار، إنّها موسيقى الأزمنة الصعبة، الدائمة التحوّل، الشديدة التعقيد، سواء أكانت هادئةً أم صاخِبة.

أصحيحٌ أنّ الشعر سقط منه العنصرُ النَّغَميّ؟ ولكن أليس الحرف، من حيث جوهره، صوتًا، وبالتالي مجموع الحروف في النص باقة من الأصوات ذات تنظيم معيّن يسمح لها بأن تفعل في النفوس؟ أليس الشعر، بطبيعته، وسيلةً لهزّ الآخر بالجَمال؟ فكيف نُعدِم النصّ أحد أهمّ إمكانات التحريك: الموسيقى؟

في الواقع، ما علينا أن نقبل شكلاً واحدًا، محدّدًا، من أشكال الموسيقى للمرسلَة الشعرية، فكلّ الأشكال صالحة طالما عبّرت عن عنصر الحركة. وهي لا تسقط إلا عندما تصير عاجزة عن التقاط حركة الوجود.

كلّ بنية موسيقيّة متماسكة ينعكس فيها العصر تصلح للحياة. كلّ مرسلة تنقل صوت عصرها تصلح للحياة.

سلام للشعر يجبل الوجود من جديد والإنسان،

سلامٌ للشاعر يحمل مجدَ التكوين...

(حزيران /كانون الأول – ١٩٩٢)

تجلّيات اللون

١ – الأصفر:

يمشي إليّ الأصفر المسكون بالحسّ الثقيل.

يمشي إليَّ الأصفرُ الداجي فَيهجرُني دمي. أرضٌ على شريانهِ الملتفّ حول مفاصلي. أرضٌ على عينيه نازفتينِ أوراقًا وأتربةً وصخرًا. كيف يهجرُني المدى؟

أو

كيف تنفصلُ البقايا عن مدائحها؟ بُعَيدَ الصبرِ صبرٌ. يستكينُ الأصفرُ المائيُّ في الأرض. المَدى غَبَشٌ وأعمدةٌ تُقَزِّمُها العيونُ، و... لا مدى. يمشي إليّ الأصفرُ الملتمُّ في الوَرَقاتِ. أنهضُ: أصفرٌ، ومَدايَ دائرةٌ من الصمتِ العجيبِ. صهيلُ أحصنةٍ تُهالُ عليهِ أعماقُ الترابِ، ويبدأ التكوينُ من لونٍ عجيبٍ. حوليَ اليَرَقاتُ تدبقُ – لا مدى، والصبرُ أحصنةٌ تغورُ على أديمِ الدمعِ. تاجٌ مُثقَلٌ بالليلِ يقتَرِفُ الجحيمَ وحولَهُ كُرْسيُّهُ ضاقتْ بها الأطرافُ.

لونٌ

أو دمٌ

يصفَرُّ مثلَ سحابةٍ جرداءَ (قيلَ: لنا دماءٌ،

غيرَ أنّ دِمايَ ليست من دِمايَ، وليسَ وجهي من وجوهِ الأرض.

قيلَ: لَنا وجوهٌ، غيرَ أنَّ ملامِحَ الأجدادِ تسكنها – وكلُّ ملامِحِ

الأجدادِ ليست من وجوهِ الأرضِ.)

لونٌ

أو دمٌ

يصفَرُّ مثلَ سحابةٍ جرداءَ. يمشي الأصفرُ

الداجي عليَّ وليسَ يرويني سوى زَهوِ النحاسِ. على دمي (أو ما

يُقالُ له دمي) زَبَدٌ، بَقايا من تَراجيعِ التراجُعِ. إنّه الزمنُ الكسيرُ

يطيرُ في قبرٍ طويلٍ أصفرٍ: وطنٌ (وقد يأتي إليَّ سكونُهُ الداجي يرصّعُهُ

الرمادُ.)

هنا

على لونٍ ثقيلٍ

أو دمٍ

تاجٌ تُعبّئُ لونَهُ جثثُ الجماجمِ – إنّه

وطني يغورُ كما تغور الصرخةُ العطشى بأعماقِ الترابِ، تمرُّ مثلَ

المَطْرَةِ الأولى وتخفقُ في الضَياعِ – بُعَيدَ جوعٍ لا يكونُ لنا سوى برقٍ

كسولٍ. يبدأ التكوينُ من لونٍ عجيبْ.

يمشي إليَّ الأصفرُ المسكونُ

بالحسِّ الرهيبْ.

جسدي دمي

ودِمايَ ليست من دِمايَ. تصير كلُّ الأرض جاريةً،

وكلُّ الصبرِ جاريةً؛ يُها الوجهُ الذي انتُهكَتْ صواريهِ، يُها الدمُ،

كُنْ نذيرًا بانتهاكاتِ النحاسِ، ومرَّ، مُرَّ، يُها الذي انتُهكَتْ بسالتُهُ

على ذَهَبِ الغروبِ، وهُبَّ مَصْعوقًا كَفَحلٍ لم يعُدْ بينَ الفحولِ.

أهُبُّ

مُنطرحًا على

صَدْعِ التَلَوُّنِ: كلُّ شيءٍ أصفرُ – ذهَبُ الغروبِ يسيلُ في الصَدْعِ

الطويلِ، وما يُقالُ له دمي سَرَيانُ نفطٍ أصفرٍ – كلُّ الغروبِ غروبُنا.

كلُّ الغروبِ غروبُ هذا الوجهِ.

وجهُ

مـن سـديمٍ أصفـرٍ يطفـو علـى

التكوين. وجهي أصفرُ مثل الدماءِ أنا الدماءُ تكسّرَتْ كالبرق. وجهٌ

دامِسٌ يطفو على زَبَدٍ من التيجان: نعشٌ كـلُّ بيتٍ، أصفرُ كالبرق

تكسرُهُ الدماءُ، وكلُّ بيتٍ قصّةٌ تأوي إلى البرْدِ الطويلِ،

وكلُّ

بيتٍ

هجرةٌ...

جسدي دمي، وأنا الدماءُ تكسّرت كالبرق. تاجٌ فوق

زَفْراتِ الرمادِ يعَبّئُ الزَفَراتِ. تاجٌ فوق أنسِجةِ الصدى. تاجٌ على الدم

واليتامى وانطفاءِ البائسينَ لتفصلَ الدنيا عن الدنيا بقيّتَها. سلامٌ، يا

طَحالِبُ، لا يكون سوى انكسار البحرِ فـوقَ هدوئـكِ المجنـونِ. تـاجٌ

وانطفاءُ مَحاجِرٍ. تاجٌ ويخترقُ المرارة كلُّ مَملوكٍ.

دمي جسدٌ،

ووجهي ليس من بين الوجوهِ. أنا الدمـاءُ تكسّـرَتْ

كالبرقِ: هذي هجرةٌ أولى، وأخرى، ثمَّ أخرى... أيُّها التكويـنُ مـن

صدإٍ ومن خِرَقٍ ومن

كلِّ

النعـوشِ تجمّعَـتْ في الصـبرِ وانفجـرتْ. يُـــها

التكوينُ، لُمَّ الأصفرَ الداجـي وعَبِّئْـهُ بجـوعِ التائـهينَ وبانكسـاراتِ

الرغيفِ، ويا اصفِراراتِ الجِياعِ، تَجَمَّعي.

جسدي دمي،

ودمايَ ليست كالدماءْ.

يمشي عليَّ الأصفرُ المسكونُ

بالحِسِّ الهبَاءْ.

صمتٌ على جسدي

وصمتٌ في دمي...

والصمـتُ في وجـهِ الـترابِ قصيـدةٌ مـن كـلّ دمـعِ

الضائعينَ. رأيـتُ وجـهي: كـانَ كـالقرصِ المسطّحِ: لا ملامِحَ. كـانَ

وجهي دائريًّا من نحاسٍ ألتقي فيهِ انقياديَ للعروشِ، وألتقـي فيـهِ

مصيري. هجـرةٌ أخـرى، وأستجدي الـترابَ ترابَـهُ. تـاجٌ أمـامَ

محاجِري. تاجٌ في الفضاءِ يطـرّزُ الأكـوانَ بالتيجـانِ. تـاجٌ مـن دمـوعِ

الكادِحينَ ومن رغيفِ الأشقياءِ. ترابُنا مُتَشَقِّقٌ، والصخرُ يرقدُ في العيونِ.

هنا

دمي

ودمايَ كلّ التائهينَ. هنا دمي. كانت تراجيعُ الصدى مُدُنًا، وكنتُ على اصطكاكِ النَهْبِ أنتَهِبُ التِهاباتِ الأسى وأهيلُ فوق الهولِ صوتي. كان نَهبي واسعًا يمتدُّ أوسعَ من بكاءِ اللهِ، أوسعَ من نشيجِ الأرضِ، أوسعَ من فضاءِ القهرِ في هذا المدى الملتمّ كالحجرِ الغبيِّ. أمرُّ في نَهبي وأعرضُ كلَّ تاريخِ اليتامى، أرتدي صمتي وصبري. أسمعُ التاريخَ يغرقُ في فِلِزِّ الكونِ. أسمعُ شَهْقَةَ الزمنِ الكسيرِ: دمي جسدي، وصمتٌ في دمي.

جسدي المدى،

ومدايَ منقفلٌ على الصمتِ العجيبْ.

يمشي إليَّ الأصفرُ المسكونُ

بالحسّ الرهيبْ.

نهرٌ يميلُ عليَّ، يحضنُني بأوراق الكآبةِ، يجمعُ الوَرَقَ المُجَمَّعَ فوقَ وجهي (أو تُراهُ لَمَّ لي وجهي؟) وأعمارٌ تَميعُ... تميعُ في الورَقِ المُبَلَّلِ بالصدى، والأصفرُ الداجي إليَّ يسيرُ. يهجرني دمي. يمتدُّ أصفرُهُ عيونًا، مُلتَقى، ومراحلاً للعمرِ. يحضنُني ويرقدُ حولَ وجهي. يحضنُ الآفاقَ، يحضنُ كلَّ ما في القلبِ والأذهانِ من طُرُقٍ ويهوي

أصفرًا

في

أصفرٍ،

تشتاقُهُ الكلماتُ واللَفَتاتُ والجسدُ المكوَّمُ في الزمانِ المستحيلِ، ويستفيقُ الأصفرُ الآتي من الفَلَواتِ، يختصرُ المدى.

تصفرُّ أعضائي،

ويصفرُّ الدمُ المَهزومُ في جسدٍ،

ويصفرّ الصدى...

٢ – الأبيض:

يبدأ الأبيضُ المزدَهي رحلةَ الموتِ،

يلتمُّ في الوقتِ والطُرُقاتِ وصوتِ السكونِ الذي لا

يهبُّ... هَوَت هَمَساتُ الشتاءِ الثقيلاتُ. وجهٌ وكلُّ الجليدِ انتهى

فيهِ. وجهٌ وكلُّ العروش انتهَتْ فيهِ. وجهٌ على الأبيض الليِّن انتهَتِ

الأرضُ فيهِ. يلمُّ المدى وجهَهُ – وجهُهُ منزلٌ لجليدِ الشرايين، أو

قبّةٌ لسواقي النجومِ التي لا تهزُّ...

غبارٌ من الأبيضِ المستكينِ ثقيلٌ، يلفُّ الصُوَرْ،

والفضاءُ انعكاسُ الصدى والحجرْ،

والمدى

وجهُهُ يسكنُ الأبيضَ المزدهي في شراييننا: كلُّ

شيءٍ خواءٌ وكلُّ البيوتِ تجمّعنَ في الأبيضِ المزدهي وانتحرْنَ...

تُوَدِّعُنا الشمسُ والهذيانُ الذي يقرأ الشمسَ دِفْئًا فدفئًا. يودِّعُنا الموجُ

والغضبُ المستقرُّ على زَبَدِ الصوتِ. كلُّ البيوتِ تجمّعنَ في الأبيض

المزدهي وانتحَرْنَ... بياضٌ كوجهِ الغيابِ البتول. بياضٌ كزَعْقِ

السكونِ العميقِ. بياضٌ على عِصمةِ الفجرِ والأفقِ المتلاشي بصمتِ

النُضار. بياضٌ وكلُّ الوجوهِ بياضٌ، وكلُّ المدى وطنٌ لجليدِ البياضِ –

تقول الشوارعُ: "واحاتُنا صورةٌ

لجليدِ الزمانِ الجديدِ." تقول الشوارعُ: "هذي خطانا

تغيب على أبيضٍ من حجرْ."

تقول الشوارعُ:

"فاض الصدى

وارتدى قُبّةً من ضجَرْ."

تقول الشوارعُ: "هذي الخطى دخنةٌ ضيَّعَتْ أفقَها.

كيف ينتحرُ الموجُ فوقَ الصخور، وتنتحرُ الطيرُ عبرَ الرحيل،

وينتحرُ الرَبْرَبُ المتدافعُ طوعًا؟ ولكنّه الزمنُ المستديمُ الذي يتكثّف

فوق انتحاراتِنا، يتناثر فيها شظايا، رمادًا يُلَفِّعُ وجهَ السماءِ."

تقول الشوارعُ: "هذي خطانا غرِقْنَ برملِ المدى،

والمدى بيدُ ثلجٍ تَمَدَّدَ فوق العيونِ وفوق الرؤى في البيوت المُشَظّاةِ

بالرعبِ، في القلب وهْوَ يجمّعُ بينَ الجموعِ تجاعيدَهُ ويجورُ، يغور

برملِ الثلوجِ البطيئةِ. كنّا جموعًا يُكَفِّنُنا الثلجُ بينَ الثلوج الهَديمةِ،

بين الهزيمةِ والمستحيل."

تقول الشوارعُ: "ما زالتِ الأرضُ صخرًا!"

(أيخترقُ الصخرُ خُرْمَ السماءِ؟) تقولُ الثغورُ: "يهبُّ الصدى كلّما

اشتعلَ الخطوُ بالثلجِ. تُقعي جِمالُ الرطوبةِ تحتَ سمـاءِ الحديدِ المُداهِمِ – لا شيءَ إلاّ المدى... لا مدى غيرَ هذي الثلوجِ البليدةِ... لا قلبَ إلاّ دخانَ البياض...

يقولُ الغبارُ: "تجمّعتُ في قُمقُمِ الأرضِ وانحبَسْتُ عنّيَ الخَطَواتُ؛ انحبَسْتُ"، يقولُ الغبارُ، ويحترفُ الصمتَ حتّى انتحاراتِهِ.

بَصَقَ الأفْقُ ثلجًا، وكفّنَ ثانيةً وجهَهُ بالتراب.

ترامَتْ نِداءاتُهُ في الفراغِ. تسارَعَتِ الأرضُ نحوَ انهياراتِها: سَيِّدُ صيّرَ الشعبَ أحذيةً ونِعالاً، مَماليكُ تحترفُ الحُكمَ، تَرقعُ وجهَ المدى بالنِعالْ.

كيفَ نصنعُ مِن لُجّةِ الثلجِ زَنْدَ رجالْ؟

إنّه العصرُ:

لا شيءَ فوقَ البروجِ سوى الأحذيَهْ!

إنّه العصرُ

لا شيءَ فوقَ العروشِ سوى الأقْفِيَهْ!

إنّهُ العصرُ: لا شيءَ فيهِ سوى الثلجِ والمستحيلِ وهولِ الصدى. لا يُفيقُ سوى النار والنارُ مُثْلِجَةٌ. زَمَنٌ مُلْتَحٍ يصنعُ النومَ والشِعرَ والشاعرَ المُنْضوي في لُفافةِ تَبغٍ يَمُجّ بها الموتَ حتّى العظامِ. هوَ العصرُ صمتٌ طويلٌ،

طويـــ... يـــ ...لٌ... رَفَتْهُ البَلادةُ حتّى العظامِ.

ولا شيءَ إلاّ مَماليكُ تحترِف الحُكمَ والرَقْعَ، تجعلُ عزمَ الجِهادِ نِعالْ –

كيف نصنعُ من لجّةِ الثلجِ زَندَ رجالْ؟

تنامُ الطلولُ على الأبيضِ المزدَهي. يفتحُ الطَلَلُ المَيْتُ أطباعَهُ في ضميرِ المدى... يَغْرقُ الطلَلُ المَيْتُ في الأبيضِ المزدهي – نغرقُ. أُلوَقتُ ثلجٌ

وكلُّ التراجيعِ ثلجٌ،

وكلُّ العيونِ ثلوجٌ... ثلوجْ...

يرفعُ الليلُ حولَ أبراجِنا حَرَسًا وبُروجْ...

يصدأ الوقتُ... لا شيءَ إلاّ البرودة... لا شيءَ إلاّ لهاثَ المساكينِ والصمتِ... لا شيءَ إلاّ بيوتًا يُزَنّرها القَهْرُ والحُلُمُ المستحيلُ،

وكلُّ التراجيعِ ثلجٌ،

وكلُّ العيونِ ثلوجٌ وَبالْ.

كيف نصنعُ من لجّةِ الثلجِ زَنْدَ رجالْ؟

٣ – الأخضر:

ينمو عليّ الأخضرُ المَسكونُ باللهيبْ.

علامةٌ: وَمْضٌ يجيءُ من قرارةِ الرؤى. ومضٌ يُسارعُ الخطى إلى المدى الفسيحِ – ومْضٌ أخضرٌ على المدى المخضرِّ. تفتحُ السماءُ عينَها وتفتحُ النجومُ في الغيومِ كوّة من الرؤى على علامةِ المجيءِ. تكشطُ الخطى البَياضَ والثلوجَ، يكشطُ البخارُ عَتْمَةَ الضميرِ (كانتِ الأشياءُ زَهرةً

أو

حقلَ أنجمٍ على ولادةِ اللونِ.)

علامةٌ: هنا الدروبُ تنحني على الخطى. هنا الدروبُ لَيلَكٌ وقارّةٌ من البراعمِ. أرتَميتُ في المدى. كانت يدايَ تغسلانِ الثلجَ عن تَفَتُّحِ الوردِ. أرتِماءةٌ ويَنبتُ الحشيشُ، تلتقي السنابلُ الخضراءُ. تستفيقُ قارّةُ البراعمِ: ألسماءُ كوّنت غيومَها واشتَبكتْ بالأفقِ (كانتِ الأشياءُ حقلَ أنجمٍ على ولادةِ اللونِ). علامةٌ ويفتحُ السديمُ جفنَهُ، ينسكبُ الأثيرُ في كفّيهِ.

أخضرٌ يغورُ في العروقِ،

أخضرُ يلاحقُ الخُطى إلى بَشائرِ الطريقِ،

أخضرُ على العيونِ يمسحُ الجبينَ بالندى ويلتوي على ملامحِ الشروقِ،

أخضرُ على الجبينِ،

أخضرُ على انفتاحةِ اللهاثِ،

أخضرُ على ملامحِ الزمانِ (والزمانُ يبدأ التأويلَ من بدايةِ الفجرِ إلى...

بدايةِ اللهاثِ.)

تقرأ الثمارُ رغبةَ الترابِ، يقرأ الترابُ شهوة الثمارِ. أخضرُ على مَشيمَةِ الأشياءِ، أخضرُ على الترابِ والرمادِ والصخورِ (ليسَ طُحْلَبًا ولا رطوبةً، لكنّه يَهُلُّ ماؤهُ على المدى...) وفي استدارةِ الآفاقِ كالنُهودِ، في انفراجِها كأنها تَشهَقُ من شَهوَتِها إلى المدى ينبَسطُ التأويلُ – إنها الغَرابةُ المُضيئةُ:

المَدى يُساكِنُ الصهيلَ؛

أخضرُ على الصهيلِ،

أخضرُ على استدارةِ النهودِ،

أخضرُ على صهيلِ الشهوةِ الخضراءِ.

إنّها علامةُ البدايةِ الخضراءِ، أو

بدايةُ التأويلِ.

إنّها تداخُلُ الأشياءِ. كلُّ ما يرتعِشُ

يدخلُ في ولادةِ النُسْغِ

وفي انفجارِ الشهوةِ المجنونِ،

والصدى ينفلِشُ.

يدٌ على يدٍ، وأخضرُ في كلِّ ومضَةٍ مجنونةٍ،

وقارّةٌ تَنْكَمِشُ،

ويولدُ العُمرُ الشَبوبُ في المدى الفسيحِ أخضَرًا،

مَسيلُهُ يقرأ في مَسارِهِ السديمَ، ينسجُ التأويلَ: نبعُ أنجُمٍ يمرُّ في عُصارةِ الأشياءِ. زورقٌ من الصهيلِ يمسحُ الرمادَ عن تَفَتُّحِ البراعمِ. الغَرابةُ الخضراءُ في طريقِها إلى اللهيبِ،

أخضرُ في النورِ،

أخضرُ على النجومِ والشموسِ،

أخضرُ على انفجارِ شهوةِ الترابِ،

أخضرُ على اليَبابِ،

أخضرُ على الخَرابِ،

أخضرٌ في كلِّ رعشةٍ من اختِلاجةِ العذابِ،

هـهنا يحـترفُ الأديـمُ عـادةَ الهبـوبِ: كـلُّ برعـمٍ مدينةٌ جديدةٌ، كلُّ وُريقـةٍ مـدًى... تُعـاودُ البيـوتُ رحلـةَ الحيـاةِ، تنشلُ الأحلامُ غصّةَ القلوبِ. ههنا بقيّةُ العروشِ والممالِكِ التي تكـوّمُ الثلوجَ. ههنا يحاولُ الزمانُ أن يصيرَ صَهلَةً في يَقْظَةِ الزنودِ (تخـرجُ البيوتُ من كهوفِها إليَّ، يخرجُ العذابُ من غيابِهِ إليَّ، تخرجُ الأشياءُ من ثلوجِها إليَّ –

صرتُ شاعِرًا

أشياؤهُ ليستْ لهُ،

مَداهُ يعشقُ الخرابَ واللهيبَ،

عمرُهُ يطيرُ خارجَ الأعمارِ.)

كان بينَ وجهي والبقيّةِ التي تُؤَوِّلُ الأشياءَ نبعٌ من بُخارٍ. كانَ في الزمانِ هاجِسٌ مُخضَرَّةٌ عَيناهُ، أو

غرابةُ البدايةِ المُضيئةِ.

ألرَغيفُ أخضرٌ،

والبيتُ أخضرٌ،

وصوتيَ الشَبوبُ أخضرٌ،

وفي مدايَ أفُقٌ وعاصِفٌ عجيبْ –

ينمو عليَّ الأخضرُ المَسكونُ باللهيبْ...

٤ – الأحمر :

يلتَهبُ الأحمرُ فيَّ ويلْغُمُ أعصابَ الطُرُقاتْ...

قَبَسٌ يتقافَزُ في رَقَصاتِ الزمنِ القافِزِ،

والنصُّ مَطارقُ تَنبضُ في الرَعَشاتْ.

زمنٌ... وسلامُ التاريخِ يُهاجِرُ في الزمنِ المُتَطايرِ. كلُّ جِهاتِ الأرضِ التَمَّتْ في جهَةٍ، ورمادُ الأشياءِ التَهَبَ. التَهَبَ النومُ، التَهَبَ القلبُ –

يمرُّ الأحمرُ كالصاعقةِ المجنونةِ، يغزلُ في الطُرُقاتِ دماءً، ويشُجُّ القدَرَ المَوْبوءَ. يمرُّ الأحمرُ كاللغمِ وينسف أطباقَ التاريخِ. يمرُّ كذاكرةٍ تتفجّرُ تحتَ الأعصابِ:

غبارٌ كلُّ بطاركةِ الحقدِ،

غبارٌ كلُّ ضميرٍ مَمسوخٍ...

وغبارٌ يَدّافَعُ في العَصَبِ المجنونِ –

يمرُّ الأحمرُ كالعَصَبِ الطافِرِ. يصهَلُ في وَعرِ الزمنِ البكرِ. يمرُّ فيَلْتَهبُ الزمنُ...

يتدافَعُ نَبْضُ الأرضِ

وينبعثُ الكَفَنُ،

ويمرُّ الأحمرُ في خاطِرَةِ التاريخِ. تحرَّكَتِ الأكوانُ؛ تدافَعَ في السِمْتِ صباحٌ وَولاداتٌ، وانفجرَ الوَسَنُ:

أحصِنةُ الفجرِ تدوسُ بحافِرِها الموتَ. لهيبٌ يغزو قلبَ الأشياءِ. لهيبٌ يتصاعدُ من فسْخِ التكوينِ. لهيبٌ يتناسَلُ في نَبَضاتِ العِرْقِ. لهيبٌ يَتَبَرَّكُ بالسَّحْقِ وبالتدميرِ –

هنا اللهَبُ

يغتَصِبُ الأرضَ كأنثى.

وهنا الغَضَبُ

راياتٌ تتألَّقُ في التاريخِ البكرِ. هَباءٌ يتكاثرُ فوقَ الأشياءِ ويُحرِقُها، وهَباءٌ يتناثرُ من شِقِّ الدنيا. أحمرُ في نَبَضاتِ العِرْقِ الأحمرِ. أحمرُ في زَلْزَلَةِ الدنيا. أحمرُ في العَصَبِ

يمسحُ خَدَّ التكوينِ بزوبَعَةِ الغَسْلِ الأولى.

أحمرُ في الغَضَبِ

ينسلُّ من أحلامِ الشعبِ هُتافَ الحِقَبِ.

أحمرُ من لَهَبِ

ينبضُ في قلبِ اللهَبِ...

مَضَتِ الدنيا في حقلِ الرَعَشاتِ - مَغيبٌ وصباحٌ،
ولِقاءاتٌ بينَ الأرضِ ولَمْساتِ الريحِ؛ مَساءاتٌ من عُشقٍ، ولهيبٌ
يتناسلُ في عينيَّ وفي قلبي. يمضي النصُّ إلى النصِّ، ويفتحُ جمجمةَ
التاريخِ المُدْمِنِ ذاكِرةً تتنفَّسُ رَقْصاتِ الرفضِ.

أمُرُّ كصاعقةٍ

ويدايَ تُحيلانِ الأصفرَ أنهارًا،

وتُحيلانِ الأبيضَ نارًا...

ويدايَ سيولُ الشِعرِ تُطَرِّزُ فجرَ التكوينِ -

أنا اللهَبُ المُتدافِعُ في قلبِ صَباحاتِ التغييرِ،

أنا النارُ،

أنا العَصفُ المَمنوعُ،

أنا الماضي والحاضرُ والآتي

وجميعُ مَساءاتِ الكونِ،

أنا اللهَبُ،

وأنا الطَعنةُ في أقصى الأرضِ تُقيمُ العالمَ من نَتْنِ
الزمنِ المُرِّ،

أنا الغَضَبُ،

وأنا التاريخُ إذا امتدَّ التاريخُ إلى القلبِ وصارَ القلبُ
حقولاً لِحضاراتِ النارِ،

أنا الغَضَبُ

يتوتَّرُ بينَ الأقصى والأقصى

ويُفجّرُ قلبَ الأرضِ

ويلتَهِبُ...

وأنا الرقصُ الممنوعُ أغيّرُ شكلَ الأشكالِ وأصنعُ
أشكالاً أخرى، وأحوّلُ نَبْضَ الأحمرِ سِمْتًا من لَهَبٍ ولظًى...

ترقصُ أجزاءُ اللونِ ويرقصُ هذا الشعبُ الخارجُ من
تِيهِ السلطةِ؛ ترقصُ كلُّ الأنقاضِ وتخضرُّ؛ ويرقص هذا الوطنُ
الممنوعُ على أشلاءِ القَهرِ، ويفترق الزمنُ.

ينشقُّ الجِلْدُ عن الجِلْدِ،

وترقص أنسجةِ العَظْمِ،

وتَخضَرُّ الدِمَنُ...

رقَصوا رقصوا رقصوا رقصوكْ –

وَلَهُ الآتي يخرج من شَبَقِ الحاضرِ. نارٌ. أشرِعةٌ من لَهَبٍ، ورمادٌ مُلتَهِبٌ...

رقصوا رقصوا رقصوا رقصوكْ –

يَتُها الجِهةُ الأكثرُ عصْفًا، صَهَلَ العصَبُ الناهِضُ فيكَ وهبَّ الغضَبُ المُستَعِرُ...

زَعَقَ الفجرُ على قِمَمِ التاريخِ

ولوّحَ أرضًا تكشطُ جِلْدَ الليلِ

وتنفجرُ...

رقصوا رقصوا رقصوا رقصوكْ،

وبفَجْرِ اللونِ، بعيدِ اللونِ رمَوكْ –

قدَرٌ يتناثرُ فيكَ شَظايا،

وَهْمٌ يتَبَدَّدُ بينَ مرايا،

رملٌ يُغرِقُ عجزَ قَضايا

تتنفّسُ أسمالَ الزمنِ المَنهوكْ –

رقصوا رقصوا رقصوا رقصوكْ:

ألبرقُ يُشَرِّعُ وجهَ الفجرِ ويلتهبُ

واللونُ يُكَلِّلُ عِشْقَ الأرضِ ويلتهبُ

والآتي طَفَراتٌ تتجمّعُ فيكَ وتلتَهبُ.

رقصوا رقصوا رقصوا رقصوكْ...

يا سيفَ الغَضَبِ المَسلولَ على الدنيا،

يا ألآتي من وجَعِ الأحلامِ

ومن قَهرِ الشعبِ الرافِضِ،

يا تاريخَ الشمسِ

وأحلامَ الأبَدِيَّهْ،

يا رقصًا فوق نِصالِ الوجعِ القاتِلِ،

يا قبلةَ شمسٍ وَحشيَّهْ،

رُدَّ التاريخَ إلى التاريخِ

وشرِّعْ قصفَ الزَلزَلَةِ الكونيَّهْ،

وكنِ الآتيَ،

كن ما يعجزُ عنهُ الوقتُ،

وكن فجرَ الصحوِ البكرِ على عينِ الإنسانِ المقهور،

يُها الخارجُ من دمِهِ المَسفوكْ –
رقصوا رقصوا رقصوا رقصوكْ.
حَمَلَتْكَ الصاعقةُ الأولى... حملوكْ...
وبقصفِ الرعدِ، بلونِ دِمانا جَبَلوكْ...

غَضَبٌ...
ويصير الآتي
زَلزَلَةً تجتاحُ الإنسانْ...

غضبٌ...
ويصيرُ الآتي
شمسًا تُشرقُ من لبنانْ...

(آب / كانون الثاني – ١٩٩٢)

المجموعة العاشرة:

كتاب المراثي

المرثاة الأولى:

قصيدة المتنبي الأخيرة

مطلع: هذه القصيدة أنشدها المتنبّي بعد أكثر من ألف عام على وفاته، حين رأى أن ينبعث فانبعث، ولكن هذه المرة في غير العراق. وكانت الألفُ الأعوامُ بطيئةً جدًا، عانى في خلالها الإحباطَ العربيَّ – وكان قد بدأ يعانيهِ قُبَيلَ موتِهِ –، واهتزّ بدنُهُ أكثر من مرة في جدَثِهِ، وغضب شديدًا. وبعد أن انبعث استُنشِدَ في موطِنِه الجديد شعرًا (من وحي المناسبة) فكانت هذه القصيدة، وهي آخر ما قاله في حياته الثانية.

إذا ثَوى برَمادِ الليلِ ما عَدِموا
فمثلُهُم جُمَّةٌ من حَولِها جُمَمُ...
وما عَدِمتُ من الزُلْفى مَطارحَها،
فَرُبَّ رَبٍّ لها ما زالَ يُحتَرَمُ،

ولا عَدِمْتُ من التَمْليقِ شاردةً،
يا سائلَ المجدِ: أينَ المجدُ يَنْتَظِمُ؟
ألخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفُني،
والسيفُ والرمحُ والقِرْطاسُ والقلَمُ...

(هذا تكرار للقريحةِ؛ ولكنْ لا بأس في أن يكرر المتنبي، وهو يرتجل الشعرَ – التطريبَ على قوم لا يعرفون سواه، ولا يحبون سواه، بَلْهَ التملُّقَ، فيغطّون في طَيَاتِ التخدير الذاتي، ولا يعودون منه إلاّ إذا استَمهَلَهم أحدٌ أن يحذروا تعرُّضَ مصالحِهم للخطر. نعم، يكرر المتنبّي قريحتَه – وهو من الأرباب الذين لا يُعدَمونَ الزُلفى – إذا تعرّضت مصالحُهُ للخطر، و...

ولكن، ما لنا وللثرثرة؟

لنكملْ قصيدةَ المتنبّي:)

صَحِبتُ نفسي وجوعًا كانَ يَنهَشُها
إلى الثراء، فلا خوفٌ ولا سَقَمُ،

ولا حـدودٌ، وعـقلٌ ليـسَ يـوقِفُهُ

عـن التَفكُّـرِ أربـابٌ ولا، ولا صَنَـمُ...

أنا الـذي حمَـلَ الأنجامَ شـامِخَةً

مـن الجبـالِ عروشًـا أرزُهـا شَـمَمُ!

(وهنا ابتسم المتنبّي لأنه ذكر الأرز، فـالأرز شجرٌ وطنيّ عريق، يفخر به أصحابُـه – والمتنبي، في هـذه القصيدة، لبنـانيّ، فكيف لا يفخر بالأرز؟ – على قلّة ما كان المتنبّـي (وسواه) يتعلّق بأرضه، ولو أظهر العكس... ولكنْ، ما لَنا ولِكلّ هذا؟ لِنكمل:)

إنْ قُلْتُ ما قُلتُ فالأجيالُ مُصغِيـةٌ،

وإنْ صَمَـتُّ فَصَمـتُ حَفَّـهُ الصَمَـمُ.

حملْتُ حرفي، ودرْتُ الكونَ مُنتَزِعًا

مـن التنـانين نابًـا دونَـهُ الهِمَـمُ...

يا سـاقِيَّ، إذا ما رُمْـتُ خَمركُما

سَقتْنيَ الشمسُ مـن قَرنـينِ والنُجُـمُ...

(لاحظوا كيف حذف المتنبي الواو مـن "والنجـوم" ببراعـة لغويّة، أو عدّل الجمع فصارت: "والنُجُم"، وهذا من فصاحة وحذق في اختيار مفردات النظم.)

وليسَ تروينيَ الأنـوارُ إن عَطِشَـتْ

إلى المنـى النفسُ، أو طـابت لهـا القِمَـمُ.

(أتلاحظون كيف أن المتنبّي استعمل هنا "النفس"، وكان قد استعمل "الجِرِشّى" في مكان آخر، وذلك رفقًا بالفصاحةِ و... بالأذُنِ أيضًا؟)

وليسَ تكفينيَ النَجْمـاتُ أقطفُهـا

ويُقطَـفُ الخُلْـدُ كالأثمـار والشِـيَمُ.

أنا الذي بيَساري الشمسَ غُرَّتَها

حَبَوتُـها، ويميـني دونَـها الكـرَمُ؛

أنا المُقيـمُ مـن الراموسِ جيفتَـهُ

أنـا الثريّـا، وذانِ الشَـيْبُ والهَـرَمُ؛

أنا الـ.....

..... والأمَـمُ.

(وهنا احتقنت أوداج المتنبي، واحمرّ، احمـرّ... وارتفعت نبرة صوته، ولم يَعُدْ بخِفّي حُنَـين - لأنّ "حُنَينًـا" غـاب منـذ مـدّة طويلة، فلم يجد المتنبي خفّيه -، وهَبّ الحُمَيّا، فـراح يكـرّر: أنـا الـ...، أنا الـ...، وهو ينتفِخ، حتّى انفجر: بووووم! مُحدِثـا دويًّـا فظيعًا!)

وما عَدِمْـتُ مـن الزُلْفى مَطارحَها،

فـرُبَّ رَبٍّ لهـا مـا زالُ يُحـتَرَمُ.

(أوجَدتُـم غريبًـا أن يكـو ن المتنـبي لبنانيًّـا، أو أن يكـون اللبنانيُّ مُتَنَبِّئِيًّا؟)

المرثاة الثانية:

معلّقة عمرو بن كلثوم الثانية

مقدمة: قيلَ إنّ عمرَ بنَ كلثوم أنشد معلّقةً بعدَ حياة ثانيةَ لا تختلـف عـن سابقاتِها في جوهرهـا. وكـان شـاعرُنا، في حياتـه الجديـدة، فَحْـلاً مـن فحـول الأمّـة العربيّـة العتيـدة، وفارسًـا مـن الطِراز الرفيع، عانى مصيرَ العـربِ القوميّ، وخطبَ فيـهم مِـرارًا وتكِرَّة، وصالَ وجال، بل شرب معهم كأسَ النصر - أعتـى منـها في المـرة الأولى - حتـى الثمالـة! غـيرَ أنّـه، شَـفَّ عـن ملامحَ عربيّـة رفيعة، وإمكاناتٍ ممتازة كحاكم...

سَـلوا عنّا الصَـوارمَ والطَعينـا،

وبكْـرًا والأعـاربَ أجمعينـا،

فإنّـا ليـسَ تُـدْركُنـا المَنـايـا،

ونُرسِـلُ مـن صَوارمِنـا المَنونـا.

يَظَلُّ عَديدُنا شَـمْخًا وسَـمْقًا،

فتنكسِـــرُ المُنـــى لِمُقَدَّرينـــا.

إذا ما الشَـمْسُ لَوَّحَتِ الثرَيّا

قطَفناهـــا، فَزَيَّنَـــتِ الجَبينـــا.

(هكذا كان عمرو بن كلثوم، في هذه المعلّقة الثانيـة، يتكلّم على اقتطاف الشمس للزينة – لأنّ الشمس أنثى تَحيض كالنساء – معَ أنها تُسَبِّب جفافَ الصحراء، وتفتك بالتائهين في الفيافي... ولكنْ، لِنعدْ إلى المعلّقة:)

وأطلالٍ بَنيناها، وعُدْنا

إليها اليومَ نبكي التائـهينا –

رمالُ الريحِ أخْفَتها، وأبقتْ

على رَسمٍ لها يُبكي العيونـا.

كأنَّ عُـروبةً دَثَرتْ وعـادتْ،

وأعرابًـا عِتاقًـا عائدونـا...

(قد يتساءل المرء: ما علاقة الأطلال والبكاء عليها بـالعرب والعروبة؟ ولكن، لا بَدعَ، فالعرب كانت الأطلال من تراث شعرهم، بدوًا وحضرًا، فما المانع من الجمع بين السياسة والأطلال ؟ ولا سيما أن للأطلال شخصياتها الجامدة من نؤي وأثافيّ وأوتاد... وغير ذلك. على أنّ الثرثرة لا محلَّ لها هنا؛ لِنَعُدْ إلى المعلّقة:)

ونُـؤْيٍ حَفّها قَمَـرٌ بَليـدٌ،

تَمَطّى في السماء، وكاشحونا،

وأشـرافٍ كرامٍ خيـرِ قـومٍ

مـن العربـانِ مُـرْدٍ، مُصلِتينـا...

(هكـذا عدنـا إلى موضوعنـا الرئيس: الفخـر، والضـرب، والطعن، و"المُواقَعة"، و"أمّهات المعارك" في القرن العشرين... وغيرِ ذلك مِمّا سنتطرّق إليه من شؤون وشجون...)

صَبَغْنا القَومَ في الأهوالِ رُعْبًا

ونَصفَـحُ عَنهُـمُ أيّـانَ شِـينا.

وقَـعْـقَـعَـةٍ تُوَقِّعُـهـا قَـنانـا،

وتَعْقِـدُ وَقعَـها الأقـدارُ حينـا.

(كيف وجدتم جِـرْسَ هـذا البيـت وائتِـلافَ لفظـه ومعانيه؟ لقد تعَمّدَ عمرو تكرار القافات والعيون لَمّا كـانت العيـون ترمُقـه وهـو ينشـد المعلّقـة – حتّـى لفظـة "مُعلّقـة" تحتـوي هذيـن الحرفين – وهدفُه من كلّ هذا أن يدبّ الرعب في الخصم بعد سماعه المعلّقة الخطابيّة... ولكنْ، لِنُكملْ:)

فَلَمّا أنْ أتانـا الغَـرْبُ وَحْشًـا

يُكَشِّـرُ نابَـه عُصَبًـا، ثبينـا،

وتَحْشِـدُ فيـهِ إسرائيـلُ كُفرًا

وعَربـدَةً، فَمَنـذا يَتّقونـا؟

حَمَلْنـا حَمْلَـةً كبـرى عليهـم

وقارَعنـا القنـا والقادِمينـا:

كأنّ جَماجِـمَ الأبطالِ فيهـم

وُسـوقٌ بالأمـاعِزِ يرتَمينـا

(لم يكرّر عمرو هذا البيت إلا لِوُلوعِهِ بالمشاهد الدموية التي تصاحب المواقف الملحميّة – وطَرْدُ الغَربِ ههنا، ومُصارعةُ إسرائيل من كَفَرةٍ وعُمَلاء هو الموقف الملحميّ المَنشود – وإنْ إنشادًا، أعني شِعرًا وخَيالاً –. ولكنْ لِنُكمِلْ، فالمعلّقةُ طويلة:)

وأنـزَلْنـا المُحيـطَ إلى خَليـجٍ

لنجمـعَ شَـمْلَنا مُسـتَعربينا –

ملأنـا البرَّ حتـى ضاقَ عنّـا،

وظَـهْرُ البحـرِ نملأهُ سَـفينا؛

إذا بلَـغَ الفِطـامَ لنـا صَبـيٌّ

تخـرُّ لـه الجَبـابرُ ساجِدينا!

(وعندما وصل عمرو إلى هذا البيت تذكَر ما قـال في معلّقتـه السابقة، فجاشت نفسه، وفاض دمعُه على خدّيـه حتّـى بَـلّ نَحـرَه

ومحمَلَه – على نحوِ ما قال أحدهم – وانعقد لِسانُه، فتوقّف عن الإنشاد: عذرًا، عذرًا، أيّها المستمعون، سنتوقّف هنا، ولن يُكمِلَ عمرو المعلّقة، لا لِعَجز منه، ولا لأنّ القوافيَ تَعصاه، بل لأنّ زلزالَ العاطفة جمحَ بشاعرِنا، فكسر عنقَه...! وظلّ صدى البيتين في هوّةِ التاريخ يتردّد:)

وقَعْقَعَةٍ تُوَقِّعُها قَنانا،
وتعقُدُ وَقعَها الأقدارُ حينا.
ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا،
فنجهلَ فوق جَهلِ الجاهِلينا...

(أمِنَ المدهشِ أن يَجنحَ شاعِرُنا، مُمَثِّلُ العروبة والفروسيّةِ، ويكسرَ عنُقَه؟!)

استطراد:

وأبياتٍ مَفازاتٍ رمالٍ
قَرَضْناها، وخَدّرْنا العَذابا،
فلا، يا أمَّ عَمرٍو، تسألينا،

(كيف رأيتم فصل "لا" الناهية عن الفعل المضارع المجزوم في هذا الشطر الشعريّ الجديد؟ إنّها حَذْلَقَةٌ لُغَويَّةٌ – والشعبُ العرَبيُّ يسكن في اللغة قبل أن يسكن في أيّ مكان آخر، ويتخدّرُ بالكلام – والخَطابةِ طبعًا – قبل أن ينتشيَ بأيّ شيءٍ آخر...)

لأنّ الشِعرَ يَستَرِقُ اللِبابا.
فنحنُ رؤوسُنا حُشِيَتْ هَباءً،
ونحن جسومُنا مُلِئَتْ تِبابا،
وتُهْنا في مَتاهِ القولِ، تُهنا،
وأهْمَلنا الهُدى وقد استَطابا.

(ألا تلاحظون في هذا البيت هَدْرًا كبيرًا للنَفَس؟ اتركوه، ولْنَنْتَقِلْ إلى سِواه - عذرًا على الآه، أعني حرف الهاء، في الكلمات!)

بَنَيْنا من رمالِ البيدِ بُرْجًا
صَدًى، فإذا بهِ يغدو سَرابا،
ويسقطُ فوقَ عالَمِنا، وتَهوي
مُنانا في شظايانا تُرابا...

(أفٌّ من هذه القصيدة التي لا تنتهي! عذرًا، سنتوقّف عند هذا البيت، ونكتفي بما أنشدنا حتى الآن، ترويحًا عن النفس، كيلا تَأسى نفوس السامعين وتملّ - ولعلّها ملّت - فالقصائد العربية لا تنتهي، وموضوعات الفخر بحر ليس له قرار، والواقع العربيّ كالليل المديد، تسكنه الغيلان والسَعالي، وتفتك فيه الضِباع، وتضلُّ فيه النفوس صِراطَها المستقيم، وتصرُّفَها المستقيم، وواقِعَها المستقيم...)

المرثاة الثالثة:

عودة تأبّط شرًّا

مقدّمة: يُروى أنّ تأبّط شرًّا قد صارَع الغولَ في إحدى قصائدِهِ وصرَعَها بعد عِراكٍ رهيب، وربّما صارَعَها في غير قصيدةٍ وصَرَعها. ولكنّه بعد مرور ألفٍ من الأعوام وأربعمئةٍ ونيِّفٍ، تذكّر هذا الصراعَ في جَدَثِه، فاهتزّت نفسه، وشاقَه الحنين إليه، وإلى رؤية الغول، وذِكرِها، ووصفِها، وقِتالِها، وقَتْلِها... فاهتزّ بدَنُهُ، وتململَت عِظامُهُ، والتَمَّ عليهِ ما بَلِيَ من جسدِه وعائتْ فيهِ الديدان، فانبعثَ إنسانًا سَويًّا، من جديد، عَرَبيًّا طبعًا، شَهْمَ الطبْع، فارسًا مِقدامًا، لا تخيفه غولٌ ولا سِعلاة، ولا جنٌّ ولا إنسٌ...

وعاد شاعرُنا شاعرًا مُجَلِّيًا، وفَحْلاً جاهِلِيًّا، ولكنّه، إذْ أنكِرَ عنه الخَلْع، وطَوَّبَ نفسَه هذه المرّةَ في قبيلته بطلاً صِنديدًا، وقَبًّا مِسعارًا في الحرب، مِهمازًا لِلمَطايا، لم يعد يُرى إليهِ صُعلوكًا وحسب، وخرج من مملكةِ الصعاليك - أضرابه السابقين - إلى بطاح البشر، وخِيام العرب، ونوقِهم، وخطَبهم، ومُقارَعاتِهم سيوفَ

الآخرين بالسيوف، ولاقى الغولَ ثانيةً، ونازَلَها شرَّ نِزال، وخَضَّبَ الفَيافي بدَمِهِ وبدمِها، وكلاهُما، على ما قال شاعرُنا، "نِضوُ أينٍ، أخو سَفَرٍ". وكانت هذه المُواقَعَةُ من خِيرَةِ مُواقَعاتِ القرنِ العشرين، وعملاً مُخَلَّدًا من أعمال القرن العشرين...

كَفاني الدهرُ شَرَّهُمُ، كَفاني،
وشَرَّدَني ببيدٍ صَحصَحانِ...
فصِرتُ، وما خُلِعتُ، على رحيلٍ
دؤوبٍ، لا هدوءَ، ولا تَواني...
وكنتُ، إذا العُروبةُ قد دَعَتْني،
قَرَضْتُ الشِعرَ، بَرّاقَ البَيانِ،
وهَبَّ السيفُ يفعَلُ في رقابٍ
كفعلِ السِحرِ في بَشَرٍ وجانِ.
أطاعِنُ ما دُعيتُ إلى الطِعانِ،
وأحترفُ البطولةَ في ثَوانِ...

(لقد كرّرَ تأبّط شرًا تصريعَه هنا زيادةً في التنغيم، لأنّ الحاجةَ تقتضي هذا، والموقف الفروسيّ يحتاج إلى ما يدعمه صوتيًّا، لذلك من الواجب شحنُ الشعرِ بالموسيقى، ورآها تأبّط شرًّا، في هذا البيت، نابعةً من تكرار الطاءات في بعض الكلمات... ولكنْ دعونا نعُدْ إلى الأبيات:)

فَمِنْ بَطَلٍ أخَضِّبُهُ نِزالاً،
ومِن قَبٍّ تَهاوى في هَوانِ...
ورُبَّ وَقيعةٍ صارتْ مِثالاً
لكلِّ وقيعةٍ عبرَ الزمانِ!

(لاحظوا كيف وزّعَ تأبّطَ شرًّا، شاعرُ النِزالات، أواخرَ الأحرف في كلٍّ من العروض والضرب بهذين البيتين. هي الموسيقى تترك انفعالاً في نفوس السامعين؛ هي الحُمَيّا تهبُّ في الشاعر عند المُواقَعَة، فيصير، في الشِعرِ طبعًا، بطلاً لا يُقارَع، نسيجَ وحدِه، يغتصبُ العالمَ كأنّه يثِبُ على عدوّ... ولكنْ، لا بأسَ، لِنُتابِعْ:)

وكنتُ أهيمُ في البَيداءِ وحدي،
وبين يديَّ مَصقولُ اليَماني
إذا بالغولِ في دربي تراءَتْ
كطيفِ الموتِ مَشقوقِ اللسانِ

(كان اللسانُ المشقوق صفةً من صفات الغول التي قضى عليها شاعرُنا ذاتَ مرّة. ويبدو أنّها ههنا لم تتغيّر – كما تغيّر شاعرُنا – بل بقيت على طبيعتها، وقد بُعِثت حيّةً، على مَرِّ الأيّام.)

تذكّرتُ الصراعَ، فَقُمْتُ أعدو
إليها، مُقْدِمًا، ثبْتَ الجِنانِ،
تَشَظّى عَينُها شَرَرًا ونارًا،
وعيني مارجٌ من أرجوانِ!
وأضربُها، وتضربُني، ونهوي
معًا في الأرض، أجهَلُ ما عَراني

ولكنّي، رَبيطَ الجَأشِ، ألْوي
بصِمصامي عليها في مَكاني:
أشقُّ عيونَها بالنَصْلِ شَقًّا،
وأتركُ جسمَها مثلَ الشِنانِ.

(ليست هذه الصورة الملحميّة من غير طائل، لأنّها تُثبت ملحميّةَ الموقف في هذه المعركةِ الضاريَة؛ وهي، ككلّ المعاركِ العربية، لا تخلو من المعاناة المُرّةِ، ومن إشراكِ الآدميّين ونواياهم في الصِراع. إنّها رقعة من رقع التاريخ العربيّ الذي هزّنا عَميقًا، وتجلّى في صوَر قد لا نُريدُها، وقد نثور عليها... ولكنْ، لِنَدَعِ الاستطرادَ جانبًا، ولْنُتابعْ:)

وأبترُ رأسَها، وأقومُ عنها،
وأتركُها مُخَضَّبَةَ الجِرانِ –
ألا مَن مُبْلِغٌ فِتيانَ فَهْمٍ
بما لاقيتُ عندَ رَحى بطانِ؟

بأنّا الحامِلـونَ المجدَ شَـمْسًـا،

وأنّـا الزارعـونَ سَـنا الأمـاني،

فنحـنُ العُرْبُ قد عَلِمَـتْ قُرَيشٌ

نخوضُ الحربَ غيلانًـا تعـاني...

(وهنـا توقّـف تـأبّط شـرًّا عـن الإنشـاد، وبكـى... بكـى... بكى... حولاً كاملاً، حتى أغرَقتْ دموعُهُ جَدَثَه، فغرق، واختنق في الدموع، ولفظَ روحَه. أجلْ، مـات تـأبّط شـرًّا مـن شـدّةِ كَمَـدِهِ، مـرّة ثانيةً، وماتت معه الغيلانُ والسَعالي. ولكنَ الواقعَ العربـيّ ظـلّ كمـا هو، فما غـرق في الدمـوع، ولا اختنـق، وظلّـت فيـه غِيلانُـهُ تصـولُ وتجول، وظلّت شظاياه شظايا، وأشلاؤه أشلاء مبعثرة، هنا وهناك، بين المحيط والخليج، تستغرِق في ملاحِم الشعر ومُواقَعـاتِ الغيـلان والسَعالي، وظلّ الإنسانُ العربيّ ههنا دُخانًا يتبخّـر في السماء، ولا يبقى له، كعالَمِه، أيُّ اثر...!)

المرثاة الرابعة:

مرثاة مملكة الصعاليك

رملٌ يتسلّل بين العين

وبيْن النظراتْ.

منذ الأولى ليلاً

كانت مِطرقةُ العَتْمَةِ تجتاحُ اللحَظاتْ...

وجهُ

والرائحةُ المفتوحة من رملِ الأرضِ

تلمُّ بقاياها

وتصيرُ... قصائدَ.

وجهُ

وصحارى التَيْهِ تُخَبّئُ تحتَ بَلادَتِها

سيفًا من خشبٍ،

وشموسًا سوداءَ،

ونارًا من ثلجْ...

وجهُ
والأرضُ المفتوحةُ كالثديِ
تَمَدَّدُ تحتَ الرَهْجْ،
وتأبّطَ شرًّا
يستغرقُ في شِعرِ الغِيلانِ
ويقبعُ في أعماقِ الدَلْجْ...

رملٌ يتسلّلُ في الحلْقِ
وبينَ الأسنانِ / سَمِعنا
وطنًا صعلوكًا
يقفز كالأرنبِ فوق الرملِ.
سمِعنا صُعلوكًا كالوطنِ النافِرِ
يُنشِدُ شِعرًا:
دَعَسْتُ على غَطْشٍ وبَغْشٍ، وصُحبَتي
سُعارٌ وإزْريـرٌ ووَجْـرٌ وأفْكَـلُ.
وسمعنا آهاتٍ تتكسّرُ
كالشجَرِ المُثقَلِ بالثمَرِ –

كانَ "سُلَيكٌ"
صعلوكًا كالوطنِ الطافِرِ
من جُرحِ الزَهَرِ...

رملٌ يتسلّلُ في الأنفْ
يتناسَلُ في مَملكةٍ
عيناها رملٌ
ويداها رملٌ
والأحلامُ رمالٌ...
صُعلوكٌ يتنفّسُ صعلوكًا...
صعلوكٌ يَتقيَّأ صعلوكًا...
وحُبَيباتُ الرملِ صَعاليكٌ تَفترِسُ الصحراءَ
وتَخلَعُنا
في هذا الوطنِ المَخلوعْ...

(٢٣ – ٤ – ١٩٩٢)

المرثاة الخامسة:

مرثاة الشيء

١ – الشيء:

يخرج "الشيءُ" من وجهِهِ باردًا،
حجرًا أو... قضايا،
يُغلِق الأرضَ بينَ ستائرِهِ
ثمَّ يخترعُ الجوعَ
أو يرسمُ الجوعَ حولَ انهيار القضايا،
يجوعُ،
يصير المدى...

يقعدُ الشيءُ في ليلِ وحدتِهِ:
كُوَمٌ حولَهُ...
كُوَمٌ يمضغُ الغيمَ فيها
وتَمضغُهُ،

كُوَمٌ ترتقيهِ وتُغلِقُهُ... كالستائرِ
أو كالمدى في الستائرِ.
يقعدُ الشيءُ في ظلِّهِ
مثلَ بَرْدٍ طويلٍ.
تُحَوِّلُهُ مُدُنُ الجوعِ مِمسَحَةً
أو دُجًى...

٢ – عالمُ "الشيء":

يرقُدُ "الشيءُ" في ذاتِهِ
والأماني رمالْ...

ثمَّ يَبني من الصمتِ بيتًا،
يُكَوِّرُ عينيهِ بينَ الهَباءْ –
أما كانَ بينَ رمالِ الصدى
موجِثًا كالصدى؟
ثمَّ يبتكرُ الصمتَ،
يمسحُ فاهُ،

يصيرُ هَباءً...

يُسَمّونَهُ "الشيءَ"،
لكنّهُ موحِشٌ... موحِشٌ...
بقيّةُ صمتٍ على حفنةٍ من تُرابْ.

يرقدُ "الشيءُ" في ذاتِهِ
والأماني ترابْ.

المرثاة السادسة:

قصيدة الأطلال

كانت الأقدامُ تَدّافُعُ نحوَ
مضيقٍ باردٍ من العيون، والأرضُ
مائعةً كطبقٍ من الهُلام.
كانَ الشعرُ طَبَقَ السياسيّينَ اليوميِّ
والصحافةِ السياسيّةِ،
والناسُ مقيّدونَ في
مدينةِ الشعر.
(كيف أدخلكِ، يا "أورُ"،
وأنا لا أخرجُ منكِ؟)
كان البكاءُ على الأطلال
إفطارًا يوميًّا للشعب المنغرس
في سياسة الأطلال:
"عَفَتِ الديارُ مَحَلُّها فَمُقامُها
بمِنًى تأبّدَ غَولُها فَرِجامُها"

(ألا ترَون هذا الإفراطَ في النَفَس
عندَ اللهاث: مُها... مُها... مُها...)
ونحن نلهث مع لبيد في معلّقاتنا اليوميّة
وقصائدِ السياسيينَ اليوميّة
وحكّام "أورَ" يصفّقون:
"فَمَدافِعُ الرَيّانِ عُرِّيَ رَسْمُها
خَلَقًا كما ضَمَنَ الوَحِيُّ سِلامُها."
(كيف أدخلُ أليكِ، يا "أور"،
وأنا لا أخرجُ منكِ؟)
بين الفينةِ والفينةِ
تتمرّدُ عينٌ على الشِعر
وأخرى على الشعراء؛
لكنّ الأقدامَ التي بينَ الفمِ والطريق
– والتي، بالتالي، لا نحتاجَها –
تدأبُ في المَشيْ على طبَقِ الهُلام،
وقد تمرُّ على عِرْضٍ أو حِمًى (لا نحتاجها أيضًا)
ثمَّ تقف على الوجوه،

أو على الأقفيَة
– وحكّامُ "أورَ" يصفّقون –
أهلاً، أيُّها الآتي من جحيم الشعر،
أيها الأخُ "المُناضِلُ"، "الرفيقُ"، "الوطَنيُّ"،
"المُجاهِدُ"، "الفِدائيُّ"...
– وحكّام "أورَ" يصفّقون –
وأنا
بين الفينة والفينة
اقترح النومَ
أو الانتحارَ بالحياة!
لكنّ المعلّقاتِ تُداهِمُني
تُمارسُ عليَّ الإرهابَ (وربّما اللِواطَ
وكلَّ أنواعِ الشذوذِ):
"لِخَولَةِ أطلالٌ ببَرْقَــةِ ثَهْمَـدِ
تلوحُ كباقي الوشْمِ في ظاهرِ اليدِ."
و"خولةُ" ترمُقُنا من قبرِها شَزَرًا
ونحن نترامَقُ

– وحكّامُ "أورَ" يصفّقون –

(كيف أدخلُ إليكِ، يا "أورُ"،

وأنا لا أخرجُ منكِ؟)

لِـ "خَولةَ" أطلالٌ ولنا أطلال.

لـ "طَرَفَةَ" "خَولةُ" ولنا الشِعرُ والشعراء

والسياسةُ والخَطابةُ والنِكاح،

ولنا أطلالٌ نسمّيها الوطن

(ما أصعبَ الوصولَ إلى معنى الوطن

في صحراء "أور"!)

ولنا العروشُ والطوائفُ والأمراء والحروب

وانتحاراتُ الحياة،

ولنا الأرضُ كقَسيمةِ اللوتو

أو كدولابِ اليانصيب الوطنيّ...

المرثاة السابعة:

مرثاة لعصر خليل حاوي

(أو: قصيدة الترجمان)

عندما تفْجَأ الشمسُ ظلَّ الهَباءِ تُنَمّي الجِراحُ

غَماماتِها في ضَباب الفصولِ، وينخَلِعُ الرعدُ من حالِقٍ؛ ومتى

هاجَرَتْ بعضُ أقبيَةِ الجوعِ في حَلْقَةِ الصبرِ يبقَ الصدى هاجِعًا حولَ

بعضِ الرمادِ –

هنا

يفتحُ

الليلُ

أغوارَهُ

لِلهَباءْ!

عندما تفْجَأ الشمسُ عارَ المَسافةِ، والظِلُّ يُحْفَرُ

تحتَ الغصونِ الكَسولاتِ يهطلُ بعضُ الفِلِزِّ منَ النجمةِ المومِياءْ.

هـهنا يرفـعُ الأفْـقُ جَفنًـا صَديعًـا، وتخــرجُ، يـا ترجمانُ، من التُّرْبِ فِكرًا تَكَلَّسَ؛ لكنّما يَسْتَسِيغُ الذُّهولُ انتحاراتِكَ السودَ، يَسْتَنْفِرُ الجوعُ أطيافَهُ. تخرج الآنَ، يا ترجُمانُ، من البُعـدِ، والأرضُ أضيـقُ مـن ظـلٍّ رمـحٍ، وتُمسِـكُ بـاللونِ، تَعصــرُهُ لفظــةً في الخواءْ...

المرثاة الثامنة:

مرثاة لملوك الطوائف

- ١ -

ألهَولُ يعلُكُهمْ،
ويعلُكُنا الغُبارْ،
والصمتُ يدمَغُ جَبهَةَ الآتي
ويَعْقبُهُ انتظارْ،
وتمرُّ أحصنةُ الغـزاةِ علـى الجبـاهِ فـيركعُ التـاريخُ تحتَ العار. كنّا نجمةً صَدَعَتْ جبينَ الشرقِ وانتَثَرَتْ شَظايا،
لَمَّتْ بروقُ القبرِ كلَّ ضِيائها.
كنّا سَبايا
تمضي إلى الوطنِ المـهاجرِ في عيـونِ القبـرِ. نَسـألُهُم بقيّةَ دمعةٍ فنُصابُ بالديجور. نسألُهم بقايـا عُمرنـا فـإذا بـهم فِطرٌ تناثرَ في هَباءِ الوقتِ / كانَ الصمتُ أحصِنةً تمـرُّ علـى جِبـاهِ الأرضِ والوطنُ السَليبُ وسادة للهَولِ. نمضي في عروقِ الصمـتِ نحـوَ رمـادِهِ الحجَريِّ – آهٍ! رُدَّ بابَ القبرِ، وافتحْ في المدى

جرحًا، وشُدَّ العمرَ في ليلِ الصدى

وَلْيَنْقَفِلْ وجعُ المسافاتِ الرهيبةِ. لا بقايا

غيرَ ليلٍ في جليدِ العمرِ يبتلعُ البَرايا.

لا شيءَ غيرَ ضميرِنا العاري

يُشَدُّ إلى الضحايا

في غَيهَبٍ أدجى من القبرِ البليدِ /

ومَنْ، تُرى، دقَّتْ أصابعُهُ على جَدَثِ المسيحِ

فما أجابَ،

ولا انبرى في عينهِ نورٌ،

ولا انزاحَ الحجرْ:

ظلٌّ رهيبٌ باردٌ...

لا صَلْبَ،

لا جرحٌ ينزُّ

ليغسلَ الآثامَ في دنيا البشرْ...

ومن انبرى لِـ"الفتحِ"

فانكسرت سيوفُ الفارسِ المعجونِ بالطَوَفانِ

وانتزَعَ السُوَرْ

وطوى "الكتابَ"،

فصارتِ الآياتُ أحذيةً،

وصارَ العارُ تاريخًا

ثقيلاً... كالضَجَرْ...؟

ألعَرْشُ خاوٍ

والملوكُ مَماسِحُ

رُمِيَتْ على صدَإِ النهارْ.

ألهَولُ يعلُكُهم

ويعلُكُنا الغبارْ...

والصمتُ يَدْمَغُ جبهةَ الآتي

ويَعقُبُهُ بَوارْ...

– ٢ –

وجهي شِراعٌ

مَزّقَتْهُ الريحُ في كلِّ اتّجاهْ

ورأى الملامِحَ والزوايا

فانطوى خَوفًا وودّعَ حلمَهُ

وتطايَرَ الوطنُ الذي نَبَضَتْ بهِ الأحلامُ

في كلِّ اتّجاهْ...

وجهي شِراعٌ مزّقتهُ الريحْ...

وجهي يمرُّ على العروشِ فتستفيق طوائفٌ

صمّاءُ كالحجرِ الذي سدّوا بهِ بابَ الضريحْ...

نَعْلٌ تمرُّ على الوجوهِ

فتصنعُ الأبطالَ من خِرَقٍ

ومن نَتْنٍ

تكدّسَ في زوايا الأرضِ والليلِ الفسيحْ...

نعلٌ تمرُّ

فتصنعُ التاريخَ،

أو تسمو

فتضربُ جَبْهَةً شَمَخَتْ على وجهِ المسيحْ!

نعلٌ تهبُّ لِترقَعَ الدنيا وترقعَنا،

وتضربُ جَبْهَةَ اللهِ التي دميتْ على صدإ العروشِ /

يمرُّ وجهي:

كلُّ عرشٍ خطوةٌ في لعنةِ الموتِ.

أنتظارٌ، ثمَّ ينهمرُ الصدى!

كلُّ العروشِ تفجّرت في وجهِنا المسكونِ

بالقَهرِ الطويلِ.

يمرُّ وجهي:

كلُّ خطوٍ رحلةٌ في بَلقَعِ القبرِ.

أنتظارٌ ثمَّ ينهَمرُ الصدى.

وجهي المدى،

وجهي سَفينٌ من عِظامْ

والبحرُ جِلدٌ قُدَّ من أجسادِ أطفالٍ

ومن وجعِ العصور،

ومن ظلامْ...

وجهي سَفينٌ من عِظامْ،

والأفْقُ بابٌ من حديدٍ مقفلٌ

قُدّامَهُ غُرِسَتْ رؤوسٌ

قد رَوَوها من دمِ الأطفالِ /أفْقٌ

والمدى أعصابُ قبرٍ

شَلّها ثقلُ الجليدِ

وثقلُ أطباقِ الركامْ.

أفْقٌ...

وخلفَ الأفْقِ شعبٌ

من حطامْ!

- ٣ -

كان المدى

قَفرًا تغطيهِ الرُمولْ،

والوجهُ قفرًا

عَبْرَهُ صمتٌ صَفيقٌ، لا يزولْ،

والليلُ قَفرًا

طرّزَته جماجمٌ لَمّاعةٌ،

والصمتُ أمعاءٌ تطولْ...

مشَتِ العصورُ هنا إلى وجعِ الخَواءِ.

تراجعَ الزمنُ الطويلُ.

تراجعَ التاريخُ عن أشلاءِ تيجانٍ

وخَطْواتٍ يَبِسْنَ على الرمالِ.

تراجعَ الزمنُ المُهَشَّمُ...

كلُّ ما مَسَحَتْ دموعُ العينِ ينبتُ في ضميري / كلُّ

برقٍ يمتطي أحزانَهُ ويهبُّ مُجْتاحًا جدارَ عيونِنا -

برقٌ ويصطكُّ المدى...

برقٌ

وتنبتُ في ضمير الشرقِ أضرِحةٌ جديداتٌ،

عروشٌ مُقفِرَهْ.

بَرَكَ الظلامُ على جحيمِ المقبرَهْ.

ألعَرشُ شاهِدةٌ،

وعيناياَ الظلامُ الباردُ المركومُ من وجعٍ حَرامْ...

وجهي سفينٌ من عظامْ

والليلُ قافلةٌ من الرعبِ الذي دمغوا بهِ وجهَ الزمانِ

/ كأنّ أعضائي تَهاوتْ في الرحيلِ المستَديمِ. كأنَّ أعصابَ الورى فحمٌ

أصَمُّ

وكأنّما الدنيا هَباءٌ مُطبقٌ

ومدًى يُحَمُّ...

في كلِّ زاويةٍ سَعالٌ تأكلُ العينينِ والقلبَ المَهيضَ /
تراجعَ التاريخُ عن قبرٍ وشاهِدةٍ
وجمجمةٍ تنامُ على العروشِ ولا تنامْ...
وجهي سَفينٌ من عِظامْ،
والأفْقُ مِطْرَقةٌ تَحزُّ ضميرَنا،
والشعبُ سُورٌ من ظلامٍ يابسٍ حتّى العِظامِ،
ومنْ... عِظامْ...

(آب / أيلول - ١٩٩٣)

المجموعة الحادية عشرة:

كتاب الغضب

حقول الغضب

- ١ -

عنبٌ، وأحلامٌ مُعَطّلَةٌ،
وتاريخٌ يُفَجِّرُهُ الحطامُ.
عينٌ لِصَنّينٍ على الدنيا،
وعينٌ دونَها
يُعمي مرارتَها الظلامُ.

خطواتُـهُم ملكَتْ على الحقلِ الأخـيرِ زُروعَـهُ،
ومشَتْ دِمايَ إلى طريقِ النُسْغِ في الوجعِ السحيقِ / رأيتُ وجـهي في
الترابِ ولم يكن ثمَرٌ على أغصانِهِ؛
ورأيتُ وجهي باردًا كالصبرِ!
حقلٌ، والمدى حجرٌ أصَمُّ.
حقلٌ، وليسَ على اللهيبِ المُضرَمِ المَلجومِ
غيرُ ثلوجِهِ
وصدًى يُلَمُّ،

والخطوُ أشلاءٌ رَمَيْنَ مرارةَ الدنيا على الدنيا
وأرَّخْنَ الغصونَ،
فلا عِنَبْ...
والليلُ فِهْرِسْتٌ يضمُّ شَتيتَنا
وشَتيتَ أجيالٍ وأجيالٍ...
وذاكرةٌ تُفَجّرُها مسافاتُ الوعودِ المستحيلةِ...
لا عِنَبْ...
ألحَقلُ بورٌ يصنعُ التاريخَ مَمجوجًا، يَباسًا.
لا لَهَبْ،
والأرضُ أحطابٌ وفحمٌ...
لا غَضَبْ،
والصبرُ صَوّانٌ على الجسدِ المَهيضِ يُمَطُّ فوقَ ترابنا
الممزوجِ بالصَلصالِ والقَهْرِ الطويلِ وبانتهاكاتِ العصورِ، ولا...
عِنَبْ...
أحلامُنا تَذوي على الصدإ المَديدِ،
وطعمةُ التاريخِ تعوي من مرارتها
ويعلكُها الرُكامُ...

خِرَقٌ على كرسيِّها،
والصولجانُ بكَفِّ مَخصيٍّ يقودُ مَزارعَ الموتى
ويَخفرُهُ الظلامُ!

– ٢ –

ألجردُ يبكي،
والثلوجُ تكوّمتْ في قِمّةِ الدنيا،
وصَنّينُ انتظارٍ باردٌ:
ليلٌ يمرُّ على الحقولْ –
لا نَسرَ ينشرُ في السماءِ جناحَهُ
ويُقَبِّلُ الشمسَ التي تزهو
وتلثُمُ جَبهةَ الرعدِ البتولْ.
لا زَندَ تكسرُ عِصمةَ الرعدِ الثقيلِ،
تردُّ قلبَ الأرضِ قلبًا نابضًا
وتُعيدُ أعيادَ الفصولْ،
لا زندَ تقطفُ لمعةَ النجمِ المُزَغْرِدِ في الذرى،
تَعصى على زحفِ المغولْ...

صمتٌ، وجَرْدٌ يستفيقُ على حطامِ الصمتِ والهذيانُ
بركانٌ يفورُ / هنا مشَتْ دربي إلى دربي فزَنّرها الردى. وهنا ارتمى
وجهي على وجهي رمادًا باردًا، لكنّه أَلِفَ المرارة وهْيَ تمتصّ
الدماءَ وتجعلُ الأعيادَ قبرًا صامِتًا...
وهنا ارتمى
عرشٌ على عرشٍ
وأرّخَ كلُّ عرشٍ للرمادِ بدايةً وبدايةً...
ورمى على الدنيا صَفاقتَهُ، ومَطَّ لسانَهُ مَطًّا
لِيَلْعَقَ كلَّ أقدامِ الطغاةِ /
هنا ارتمى عرشٌ على عرشٍ
وأقفرَتِ العروشُ من الرجالِ –
لا شيءَ غيرَ الصمتِ
في حَلْقِ الليالي...
لا شيءَ غيرَ مرارةِ الدمِ
والحقولِ الجرْدِ
والخصبِ المحالِ...

- ٣ -

في الأرض هَسْهَسَةٌ

وفي أعماقِ روحي دَخْنَةُ الآتي الغريبْ،

والسنبلُ المَجوجُ من عَظمٍ وأشلاءٍ

يُفَتِّحُ عَينَهُ للشمسِ

والصوتِ العجيبْ -

صوتٌ... وهَسْهَسَةٌ... وبعضُ بقيّةٍ للريحِ

يعجنُها التَعَبْ.

ألحقلُ يرفعُ رأسَهُ نحوَ النجومِ

وقد تحرّكَ في قرارتِهِ عَصَبْ...

حقلٌ وهَسْهَسَةٌ... كأنَّ مَداخِلَ الآتي تَفَتَّحُ بانتظار الحلْمِ. حقلٌ وانتظارٌ عارمٌ /

أمشي إليَّ وقد فتحتُ مَداخِلي وشَقَقْتُ صَلصالَ الدروبِ. أسيرُ في الوجعِ الذي يَهْذي ويُحْتَضَرُ

وأمرُّ كالبرقِ الذي شقَّ الوجودَ

وشقَّ أطباقَ الجليدِ

وهبَّ ينتظِرُ،

والليلُ قُدَّ،

وقُدَّتِ الدنيا إلى شَطرينِ من لَهَبٍ

ومن عَصْفٍ،

وشُقَّ العرشُ والقدَرُ...

تعبٌ تجمّعَ وهْوَ يصهَلُ في عروقِ القلبِ / أمشي في الدروبِ العارياتِ إلى الحقول، أطيرُ من قلبي إلى قلبِ الحقول، وأسمعُ الأعشابَ تقرأ قِصَّةَ الدِفْءِ الذي يمضي إلى نُسْغِ الجذور. أطيرُ. أقرأ في تواريخِ البذور محبّةَ الدنيا لأحلامِ المدى، وأصيرُ هذا الرَبْرَبَ المجنونَ يجتاحُ الطريقَ إلى الطريق، أصيرُ أحلامًا يُهدهِدُها البريقُ، أصيرُ مُختارًا يلُمُّ حَشاشةَ الدنيا على سُوَر وآياتٍ، أصيرُ تَفَجُّرَ الغَضَبِ السحيقِ يمرُ في عُرْقِ البَوار ويَلْقَحُ الثَمَرَ الذي يَمْتَصُّهُ الشَبَقُ...

وأنا الطريقُ إلى حقولِ النار والغضَبِ السحيقِ

يَحُرُّهُ العَرَقُ...

في نَفسيَ الظمأى يَرُدُّ الغَسْلُ زَوبعةَ الوجودِ إلى احمِرار النار، والرؤيا إلى عُمْقِ المدى،

وتَشَعُّبُ الطُرُقُ.

وأنا الذي في نفسِهِ الظمأى

تقومُ خَلِيَّةُ الأحلامِ من دمِها،

وتولدُ بينَ عينيهِ الرؤى مُرْدًا،

وتَفترِقُ...

- ٤ -

مَشَتِ البروقُ إلى حقولِ النار

والتَهَبَ المدى،

وتفجَّرَ الصوّانُ ماءً في عروقِ التُرْبِ،

وانتفَضَ الردى /

ألرعدُ مِطرقةٌ

تُوَقِّعُ غَضْبَةً مَشبوبةً

في عُمقِ صنّينٍ

ويحمِلُها الصدى.

رعدٌ، ومِطرقةٌ،

وغَيثٌ عارمٌ أنّى عَدا...

مَشَتِ الدروبُ إليَّ فارتَدَتِ الطريقُ زُهورَها، وتكسّرَ الصلصالُ عن زمنٍ يُزَوْبِعُ عارَنا المركومَ / جُنَّتْ كلُّ أعـراقِ الـدوالي في الحقولِ، مشيتُ نحوي

والطريقُ إليَّ يخفُرُها اللهَبْ.

الريحُ تَمْرَحُ في ثمارِ الحقلِ

يعجنُها التَعَبْ،

والنارُ تبتلعُ العروشَ

وفي رَمادِ العرشِ يلتَهِبُ الغَضَبْ:

شعبٌ يقومُ من الرمادِ

ويجبلُ التاريخَ من لَهَبٍ،

ويغتَصِبُ الحقَبْ،

وأنا المدى،

وأنا لهيبُ الحقلِ أرقصُ في أهازيجِ الدوالي، أقطـفُ الشـمسَ الـتي تـأوي إلى عمـقِ الـترابِ / أنـا الزوابـعُ تلغـمُ العـرشَ الرهيبَ وتَغسِلُ العارَ الذي جُبِلَتْ بهِ أحلامُنا /

لا شيءَ غيرَ النار تمرحُ في الحقولْ.

لا شيءَ غيرَ رعودِ مِطرقةٍ

تَقُدُّ جَماجمَ الموتى

وتُحرقُ نِيمةَ التاريخِ

في خِصبِ الفصولْ.

حقلٌ... ويلتَهِبُ العِنَبْ...

حقلٌ... ويلتهبُ اللهَبْ...

نارٌ على نار،

وألْسِنَةٌ تُعيدُ بناءَ قلبِ الأرضِ

بُرْجًا من غَضَبْ!

(١٢ - ٦ - ١٩٩٤)

مدينة الأشباح

١ - مشاهد من مدينة الأشباح:

١ - الشمس:

تخرج الشمسُ من جِلدِها المُنحَني

في حقولِ المسافَهْ.

تخرج الشمسُ من جِلْدِها

وتصير خرافَهْ.

تَصنعُ الشمسُ قَهوتَها

من رمالِ المدى:

تخلطُ الليلَ بالماءِ

والرملِ

والعَطَشِ البشَريِّ...

وتأوي إلى البرْدِ والثلجِ،

تقطفُ من جوعِنا

باقةً لحديقتِها
لِتُرَصِّعَ أوعيةً من صدًى وعظامْ.
ترتمي كُرةً من جليدٍ
فوقَ صحرائنا
وتنامْ...

٢ – الأرض:

بُسُطٌ من صدًى
طُرُقٌ من رمالٍ
تُغَيِّبُ طول المدى...
وجعٌ من حديدٍ
يمطُّ اشتِهاءاتِهِ
بين حقل الخَواءِ الطويلِ
ونبْضِ الظلام على بَرْدِ قلبي.
وجعٌ من حديدٍ
تَمَطّى على الزمنِ المُحْتَضَرْ
وعبَّدَ كلَّ طريقٍ إليهِ

تُحاصِرُها مُدُنٌ من حجرْ...
غيرَ أنَّ الثرى يُقفِلُ العينَ،
والأرضَ لا يُلْقَحُ الحَبُّ
في عمقِ أرحامِها،
والجداولُ أرهقَها عَطَشٌ
من أوارِ الرمالِ؛
فلا ماءَ
بل غِنوةٌ للحجرْ
بين مَجرى المياهِ الذي نسيَ الماءَ
والرحِمِ الحجريّةِ في قبّةِ الليلِ.
ليسَ على الأرضِ إلا رمالٌ
وشلّالُ أحصنةٍ للغزاةِ
يمُجُّ الصدى والصدى والصدى...
والظلامَ البليدْ؛
ليس في الأرضِ إلا خواءٌ
يُرَصِّعُهُ وجعٌ
من حديدْ...

٢ – البشر :

كُوَمٌ من ظلال
على حفنةٍ من رمالْ
وخواءٌ طويلٌ
يُصَدِّعُ أروقةَ القَفْرِ
خلفَ امتدادِ الظلالْ.
كُوَمٌ من ظلال
على شبحِ الذاكرَهْ...
كوَمٌ من هباءٍ
تحرّكها الريحُ
ساخرةً... ساخِرَهْ...
كومٌ تتحرّكُ تحتَ لظى الشمسِ،
تنمو صخورًا على القَفرِ
أو تتصاعدُ كالآلِ نحوَ سماءٍ مُصَفَّحَةٍ، ثمَّ تَسقطُ في قُمقُمِ الرملِ، تغدو رمالاً، تحرّكها الريحُ، يلْفَحُها الليلُ بالقُرِّ / تغدو ثعالبَ أو بُرَكًا جافّةً ليسَ فيها صدًى أو تَمَوُّجُ ماءٍ، وقد تتحوّل ريحًا سَمومًا تهبُّ على شمسِنا الآفِلَهْ:

كُوَمٌ قافِلَهْ،
كومٌ لِهبوبِ الدُجى ساكِنًا كالجليدِ على قشرة الأرضِ أو كصهيلِ الهدوء الثقيلِ يَعَضُّ الفيافيَ، ترسَخُ في الصمتِ باردةً كالحجرْ.
كومٌ من ظلال
تقوم وتسقطُ تحتَ ضياءِ القمرْ...

٢ – في مدينة الأشباح:

- ١ -

ألخطوُ بطيءٌ فوق بقايا الأشياءْ.
ألخطوُ يجرُّ الخطوَ إلى أشلاءٍ،
وتُحاصرُنا الأشلاءْ...
صمتٌ ومدًى يتفتّح عن ليلٍ ورمادٍ
وبقيّةُ هسهسةٍ تتحجّرُ في قلبِ الغَيهَبِ / قالوا:
فوق جباهِ الأرضِ خطًى
ونِعالٌ تَتَنَسّمُ راياتِ الرعبِ.

وقالوا:

لهَبٌ ثلجيٌّ ينسَلُّ على خاصرَةِ الكونِ

ويلتَفُّ على رَقْبَةِ هذا الليلِ

وهذا الأفُقِ المَلجومِ...

وقالوا:

بابٌ يتثاءبُ حينَ تمرُّ الأشباحُ

على حشرجةِ البيتِ المتداعي...

صمتٌ يتدفّقُ من شدقِ الليلِ

إلى...

شِدقِ الأرضِ،

وخطوٌ يتحجّرُ فوق الرملِ،

وتَيهُ... تَيهْ...

وطنٌ مَمسوحٌ

يُدمَغُ في جبهةِ ليلٍ مَمسوحِ الوجهِ، كَريهْ...

شبحٌ يتقيّأ أشباحًا

ويشقّ الرملَ إلى الرملِ

ويخرجُ من أذُنِ الليلِ...

يهبُّ بخارٌ أبيضُ فوقَ مواطئنا

ويُزَوبعُنا حتّى العَظمِ،

ويرمينا عُمْدًا من ملحٍ

تغرقُ في رملِ الأمداءْ...

ألخطوُ تكوّمَ عاصفةً من صمتٍ وهَباءْ...

الخطوُ يجرُّ الخطوَ إلى أشلاءٍ

وتحاصِرُنا الأشلاءْ...

- ٢ -

ينتقي الوجعُ المرُّ عيني

ويفتحُها في ظلالِ المدى:

رُعْبٌ يَخْرقُ الأرضَ حتّى العِظامِ

ويخرجُ من رئتي ساخِرًا /

كنتُ أرمي الحضارةَ بالرعبِ،

أمسحها بالظلالِ الكئيبةِ

حتى انتهاءِ التواريخِ.

كنتُ أشرِّعُ قلبي لحزنِ الترابِ

ودمعِ السماءِ الذي يقرأ الغيمَ

حرفًا

فحرفًا...

كنتُ أرمي الحضارة بالنار

أدْمَغُها بعيوني،

ولي في عروقِ المطرْ

يدٌ وعيونٌ وجسمٌ...

ولي سَطْوَةٌ... كالقدرْ...

غيرَ أنّي، وقد ضاعَ وجهي،

تحوّلتُ نحوي، فلم أعرفِ الدربَ.

لم أجدِ الخطوَ نحوَ الرتاجِ الكبيرِ:

هنا وطنٌ غائمُ الوجهِ

يفقدُ خَطْوتَهُ في الرمالْ...

هنا شبحٌ يزرعُ الخطوَ في النَظَراتِ الهزيلاتِ /

لم أجدِ الدربَ نحوَ السؤالْ...

ينتقي الوجعُ المرُّ عيني

ويزرعُني في المدى:

كان وجهي هَباءً

يُشَقَّقُهُ فوَرانُ الصدى.

كان وجهي يسيلُ على بلدةٍ

من بَوار الردى...

– ٣ –

شبحٌ يمشي خلفي

بين جبالِ الصدإ المَنسوجِ

على دربِ الكَلِماتْ.

شبحٌ يتقمّصُ جِلدي

والعظْمَ المتناثِرَ فوقَ الخَطَواتْ.

شبحٌ يتقمّصُ كلَّ التاريخِ

ويبني وطنًا

يرقدُ تحتَ جليدِ الزَفَراتْ...

- ٤ -

هل كنتُ سوى ليلِ القَهْرِ
يمطُّ قوائمَهُ فوقَ جبينِ الدنيا؟
هل كنتُ سوى جوعِ السنبلِ
حينَ تصيرُ الأرضُ بَوارًا
وتفيضُ الصحراءْ؟
هل كنتَ سوى شبحٍ
زَعَموهُ وطنًا
لِعِظامٍ وهَباءْ؟

- ٥ -

أمشي وأفتّش عن وجهٍ
في كُوَمِ الأقنعةِ الرمليَّهْ.
أمشي وأفتّش عن شمسٍ
تحتَ صقيعِ الأرضِ الثلجيَّهْ.
أمضي /
أخترقُ الأفُقَ المَلجومَ

وحشرجةَ البيتِ المتداعي
وجبالَ الأشباحِ العَظْمِيَّهْ.
أنْبُتُ من قلبِ مدينتنا
زَوْبَعَةً تَثقُبُ وجهَ الشرقِ وتلتهبُ...
غَضَبٌ يصهَلُ في أعصابي
ويُبَرعِمُ في عينيَّ الغَضَبُ -
طوبى لِوجهٍ من لَهَبْ.
طوبى لأحلامِ الجِياعِ
تُزَلزِلُ التاريخَ من قلبِ السَغَبْ /
قصفٌ يحوكُ التربةَ الحمراءَ شاهِقةً
ويخترقُ السديمَ إلى قراراتِ السماءِ.
هنا البروقُ تشقُّ أطباقَ الجليدِ
ويمتطي التغييرُ أحصنةَ الجنونِ -
تمرُّ زوبعةٌ على وجهي
ووجهي كلُّ نَبْضٍ في لهيبِ الشِعرِ،
وجهي كلُّ أعصابِ المدى...
طوبى لوجهٍ من لَهَبْ.

طوبى لأرضٍ
تَخْرجُ النيرانُ من دمها
وتُسْلِمُ جِسمَها للشِعرِ
يُخصِبُها
وتنزفُ رَحْمُها قمحًا وأثمارًا /
هنا التَمَّتْ ملامِحُنا على وطنٍ
وأرَّخَتِ البدايةَ:
كلُّ وجهٍ يصنعُ التاريخَ وجهي.
كلُّ زوبعةٍ تلخّصُ قصّةَ التاريخِ وجهي.
كلُّ طفلٍ في المدى وجهي...
ووجهي غارقٌ في أقحوانِ الشِعرِ
يحترفُ الصهيلَ
ويزرعُ الآفاقَ بَرقا.
غَضَبٌ يهزُّ الكونَ،
يشمخُ في المدى،
ويشقُّ وجهَ الأرضِ شَقّا...
طوبى لأحلامِ الجِياعِ

تُزَلزِلُ التاريخَ من قلبِ السَغَبْ.
طوبى لشعبٍ
من لَهَبْ...

(أيلول / كانون الأول – ١٩٩٤)

مشاهد

١ – مشهد:

يفتحُ الليلُ في الوَجَعِ المُشْرَئِبِّ
فضاءَ الرمادْ.
يدخلُ الليلُ في الغيمِ والسَهْلِ
حتى هبوبِ السهادْ.
يقرعُ الصمتُ أزْلامَهُ...
غيرَ أنَّ المدى مائعٌ
والصدى يتقافَزُ فوق الصخور /
شَرِبْنا الصدى والسكونَ؛
وأتْلَفَنا العارُ حتّى العِظامِ،
وصِرنا رُخامًا على شَفَقٍ من حجرْ
يرانا
ويبكي علينا القمَرْ...

٢ – مشهد:

صدأ يترَسَّبُ تحتَ جليدِ عروقي
وفي العينِ أقبيةٌ
من عِظامِ السراديبِ...
كان شُروقي
سكونًا من الصخْرِ يردمُ وجهَ الزمانْ
ويتركُنا يَبَسًا
في ضُلوعِ المَكانْ.

٣ – مشهد:

لجّةُ الشعبِ تركعُ في زَعزَعِ العار:
كلُّ وجهٍ رفيقي،
وأنا المُتَواتِرُ في الصمتِ
أشْدَخُ رأسي بحائطِهِ
ويسدُّ صَداهُ طريقي...

٤ – مشهد:

لعنةُ الحكمِ فوقَ عروشِ الجماجِمِ.
عصرٌ يُزَنِّرُهُ الغَضَبُ المُلْتَحي
في الزوايا الذليلَهْ.
كلُّ وجهٍ عَويلْ.
كلُّ وجهٍ هَباءٌ طَويلْ.
كلُّ عرشٍ يَمُطُّ بُروجَ الردى
في فضاءِ القبيلَهْ.

٥ – مشهد:

وجعُ الشعبِ يرقدُ في نعشِهِ
جثةً
زَغرَدَ العارُ فيها، قَتيلَهْ...

٦ – مشهد:

رحلَتْ أدمُعي.

نَبَتَتْ أحجُرًا
ويَباسًا ثقيلاً.
وصمتًا / هَوَتْ قصّةُ الشعبِ
في آخرِ الوقتِ.
كانَ الزمانُ مَهيضًا،
وكانَ المدى
حجرًا باردًا كالردى.

٧ –مشهد:

وقف الشعبُ... ماعَ وسالَ
على لعنةِ العرشِ /
بيعَتْ بَقاياهُ والفِكرَ في السوقِ.
بيعَ الزمانُ رُكامًا،
ولم يبقَ غيرُ الصدى ماحِلاً
فوق بحرِ الحجرْ
يصنعُ الدهرَ والمُنتَهى... والبَشَرْ!

سمفونيّة بابِل

(أو نشيد الفِداء)

– ١ –

فضاءٌ مُعَلَّقٌ على الوجهِ الرماديّ،
وصمتٌ كالحديدِ ينحتُ الأفق،
وبُرجٌ سامِقٌ
من الدمِ والمرارةِ والدموع...

بابل:
لظًى من جليد
حين لا تجلدُ النارُ وجهًا،
ولا تَلفَحُ الريحُ حرارة البَدَنْ.

بابل:
شعبٌ صامِتٌ كالجليد،
وصمتٌ في ضمير المدى

يثقب التاريخ.

بابل...
لكنّ في العين وطنًا مرًّا
والرملُ يُغرِقُ المدى...

– ٢ –

أمضي إلى العَرَقِ المُجَمَّعِ في عناقيدِ الغيومِ وأشتري وجهًا وصوتًا. أشتري وطنًا. وأحترفُ الضَياعَ.

تركتُ أقدامي على رملٍ يُضَعضِعُهُ الصدى،
لكنَّ بابلَ داهَمَتني فارتقَيتُ إلى النجومِ وعدتُ تاريخًا يُحَطِّمُهُ جُموحُ البَغْيِ / بابلُ في بداياتِ الصدى وبقيّةِ البُهتانِ. بابلُ في دمي
ودمي المرايا
والتواريخُ الحُطامُ...
ما زالتِ الأشياءُ يَصدَعُها الركامُ.

ما زالتِ الدنيا صراخًا مخمَلِيًّا يخزنُ الصمتَ
السحيقَ / رأيتُ وجهي في دمي
ووجوهَ كلِّ الجائعينَ. هنا المرارةُ تثقبُ الأزمانَ.
تُحتَضَرُ البقيّةُ في سهولٍ من عظامٍ. كان وجهي في دمي
ووجوهُ كلِّ الجائعينَ تُزَنِّرُ التاريخَ ألغامًا. هنا
رملٌ. هناكَ تَقَصُّفٌ في قِمّةِ الهذيانِ يختصرُ الزمانَ. ويستطيلُ
الصمتُ. تنفجرُ العروشُ. ينامُ وجهي في دمي لكنّه يستقبلُ الأحلامَ
مثقوبًا ويختصِرُ الضَياعَ: يظلُّ وجهي فارغًا مثلَ الرمادِ
ومُثلِجًا حتّى العِظامِ.
ما زالتِ الدنيا لهيبًا باردًا
ومدًى من الزَفَراتِ يسطعُ في القَتامِ.
ما زالتِ الأشياءُ من رملٍ
وكلُّ عروشِنا وَجَعًا
يُفجّرُهُ الظلامُ على الظلامِ...

– ٣ –

يطأ المدى عِزّتَهُ وينام...

تلتمُّ بابلُ في التِئامِ الوجَع،
تنقفِلُ حتّى أدوار الصدى.

والخلائق
بقيّة من الرمل
وضمّة من الهباء.

بابل، بابل...
كيف نفتح الأفق؟

وفي اليدين والعينين والشفتين
رمل...
وفي الصدى الملجوم تحت لجّة السكينة
رمل...
وفي الصوت الذي يضرب الحَلْقَ ولا يخرج
رمل... رمل...

- ٤ -

هَمَدَ المدى...

كانت بقايا النسمةِ الصفراءِ تَخْتَصِرُ الفجيعةَ: بابلُ

في الحَلْقِ والأصواتِ،

بابلُ في انكسار الفكرِ،

بابلُ في الحَناجِرِ،

بابلُ في كلِّ عرشٍ من عروشِ العار،

بابلُ في انهيار العصرِ،

بابلُ في تَصَدُّعِ بُرجِها وتَفَجُّرِ التاريخِ والزمنِ،

وبابلُ في اختصار الموتِ

حين تصيرُ أفلاكًا من العَفَنِ

وبابلُ كلُّ ما اختصرَ الزمانُ من الجحيمِ ومن

بكاءاتِ الأرامل واليتامى / كان وجهي في ضباب الرمل مُنطَمِرًا،

وعيني لا ترى إلا هواءً ماحِلاً يَتَقَمَّصُ الوطنَ المُشَظّى... بابلُ في كلِّ

شِلوٍ من بقاياهُ -

ويردُّنا الرجْعُ اللَعوبُ إلى شظايا العمرِ،

يُقفِلُنا عليهِ،

ويُقفِلُ التاريخَ جَفناهُ

وتنفجرُ الأماني في وعور الروحِ / كلُّ مرارةٍ في

الدهرِ وجهي

وأنا العصورُ تجمّعَتْ في قُبَّةِ الهَذَيانِ وانفجَرَتْ /

يُها العارُ الذي التَمَّتْ على عيني حَناياهُ

ولَملَمَتِ السماءَ على العيونِ

وملَمَتْ نارَ الجحيمِ،

يُها الذي انتهَكَ البَسالةَ من مقابرِ بابلٍ، قُدَّ المدى

إلى شَطرينِ من عار وعار، ولْتَكُن عينٌ بعينٍ...

بابلُ تمشي إلى أنقاضِها

ويلفُّنا الرجعُ المُخَلَّعُ في ثناياهُ.

يَطَأ الثرى دمَنا،

ويقهرُنا صقيعُ القبرِ،

تُغوينا مَراياهُ.

نمرُّ على المدى خِرَقًا

ويَلفُظُنا الصدى،

وتُزَلزِلُ الدنيا سهولُ العار

حين يَحُرُّها وَجَعٌ

ويَصْلبُها الردى:

هَمَدَ المدى...

- ٥ -

أمشي إليَّ،

ولا شيءَ فيَّ

سوى الرماد...

كيف أخرج؟

والرتاجُ فراغٌ

ينفتح على فراغ...

أمشي

والخطوُ وحلٌ

يغرق في تَيهِ الرمال...

أمشي،

والوطنُ مزرعةٌ

لا يقيمُ فيها إلا الرمل...

أمشي.

ليس في الطريق سوى العظام.

أمشي...

بيني وبين الرتاج

إرادة الزندِ والقدرُ المكسور،

وعارٌ جَفَّ على العيون...

- ٦ -

ألصبرُ يعلُكُ لَحْمَهُ

ويُقَدِّدُ الأجسادَ في نَفَقِ البُكاءْ،

والدمعُ فحمٌ يدمغُ الدمَ والفؤادَ،

وحينَ ينتحرُ المساءْ

يهوي إلى ليلٍ أمرَّ من الدُجُنَّةِ. كانَ وجهي في دمي،
ودمي المَعابرَ والكنائسَ والمآذِنَ واحتِراقاتِ الليالي في المدى الملجومِ.
كان دمي وصايا الأرضِ حين تمرُّ في نَبْضِ الجذورِ وتلْقَحُ الخِصبَ
الدفينَ. دمي الشقائقُ وهْيَ تَفْتَضُّ الزمانَ وتَقلَعُ العَكَرَ المجذَّرَ في
البروقِ. دمي الدماءُ تجمّعَتْ في الأرضِ والتَهَبَتْ. دمي دمعُ الثكالى
والتِهابُ القَهرِ والعمرُ المُشَظّى فوقَ أطماعِ العروشِ. دمي اشتِعالُ
الشعبِ حينَ يصيرُ زَوْبَعَةً ويَجْتَثُّ امتدادَ البُرجِ في أعماقِ لعنتِهِ.
دمي التاريخُ يُزهِرُ في الخَلايا،

ودمي اندِلاعُ الغَسْلِ يرفعُنا إلى عُمقِ السماءِ. يُها
الجنونُ، كُنِ الزمانَ المستحيلَ يُزَوبعُ اللعَناتِ في صمتِ المَسايا

وكنِ التكسُّرَ والتشَظّيَ في ضميرِ الكونِ يخترعُ
النقيضَ لِتولِمَ الدنيا. دمي الدنيا. دمي كلُّ التِهابِ الغِبطةِ البيضاءِ في
وجهِ الفضاءْ

ودمي الضِياءُ
دمي الضِياءُ
دمي الضِياءْ...

(٢ - ٤ - ١٩٩٥)

تجلّيات الليل والنهار في صحراء سدوم

"فقال الربُّ: إنَّ صراخَ سدومَ وعمورة
قد كثر وخطيئتهم قد عظمت جدًا...
فلمّا كان عند طلوع الفجر ألحّ الملاكان
على لوط قائلين: قم فخذِ امرأتَكَ وابنتيك لئلاّ
تهلكَ بإثم المدينة. فتوانى لوط، فأمسكَ الرجلان
بيدِهِ وبيد امرأتِهِ وابنتيه لشفقة الربّ عليه،
وأخرجاه وصيّراه خارجَ المدينة... وأمطرَ الربُّ
على سدوم وعمورة كبريتا ونارا من عند الرب من
السماء، وقَلَبَ تلك المُدُنَ وكلَّ البقعة وجميعَ
سكّان المدن ونَبْت الأرض. فالتَفَتَتِ امرأتُه إلى
ورائها فصارت نِصبَ ملح..."

(العهد العتيق)

"ولوطًا إذ قال لقومِه: أتأتون الفاحشةَ
وأنتم تبصرون؟ فما كان جوابُ قومه إلا أن قالوا:
أخرجوا آل لوط من قريتكم، فإنّهم أناس
يتطهّرون. فأنجيناه وأهلَه إلا امرأتَه قدّرناها من

الغابرين؛ وأمطرنا عليهم مطرًا فساءَ مطر
المنذرين."
(قرآن كريم)

- ١ -

يستفيق الليلُ في عيني
ويرميني المدى
في دُوار ماحِلٍ عبرَ الصدى...
كنتُ أهوي باردًا
حتى جليدِ القبرِ
في ذُلٍّ
كأنّ الأرضَ من حولي
رمادٌ مائعٌ،
وكأنّ الصبرَ نعشٌ داكنٌ...
لكنّ صوتًا جاء من عَتْمِ المَتاهْ
كيَدٍ تخترقُ الهَولَ
وتمضي بيَميني نَحوَها.

كنتُ احتراقًا
ذُرَّ في ليلِ الجِباهْ
ورمى الآفاقَ في الآفاقِ / زَحفٌ
باردٌ حتّى العِظامِ
واختراقُ القلبِ في صمتٍ
على أرضٍ
تعَرّى لونُها... حتّى الظلامِ! -
أيُّ ليلٍ في دمي؟
أيُّ المَنايا تَلْبَسُ التيجانَ
في هذا المدى المهتزِّ؟
"- يا لوطُ انسَحِبْ!"
غيرَ أنّي
صِرتُ في ليلي بلا وجهٍ
أضيءُ الصبرَ في حزنِ الصلاهْ.
كنتُ شيئًا غامضًا
يمضي ولا يَلقى سِواهْ.
كنتُ طيفًا يرتمي في جوعِهِ المتدِّ.

"– يا لوطُ انسحِبْ!"

كنتُ أمشي باحثًا عن مؤمنٍ

لكنّ دربي كان يُخفيها السَرابْ...

ويذوبُ التَيْهُ في الخطوِ رَذاذًا،

ويُهيلُ الصمتُ في حلقي الترابْ.

– ٢ –

كانتِ الأرضُ تردُّ الليلَ فوقَ الليلِ،

والتيجانُ تُغوي وتجورْ،

وظلامُ العرشِ كابوسًا مَقيتًا

يَزرعُ الأيامَ عارًا وفُجورْ.

كان وجهُ اللهِ يدمى

في ظلامٍ بَربَريٍّ

مسَحَ التاريخَ زورْ...

قمتُ...

لكنَّ المَنايا

قَدَّتِ الدنيا إلى شَطرينِ من حولي:

سَبايا

وسبايا،

ورمانا الشرقُ تِفْلاً / أيُّ خطوٍ

داسَ وجهَ اللهِ؟

"– يا لوطُ انسحِبْ!"

ويمرُّ وجهُ العرشِ فوقَ دمي.

يمرُّ الرملُ،

تنفتحُ البقايا

عن كِذبةٍ قَدَّتْ جَلاجِلَنا

وقوَّضَتِ السماءْ.

مَنْ يرتَمي في التَيْهِ؟

مَنْ يتسلّقُ الدنيا إلى البُهتانِ؟

مَنْ مَسَحَ الضحايا

بدَمِ الأفاعي،

واستجارَ من الضياءْ

بدُجُنَّةٍ أعتى من القبرِ الرهيبِ؟

ومَنْ، تُرى، رفَعَتْ صَفاقَتُهُ عروشَ العار

فوق زمانِنا المَلْجومِ

وانتزعَ الجِباهَ من الشموخِ،

وكسّرَ السيفَ الذي امتصَّ الرعودَ من الأعالي؟

أيُّ العروشِ تقومُ في دمِنا

وتعصِمُها الليالي؟

أيُّ النِعالِ تمرُّ فوقَ جِباهِنا

والشعبُ مِمسَحَةٌ

تُغَطّيها الرمالُ على الرمالِ؟

– ٣ –

أمشي

وكلُّ نوافذِ الدنيا عيونٌ

ضاع منها اللهُ / لا خطوٌ

على زَهْوِ الرمالِ

سوى الضياعْ...

أمشي...

بقايا الخطوِ فَحْمٌ / كلُّ وَجْهٍ

غاص في زهوِ القِناعْ.

أمشي...

كأنّ معابدَ الموتى، هنا وهناكَ،

جوعٌ في ضمير الأرضِ.

"– يا لوطُ انسحِبْ!"

ورأيتُ ما حولي يضيقُ عليَّ،

والدنيا تُخاطُ إلى الدُجُنَّةِ،

والسماءُ إلى الظلامِ.

ورأيتُ أقزامًا تُخاطُ إلى العروشِ

وتجعلُ الرحمنَ سلعتَها –

تَبيع اللهَ في سوقِ النخاسةِ للبغايا!

مِزَقٌ هنا وهناكَ تستلُّ الجحيمَ

لتَسْندَ التاجَ المدمّى في الحطامِ.

ورأيتُ في وطني الشظايا

حملت بقايا الأنبياءِ إلى الظلامِ...

لا شيءَ في الخطواتِ غيرَ التيهِ.

"– يا لوطُ انسحِبْ!"

وإذا السَبايا
شعبٌ تحصَّنَ بالمَهانَةِ
في مَماسِحَ سُمِّيَتْ وطنًا.
من انتعلَ الكلامَ فصارَ أحذيةً،
وشدَّ العارَ في زهوِ الكلامِ؟
وإذا الضحايا
ضيَّعَتْ دمَها على الكفّار.
"– يا لوطُ انسحِبْ!"
هذا الهواءُ تثاقلَتْ أقدامُهُ في القلبِ.
"– يا لوطُ انسحبْ!"
هذا الظلامُ القاهِرُ المَنسوجُ من لحمٍ ودمْ
قد صارَ سورًا سامِقًا
طَمَسَتْ مَرارتُهُ الندَمْ
وتناسَلَتْ أشلاؤهُ في كلِّ خطوٍ
غاصَ تحتَ الرملِ.
"– يا لوطُ انسحِبْ!"
لا شيءَ من حولي سوى عار

ترامَتْ في دُجُنَّتِهِ البيوتُ.
لا شيءَ من حولي سوى مِلْحٍ
وشعبٍ لا يعيشُ ولا يموتُ...

– ٤ –

قالت ليَ الصحراءُ: "في رملي
خُطى نوحٍ وإبراهيمَ
والآتينَ من كَلِمِ السماءْ."
وقالتِ الصحراءُ: "في رملي
أرتَمي لَهَبُ "الكتابِ"
وقَدَّ صمتَ الكونِ
واختصرَ المسافةَ والزمانَ"
وقالتِ الصحراءُ: "يا لوطُ، اقتربْ
من منبعِ الخِصبِ الدَفيقِ،
ورُدَّ أصلَ النارِ نارًا
والعروشَ مدائحًا للمجدِ.
يا لوطُ انسحِبْ!"

ومشيتُ...

وجهي من بقايا الضائعينَ

وكلِّ مَنبوذٍ ومُحْتَضَرِ.

أطوي الصدى فوقَ الصدى

"- أنسَحِبِ...أنسَحِبْ...!"

ومشيتُ أبحثُ عن ملامِحِ إخوتي البشرِ

وملامِحي

"- أنسحِبِ... أنسَحِبْ!"

برجُ الردى يمتصُّ أقدامَ المُشاةِ ويلتَهِبْ،

ومنابعُ الكبريتِ تَشْهَقُ في جحيمِ الأرضِ:

"- يا لوطُ انسحِبْ!"

وصدى الرعودِ يُفَجِّرُ الغَضَبا.

مَشَيْتُ...

وكانتِ الدنيا تُزَلزِلُها البروقُ،

وتَفتحُ الآفاقُ فاها للجنونِ

وتَبْصقُ اللَهَبا.

لم أنسحِبْ.

وكأنّما الرُؤيا تحذّرُني:

"أنسحِبْ!"

لم أنسحِبْ.

قرّرتُ أن أجتثَّ طَبْعَ الكفرِ من شعبي،

وكسّرْتُ الغيومَ،

عَصَرْتُها في القلبِ طِيبًا مُلتَهِبْ.

لم أنسحِبْ.

ما أصعبَ الخَطَواتِ حين تصيرُ

ضائعةً كوجهي / كلُّ خطوٍ

داسَ تاريخًا وزَعزَعَ نفسَهُ،

ورمى اللهيبَ على اللهيبِ،

وشدَّ أحلامي على أحلامِهِمْ.

ما أصعبَ الخَطَواتِ!

تسير إلى بُرجِ الشمسِ لِتخلَعَها

وتُضيءَ الدنيا -

وجهي كلُّ دماءِ الدنيا،

كلُّ صهيلِ "الفتْحِ" متى اختُصِرَ "الفتحُ"

بريحِ كتابٍ
تَجْتَثُّ الدنيا من غُرْبَتِها في الرملِ
وتجتثُّ العرشَ المُتَصَدِّعَ
والتاجَ المنسوجَ بكلِّ دماءِ القَهْرِ
وأرغِفَةِ الشعبِ،
وتجتاحُ الليلَ
وتنسجُ من أبخرةِ الشمسِ بروجًا /
وجهي الصحراءُ متى انفجرَتْ
زَرْعًا ومِياهًا
وجِيادًا تقتلعُ العارَ
وتزرعُ راياتِ "الفتحِ" بكلِّ الدنيا –
وجهي الدنيا.
وجهي البرقُ
متى امتصَّ البرقُ بشاراتِ التكوينِ
وكَوَّرَ من طينِ الأرضِ حداثةَ أجيالٍ
يتقمّصها اللَهَبُ.
وجهي الغَضَبُ.

حين يُزَوبعُ تِيجانَ العار
على العرشِ المَرقوعِ بلحمِ البشَرِ.
وجهي كلُّ هتافِ الشعبِ الطالعِ من نار
تكسرُ زَندَ الحجرِ –
لم أنسحِبْ.
لم أنسحِبْ.
وجعلتُ من رؤيايَ مُلْتَهَبي
ومن وحيي لَهيبي،
وأمَرتُ تَنفجرَ السماءُ
لتستفيقَ النارُ في كلِّ الدروبِ،
ورشَقْتُ باللهَبِ الغَضوبِ
مَنابعَ الموتى وتيجانَ الدماءْ /
ألشعبُ يعبرُ في مَعاريجِ السماءْ.
ألشعبُ يعبرُ فوقَ أضلاعي،
وأضلاعي ضياءْ...

- ٥ -

طوبى لِمَنْ حَمَلوا على أكتافِهِمْ عبْءَ الصليبْ.

طوبى لِمَنْ جَبَلوا سيوفَ "الفَتْحِ"

من سُوَر "الكِتابْ"،

ومَضَوا إلى مُدُنِ السحابْ

يَبنونَ عرشًا للزمانِ

يُزَوبعُ الموتَ الرهيبْ.

طوبى لِشَعبٍ من غَضَبْ

أسَرَ الرياحَ

وجَيَّشَ الإعصارَ جُندًا / كلُّ صوتٍ

في المدى صوتي

وكلُّ الخطوِ خَطْوي: لا نَصَبْ!

طوبى للآتينَ من النار إلى كلِّ الدنيا -

وجهي الدنيا.

وجهي الشعبُ الطالعُ من آبار التكوينِ

إلى شمسِ الأرضِ.

أنسَحَبَ الليلُ.

أنسحَبَ التاريخُ المَقهورُ.

أنسحبَ العارُ الرابضُ فوقَ عروشِ التِيهِ.

أنسحَبَتْ تِيجانُ العرشِ المَرْقوعِ بلَحْمِ البشَرِ.

وجهي الغَضَبُ الخارجُ

من أبراجِ القدَرِ.

طوبى للوطنِ الطالعِ من سِردابِ الصبرِ

ومِن أطباعِ الحجرِ -

وجهي قدري.

وجهي كفّارةُ كلِّ ذنوبِ الدنيا.

طوبى للشعبِ الطالعِ من آبار التكوينِ

ومن زوبعةِ الغَضَبِ.

طوبى لِدَمي

حين يردُّ الدنيا أرضًا بكرًا

يعصمُها سورٌ من لَهَبِ...

(٢٥ / ٢٨ - ٨ - ١٩٩٥)

غضب موسى

- إلى شهداء مجزرة قانا -

"ورأى الشعبُ أنّ موسى قد أبطأ في النزول من الجبل، فاجتمع الشعبُ على هرون وقالوا له: قم فاصنع لنا آلِهةً تسير أمامَنا... فقال لهم هرون: انزعوا شُنوفَ الذهب التي في آذانِ نسائكم وبنيكم وبناتكم واتوني بها... فأخذها من أيديهم، وصوّرها في قالب، وصنعها عجلا مَسبوكًا. فقالوا: هذه آلهتُكِ يا إسرائيل التي أخرجتكِ من أرض مصر... وأصعَدوا محرَقاتٍ، وقرّبوا ذبائحَ سلامةٍ، وجلس الشعب يأكلون ويشربون، ثم قاموا يلعبون. فقال الربّ لموسى: هَلُمَّ انزِلْ، فقد فسد شعبكَ الذي أخرجتَه من مصرَ... وقال الربّ لموسى: قد رأيتُ هؤلاء الشعب، فإذا هم شعب قساة الرقاب... ثمّ انثنى موسى ونزل من الجبل... فلمّا دنا من المَحلّة رأى العِجلَ والرقص، فاتّقَدَ غَضَبُ موسى، فرمى باللوحين من يده، وكسرهما في أسفل الجبل..."

(سفر الخروج)

"وقال الربّ لموسى: هَلُمَّ فاخرج من هنا أنت والشعبُ الذي أخرجتهم من مصر... إلى أرض تدرّ لبنًا وعسلاً. وأمّا أنا فلا أصعدُ فيما بينكم، لأنكم شعب قساة الرقاب، لئلا أفنيَكم في الطريق..."

(سفر الخروج)

- ١ -

بين وجهي
والمدى المزروع أشلاءً
وفولاذًا ونارْ
لُجَّةٌ من جثثٍ
تَحْفُرُ ألواحَ الوصايا ، ودمارْ ...
وعيونٌ ترْقُبُ الغيبَ ،
كأني في مداها
حجرٌ يخترق التاريخَ نحو الغَيِّ .
كانت قامتي تُشرفُ مِن فوقِ دِماها
لترى أكذوبةِ التاريخ :
شعبًا قُدْتُهُ في البحرِ نحو الله ،

فارتدّ إلى العار ،

ومات اللّه في صخرِ الوصايا ؛

وتَرامَوا أضْبُعًا

تنهشُ أجسادَ الصغارْ .

بين وجهي وجنوبِ الأرضِ

فولاذٌ ونارْ ...

بين وجهي والوصايا

بَشَرٌ أوصَلْتُها في البحرِ نحوَ اللهِ

فارتدَّتْ عليهِ

أضْبُعًا تنهشُ أجسادَ الصغارْ ...

- ٢ -

قدمي يُغْرِقُها الرملُ

وعَبْرَ الدربِ لا مَنٌّ ولا سَلوى /

أمامي

وطنٌ يحفِرُهُ الجوعُ وأصواتُ الضحايا .

كلُّ نجمٍ قَدَّ وجهَ الصبحِ

وانقضَّ على موجِ المنايا

مَعْدِنًا يضرِبُ وجهَ اللهِ ،

يرتدُّ على لوحِ الوصايا .

قدمي يُغْرِقها الرملُ / هنا

ليلٌ جنوبيٌّ يلمُّ العارَ في قلبي .

أفي وجهي رمى التاريخُ نارَهْ

وتوارى

فورة تخمُدُ في عَتْمِ مَغارهْ ؟

كيف لا يخترقُ العارُ جفوني

وجفوني طهَّرَتْ أرضَ المعادْ

لتصيَر الأرضُ بورًا

بعدَ أنْ دَنَّسَها كُفْرُ العِبادْ !

وأشيدَتْ في ظلامِ البُرْجِ أبْراجُ لِبَعْلٍ

وضحايا

تحتَ أسْتار ظلامٍ باردٍ

حتّى الرمادْ .

أينَ شعبي ؟

مَنْ ، تُرى ، يَزعمُ
في هذا المدى المَرْصوفِ بالعَظْمِ
وبالكُفْرِ
وأبراجِ المنايا
أنَّ ميثاقًا يُعيدُ إليهِ مَجْدَ النور ؟
لا شيءٌ سوى عُبّادِ بَعْلٍ
يزرعون العارَ في كلِّ الزوايا
وتقوم شِرْعتُهمْ على جثث بَنَتْ ،
إذْ كَدَّسَتْها أذرُعُ الطُغْيانِ بُرْجًا للردى
سَمَّوْهُ " إسرائيلَ " .
آهٍ ! كيفَ يَدْمى في ظلامِ البرجِ
وجهُ اللهِ !
كيفَ يُقادُ نحوَ التّيْهِ شعبي؟
كيفَ تُخترَع الحَكايا
ليقنّعَ الطاغوتُ وحشًا ضاريًا
ويظلَّ يرفعُهُ إلهًا
فوق أشلاءِ الضحايا !

ماذا فعلتُ ! وكيفَ تُغْتَفَرُ الذُّنوبُ ... !
مَلَّكْتُ شَعْبًا يذبحُ اللهَ
فلا تكفيه ألواحُ الوصايا
أو يتوبُ ... !

- ٣ -

أمشي إلى التاريخِ ،
والتاريخُ يَرْجمني ...
تمشي إليّ كواكبٌ
وتُواكبُ الآياتُ " شعبًا قاسيًا " /
يا ربُّ صوتُ الوَحْيِ يَصدِمُني
ويهُزُّ أعماقي / كأنَّ الأرضَ زلزلَهَا المغيبُ .
كأنَّما الصحراءُ أغْرقَها الظلامُ
وأضَلَّني ما قُدْتُ مِنْ بَشَرٍ
إلى أرضِ المَعادِ ؛
إذا بوَحْيي في دُجُنَّتِها رُكامُ ،
وإذا بكُلِّ البَدْوِ في الصحراءِ تخرجُ عَلْقَمًا :

شَعْبًا عقيمًا مَجَّ حاضرَهُ القَتَامُ

ومضى إلى التاريخِ مِمْسَحَةً

يُزاحُ بها غُبارُ الغَرْبِ ،

أو عرشًا

تُرَصِّعُهُ الجماجمُ والعِظامُ ...

أمشي إلى التاريخِ ...

في خَطَواتيَ التَّعَبُ .

أمشي ... وكلُّ جماجمِ الموتى

تُشيرُ إليَّ في غَضَبٍ وتنتحبُ .

وجهي مَراراتُ العصور

تجمَّعتْ في دمعةٍ من عينِ طفلٍ

ماتَ في " قانا " / دمي دمُهُمْ .

ووجهي ...

أيُّ عار كانَ في وجهي !

رمَيْتُ رميتُ في الدربِ القديمِ ملامحي ،

ورميتُ وجهي ـ

ليسَ شعبي من دمي .

لستُ الذي قادَ العُبورَ إلى بروجِ الموتِ .

لستُ نَبيَّهُمْ .

لكنَّني أمشي إلى التاريخِ

والتاريخُ يُفْجِعُني بهِ عارٌ زُؤامُ .

لستُ الذي قادَ العبورَ إلى بروجِ الموتِ

يَحْميهِ الظلامُ ،

ويَلُفُّهُ تاجٌ على عرشٍ

تُرصِّعُهُ الجماجمُ والعِظامُ ...

ـ ٤ ـ

أمشي إلى أرضٍ

يُقالُ لها : " جَنوبُ " .

أمشي ...

وخَطْوي يَدْفِقُ الأنهارَ في قلبي

لِيَخْضَرَّ الشُّحوبُ .

وتَدَفَّقُ النَّجَماتُ في كَفَّيَّ ،

تَنْفَتِحُ الزوايا والقلوبُ
لِقوافلِ الغُفْرانِ / آتٍ يا جنوبُ ...
ألريحُ تحمِلُني ويحْمِلُني الشَجَرْ
وأمُرُّ في الرعدِ الذي أخترقَ الثمارَ ،
أمُرُّ في نَبْضِ الحَجَرْ
وأرى الثكالى واليتامى يَمْتَشِقْنَ الرعدَ ،
والفجرَ المعلّقَ في مَراراتي يذوبُ .
ألريحُ تحملني وأعْبُرُ في الصُّوَرْ :
طفلٌ يصُدُّ بكفّهِ زحفَ الوحوشِ .
زنابقٌ تمشي وتفتحُ صدرَها للنار ،
تَعْقُدُها شَرَرْ .
بيتٌ يضمُّ الشمسَ . يَحْضُنُها .
وتَنْجَذِرُ البَشَرْ
في عُمْقِ أعماقِ التراب /
" هناكَ يا موسى " _ تُشيُر يدٌ إليَّ
منَ الضياءِ _ " هناك يا موسى " .
وأصْعَدُ قِمَّةَ الدنيا على ظَهْرِ الجنوبِ :

أماميَ اللهُ الذي أنْبَثَقَتْ وصاياهُ
من الألمِ العميقِ ؛
أماميَ النارُ التي حَفَرَتْ
على صخرِ الجنوب ضميرَها ،
وضَميرُها شَعْبٌ يَرُدُّ الموتَ بالكفّين
عاريتين حتّى العَظْمِ .
" يا موسى ، هناكَ ... هناكَ يا موسى " .
وأصْعَدُ قِمَّةَ الدنيا على ظَهْرِ الجنوبِ ؛
أرى أمامي اللهَ يَسْكُنُ دمعةً
من عين طفلٍ ماتَ في " قانا " .
وتَنْحَفِرُ الوَصايا
في اللحمِ والأشلاءِ من جُثثِ الضحايا ... !
وأرى لهيبَ اللهِ
يحفرُ في السماءِ وفي القلوبِ
ميثاقَ إخوتيَ الجديدَ .
" هناكَ يا موسى ،
على ظهرِ الجنوبِ بقمّةِ الدنيا

تعلّمتَ النبوّةَ من جديدٍ . "

يفتحُ التاريخُ كفّيهِ ويَحْمِلُني

إلى أعماقِهِ الحُبْلى .

أضمُّ إلى زُنودِ الناسِ زندي .

تَنهضُ الآفاقُ فينا والنُبُوَّةُ .

أفتحُ التاريخَ من ميثاقِ إخوتيَ الجديدِ

وأضربُ الدنيا ، فتنزاح المنايا

عن قصةِ الشعبِ الذي في لحمِهِ

أنحفرتْ جذورُ الأرضِ .

أنزِلُ حاملاً لوحَ الوصايا :

_ طفلٌ يَصُدُّ بكفّهِ زحفَ الوحوشِ .

_ زنابقٌ تمشي وتفتحُ صدرَها للنار ،

تعقدُها شرَرْ .

_ شَعْبٌ يَرُدُّ الموتَ بالكفّينِ

عاريتينِ ... حتّى العظمِ ...

_ تنجذرُ البشرْ

في عمقِ أعماقِ الترابِ ...

أرى أمامي اللهَ يسكنُ دمعةً

من عَيْنِ طفلٍ ماتَ في " قانا " ،

وتَنْحَفِرُ الوصايا

في اللحمِ والأشلاءِ من جثثِ الضحايا .

نمشي ، وفي خَطَوَاتِنا قمحٌ ،

وتاجٌ من عَبيرِ الأرضِ .

نمشي ، والمدى حقلٌ من الأنوار

تُخْصِبُهُ القلوبْ ،

وتَخُطُّ في لوحِ الوصايا

أن تُغْرَ اللهِ قَبَّلَ تربةً حمراءَ

سمّاها الجنوبْ ...

(٢٢ – ٤ – ١٩٩٦)

جهنّم

" رأيتُ في أروقة الجحيم بشرًا لا
يعيشون ولا يموتون . "
(دانتي- الكوميديا الإلهية)

- ١ -

في عيوني
طُرُقٌ تَمْتَدُّ من لحمٍ
ومن عَظْمٍ وأشْلاءِ بَشَرْ ،
وتَفورُ النارُ جُدْرانًا مِنَ الجمرِ ،
تَغوصُ النارُ في صَلْبِ الحَجَرْ ،
وَعيونٌ تتوارى
خلفَ سُورٍ مِنْ جُلودِ الناسِ
يَعلو في الجحيمْ ،
ويُواري وَجَعَ الأشْياءِ في رُعبِ المدى
ليلٌ بَهيمْ

ووجوهٌ تُحْتَضَرْ ...
لم يكن في غابة الرُّعْبِ
سوى هَولِ الهَباءْ
وسوى عينينِ من صَخْرٍ
تَرُدّانِ الضياءْ
عن عُقول يَبِسَتْ حتّى العَصَبْ ،
وعقولٍ من حطَبْ
سُمِّيَتْ شَعْبًا على هذا المدى المَنْسوجِ
مِن هَولٍ وعَظْمٍ ومساءْ ...

غارَتْ على الآفاق أحلامٌ ، ومَرَّ الذُّعْرُ مُرْتَعِدًا -
كأنّ الليلَ يخترقُ الجُلودَ إلى فضاء الروحِ ،
أوْ
يَنْشَقُّ وَهْجُ الشمسِ
عنْ هَرْجِ الدُّجُنَّةِ والغُبارْ .
غارَتْ عَلى العَينينِ دربٌ . كانتِ الخَطَواتُ
يُغرقُها سُكونٌ باردٌ حتّى الجليدِ

سوى صراخِ الصمتِ يَصْدَعُهُ شِعارْ :

عرشٌ تُرَقِّعُهُ جلودُ اليُتْمِ

في بؤسِ الصغارْ .

ومشيتُ في هَلَعِ الجحيمِ /

يمرُّ من تحتي سَرابٌ ماحلٌ

ويَدانِ من قشٍّ

وعَينٌ من حِجارْ

وحصًى تسدُّ الأُفْقَ فوقَ حصًى

وآلافُ الطَواطِمِ والتعاويذِ الجريحةِ / بينَ

عيني والدموعِ الجارياتِ

تَهَدُّمُ التاريخِ ، أو

وَجَعُ الشظايا وَهْيَ تَحتضنُ الشظايا .

أيُّها التاريخُ ، يا وجهي ،

ويا غُرَفًا من الدمِ في انحدار الشرقِ ،

يا كَذِبَ المرايا

حينَ لا يبقى سوى عرشٍ

تُرَقِّعُهُ جلودُ اليُتْمِ في بؤسِ الصغارْ !

وجعٌ على وجعٍ ،

وأشلاءٌ تُشَظّيها على الطَرَفَينِ وَلْوَلَةُ القطارْ ...

– ٢ –

وجهي تِلاواتٌ يُجَوِّدُها الأسى ،

وجهي ترابٌ أصفرٌ يمتدُّ في وطنٍ

بلا وجهٍ ، ولا شكلٍ ، ولا ظلٍّ –

تِلاواتٌ هو الوَطَنُ البعيدُ كثوبِ زَنْبَقَةٍ

وبعضُ بقيّةٍ من لفظِ إنجيلٍ

تَناثرَ في هبوب الليلِ .

وجهي ...

ليس في وجهي سوى تاجٍ تُرَصِّعهُ عُيونُ البؤسِ

في تاريخنا المقهور –

وجهي كلُّ أشلاءِ الجياعِ

وكلُّ دمعٍ في عيونِ الثكلِ ،

وجهي

قبلةٌ حمراءُ مارت في شرايين الصدى .

وجهي الجَنوبُ
وكلّ ما زَرَعَتْ زُنودُ الزنبقِ الزاهي
على عُرْسِ الدماءْ ...
ما زالت الأشياءُ من ثلجٍ
يُهَشِّمُ رُوحَها زَحْفُ الهَباءْ .
ما زالت الدنيا قِناعًا معتمًا
والحقُّ طاغوتًا على عرشٍ
تُرَقِّعُهُ جلودُ الناسِ
في جوع المساءْ ... !

- ٣ -

عانيتُ في غَبَشِ الضياعِ مَجَرَّةً
فُتِحَت على ليلٍ بهيمٍ . والمدى
صخرٌ على الصدر المُكَسَّرِ / ليسَ وجهي
غيرَ ناقوسٍ
يلُمُّ التَيْهَ فوقَ التَيْهِ .
والوطنُ المعذَّبُ صخرةٌ

تُلقى على أكتافنا ،
وجَهَنَّمٌ عَصَرَت بفَوْرَتها القَدَرْ
وتحوّلتْ صُوَرًا
تمرُّ على مرارتها الصُّوَرْ :
وَحْشٌ يَرُدّ الجِسْمَ أشلاءً
ويَنْتَزِعُ العقولَ .
بقيّةٌ مِنْ هَوْلِ كابوسٍ تُفَتِّتُ ما ترامى
من رجاءِ الصبْرِ في بردِ الحَجَرْ .
وَجَعٌ على وجعٍ ،
وشعبٌ صَوَّرَتْهُ النارُ
مِنْ غَيْرِ البَشَرْ -
عانَيْتُ في غَبَشِ الضياعِ
تَفَجُّرَ القَهْرِ المقنَّعِ بالضياءِ -
ولا ضِياءَ سوى الرمادْ
وسوى مُسوخٍ رُكِّبَتْ خَطَأً على أجسادِها
تمتصُّ يُتْمَ النار
والجوعَ المخَبَّأ في السّهادْ ،

وتسيرُ زاحفةً كيَنْبوعٍ ذليلٍ
نحو أقدامِ الطُّغاةِ لتكسرَ الدنيا
على تاجٍ صغيرٍ في جَهَنَّمْ !
عانَيْتُ في غَبَشِ الضياعِ
تَقَهْقُرَ الأحلامِ في ليلٍ تَرَنَّمْ ،
ومضى على ظَهْرِ المُسوخِ يُرَقِّعُ الدنيا
ويخترعُ المُحالْ
والشعبُ مِمْسَحَةٌ
يُجَرْجِرُها قِناعُ الزيفِ
في إثرِ النِّعالْ ...

– ٤ –

وَمْضٌ ...
وتاريخٌ يَميعُ على رمالِ النار .
وَمْضٌ ...
والصدى كَهْفٌ من الزَفَراتِ يَسْحقُ حِسَّنا
وَيُفَتِّتُ الطَّفَراتِ ،

يَذْروها رمادًا باردًا فوقَ المدى .
وَمْضٌ ...
ويَرْتَقِصُ الصدى فوق الصدى .
وَمْضٌ ...
كأنّ الأرضَ ماعَتْ تحتَ أقدامِ الوَرى ،
وكأنما الحُقَبُ
لُخِّصْنَ في تاريخِ أقزامٍ يلمُّ العارَ فوقَ العار /
كان الصمتُ أبراجًا يحرُّ الأرضَ مِن حَولي
ويلتهبُ
وسَوطُ النار يزحف في ثنايا الجِلدِ :
كان الرعبُ يجتاحُ القلوبَ
وكانت الدنيا تدورُ على الرَّحى مَسْحوقةً كالحَبِّ .
آهٍ ! كم ذَرَفْتُ الدمْعَ مقهورًا على شُبّاكِ بيتي
وانتظرتُ مجيءَ نور كاليمامةِ أبيضًا –
ربّاهُ ! كمْ جَرَّحْتُ حَنْجَرَتي
لِتُزهِرَ في خطايَ الشمسُ
أو ليقومَ من بينِ الجثثْ

وطني ، وينشقّ العبثْ ...

لكنَّ أنصابَ الرمادِ على عروشِ العار

أغمَدْنَ الدموعَ بمقلتيَّ

وصار لحمي تُرْبَةً لليأسِ ألْحِدُ فيه أحلامي

وتُلْحِدُني شُعوبٌ ساكنَتني جُثتي –

مَسْخٌ يُكوّر حِقْدَه بَشَرًا

وأبراجًا تُعَلّيها مُسوخْ

ويصير سلطانا ، ويَنْفُخُ جسمَه بالقشّ ،

ينفُخُ عَرْشَهُ بالتِبْن ،

يُخفي ذُلَّه المفتوحَ في وجهٍ يَبوخْ ...

مَسْخٌ يروِّعُهُ الغَضَبْ

فَيُشيدُ سُورًا مِنْ ظلامٍ

فوقَ طَفْراتِ العَصَبْ ،

والشعبُ ظلٌّ من رمادٍ

باردٍ مثلَ الجليدِ ،

ومن حَطَبْ ... !

– ٥ –

بَشَرٌ على الليلِ العَظيمْ .

بَشَرٌ تَفورُ على ضبابِ التِّفْلِ

في لُجَجِ الجَحيمْ ...

بَشَرٌ تمطُّ وجوهَها جُرْدًا وفئرانًا ،

وتسعى بين أشباح العروشِ

لِتَلْعَقَ النَعْلَ التي داست على جَبَهاتِها /

بَشَرٌ... بَشَرْ...

بَشَرٌ تُجَرْجِرُها المُسوخُ

كما يقودُ الذَّبْحُ قُطعانَ البَقَرْ.

بَشَرٌ ... بَشَرْ ...

ألشاعرُ المَخْصِيُّ يَركعُ في جُيوبِ وَلِيِّهِ :

كَفَّاه مِبخرتانِ

والشِعرُ المُنَمَّقُ يَلْعَقُ الخَطَواتِ حولَ العرشِ ،

يَمْسَحهُ برَغْوَةِ تِبْنِهِ

وتَغورُ فيهِ

رَغوَةُ الزُّلْفى – تُغَطّيهِ

ويَنْفَجِرُ الصدى في لونِ عينيهِ ...

بَشَرْ ...

بَشَرٌ ... بَشَرْ ...

تَطْفو على لُجَجِ الجحيمِ

وشِعرُها تِبْنٌ يُزَوْبِعُ ما تعالى

مِن كراماتِ الجِباهْ ،

يَنْسَلُّ في جيبِ الوَلِيِّ

لعلَّ فَلْسَ الذُّلِّ يحمله إلى قِمَم الرَفاهْ .

تِبْنٌ يفور ، ورَغْوةٌ ...

تِبْنٌ يفور ، ورَغْوةٌ ...

تِبْنٌ يفور على عروش من حجرْ ...

بَشَرٌ ... بَشَرْ ...

تطفو على لُجَجِ الجحيمِ بلا جِباهْ ،

لا الموتُ يَنْفَعها ،

ولا عُمْقُ الصلاهْ ...

تِبْنٌ يَفورُ ، ورغوةٌ :

ألعُمْرُ زَوْبَعَه الصدى ،

والمَعلَفُ المَلعونُ يَنْفُخُ جِسْمَنا بالقَشِّ

والتبْنِ العَريقْ –

تِبْنٌ يفور ، ورَغوةٌ

تُعْمي مَصابيحَ المدى ...

عانيتُ في غَبَشِ التزَلُّفِ والضياغْ

آلامَ أجيالٍ من المُرْدِ الطِوالِ

مُسِخْنَ جُرْذانًا

على صحراءِ ليلٍ يَتَرَنَّمْ .

عانيتُ هَولَ القَهرِ يَهوي

خَلف أسْتارِ القِناعْ

ودُجُنَّةِ الهلَعِ المُزَوْبِعِ في جَهَنَّمْ ... !

لم يبقَ غيرَ وليمةٍ للرعبِ

شَقَّتْ دربَها

وقوافلِ الوجعِ المُضَعْضَعِ ، والغُبارْ ؛

لم يبقَ غيرَ مرارةِ الزمنِ المُكَسَّرِ

في لحومِ الناسِ ،

والتِبْنِ المُفَوَّر في النُّضارْ ؛
لم يبقَ مُنْتَصِبًا سوى عرشٍ
تُرَقِّعُهُ جلودُ اليتْمِ في بُؤسِ الصِغارْ ...

(أيار – ١٩٩٧)

الشعر الجديد و"رؤيا" ديزيره سقال

قديمًا كان الشعر العربي خاضعًا لنواميس وقوانين جعلت نقّاد الأعصر السالفة يُسمّونه "صناعة"، لها أصولها الفنّية ومقاييسها وعروضها وقواعدها وموضوعاتها وأساليبها؛ وكانت هذه "الصناعة" خاضعة لمتطلّبات اجتماعية واقتصادية – سياسية تتحكّم بها. فالشاعر كان مَحْظيًّا عند أمير أو خليفة، وكان هذا "الراعي" يعطي بيد، ويدمغ الشعر بمَيْسم المحافظة باليد الأخرى.

ومع الآونة الحالية، وتغيُّر المعطيات الاجتماعية والاقتصادية – السياسية، وبعد الانفتاح على الغرب، برزت معطيات جديدة غيّرت مسار الشعر. وقد تمثّلت هذه الظاهرة بزوال البيت الشعري بمفهومه الكلاسيكي، وبزوال مفهوم النوع الأدبي، فأصبحت الأعمال الشعرية لا تُصَنَّف في باب (كالغزل، أو الفخر، أو الهجاء...) واستُبْدِل مفهوم "الوحي" Inspiration بمفهوم "التَوْق" و"الطموح" Aspiration، فلم يعد شعراء اليوم ينتظرون هبوطا ما عليهم، إنّما يندفعون تحت تأثير طاقة لا قدرة لهم عليها نحو طموحات يتوقون

إليها وينزعون نحوها. ولم يعد شعراء اليوم يصنّفون الموضوعات فيعتبرون بعضها شعريًّا (الحبّ، الموت، الحنين...) وبعضها غير شعريّ، ولكنهم باتوا يقولون شعرهم بشكل مباشر، محاولين اختصار المسافات بين العالم وبين الكلمات.

وهكذا نشأ عِرق جديد من الشعراء، أو قل من الأنفُس الشعرية.

وبات هؤلاء الشعراء يميزون بين "الشعر" Poésie من جهة، وبين "الشعريّ" Poétique من جهة أخرى؛ وقد وجدوا في هذين المفهومين نَسَقَي وجود يتلاقَيان في القصيدة بشكل صاعق، خاطف؛ فلا يعود يتميز الواحد منهما عن الآخر. وأدركوا أن الشعر لا يمكن أن ينفصل عن الشعريّ لأنه بذلك ينفصل عن كيانه أو وجوده؛ كما أن الشعريّ يصبح هاربا كومض البرق إذا تخلّى عن الشعر. وبات الشاعر الجديد يحافظ على المسافة بين هذين القطبين المتشابهين والمنفصلين في آن، محاولا التوفيق بينهما في القصيدة ولو للحظة واحدة، محافظا على مظهريهما البيّنين من جهة، والملازمين لطبيعة القصيدة من جهة أخرى، لأن مهمّة القصيدة مع الشاعر الجديد تتألّف من كلمات، ولكن كلماتها لم تعد من حروف وحسْب، بل من كيان الشاعر.

وإذا سلّمنا أن الشعر لغة ووسيلة اتصال، يكون الشعر الجديد متّصلا بالعالم وبكل ما هو شعريّ فيه، وبما يمكن أن يصير شعريًا بفضل القصيدة الناطقة بلسان طموحات الناس غير المعقولة، والتي قد تحمل أحيانًا مشعل آمالهم، كما تحمل أحيانا أخرى أعلامًا منكّسة تنعى خيبتهم، وتزفّهم مأساتهم.

فأين هي قصيدة "رؤيا لتاريخ أبي عبد الله" لديزيره سقال من هذا المفهوم الجديد؟

لقد زال فيها البيت الشعري بمفهومه الكلاسيكي، وأصبحت غير قابلة للتصنيف في باب من أبواب الأنواع الأدبية المعروفة، وظهر فيها التَوْق والطموح إلى مجتمع قادر أن يتعلّم من تاريخه، ولكنّه لا يتعلم – لأن التاريخ يعلّمنا أننا لا نستطيع أن نتعلّم منه – واتّسعت فيها "أنا" الشاعر لتعبّر عن قضية العالم العربي التائق ولو بشكل مغفّل إلى الخروج من معاناته، ولتصوّر خيبته الكبرى ومراراته إثر تردّيه بالفشل المُصَوَّر بدموع أبي عبد الله الذي بكى كالنساء مُلكًا لم يحافظ عليه كالرجال. وقد ظهرت في القصيدة الكلمةُ بنبض جديد كأن حروفها قُدّت من أوتار قلب ديزيره سقال، جِدّتُها في اشتقاقها حينًا، وفي إيحائها المجازيّ حينًا آخر. وكذلك الصورة التي استحالت مزاوجَة غريبةً تستغلّ النقائضَ القاموسية، وتضرب المفهومات الواعية

لتضعكَ في الحالة التي يدعوك إليها الشعر. وهاك التقسيم فيها بين المداخل الستة ومقاطع الخروج المؤدية إلى "رقع من تاريخ أبي عبد الله" حيث تمرّ بنوبات الألم مع مخاض الشرق لتصل إلى المولود الجهيض، إلى القضية الطِرْح. وعلى "شواهد قبر أبي عبد الله" عظات لقوم يفقهون، ووميض ثورة لمن يتفكرون. فما اقرب هذا التقسيم في القصيدة من الحركة في السمفونية! وما أدنى هذا اللون من الفنون التشكيلية!

بكل هذا تظهر هُوِيَّة ديزيره سقال الشاعر الجديد.

وإن لم تكن هذه المرة الأولى التي يعاني فيها الشعراء العرب الجدد موضوع هذه التجربة – ما يبرّر حينًا وجود نقاط تماسّ بين ديزيره وخليل حاوي، أو بينه وبين صلاح عبد الصبور وعبد الوهاب البياتي – فإن ما لا شكّ فيه أنّ هذه القصيدة تُرينا شاعرا جديدا من طينة القادرين على شقّ طريقهم في مُزدَحَم الأقدام...

– جوزيف أبو شقرا –

(١٩٨٧)

ديزيره سقال، تجربة مكمّلة

١ – عندما عرّف ابن شرشير الشعر قال: هو "محل البراعة وشاهد الصواب." ويوم تأمل الجاحظ في الشعر رأى أجوده ما هو متلاحم الأجزاء كالنسيج المتقن. وفي التراث العربي تقلّبات عدة لمفهوم الشعر، فردّ الشعر مع أبي العتاهية إلى بائع الباذنجان، وأعيد مع أبي تمام إلى الفكر والبيان، وحَضَن مع المتنبي تجاربَ الإنسان والزمان. ولا نغرق في موضوع لا ينتهي، ونختصر: وقالت العرب إن معيار الجودة في الشعر هو تحقيق مفاتيح موضوعية تتعلّق بالعمود الشعري. وما العمود؟

أن يكون المعنى صحيحا، واللفظ جزلا مستقيما، والوصف صادقا، والتشبيه قريبا؛ وأن تكون الاستعارة مناسبة، والأجزاء ملتحمًا بعضها ببعض، وأن تجيء القافية متساوقة مع اللفظ والمعنى على صورة طبيعية لا تكلُّفَ فيها.

٢ – سؤالنا الثاني بعد هذا التمهيد: كيف يرى الشاعر الحديث إلى بعض هذه الحقائق؟

قسم من شعرائنا اليوم لا يسأل عن مقاييس، تحرّر من كل قيود، ونَفَضَ غبار الماضي، وبرأ منه أو من تجارب الغرب. ولهؤلاء آراؤهم. وقسم اطّلع على تجارب الغرب الشعرية وأغرم بها وتبعها متحررا، محاولا تسريب مناخ شكلي ومعنويّ جديد في القصيدة العربية. ويتميز هذا القسم عن الأول بأنه تابع، وليس له رأي سوى ما يقوله الغرب.

وقسم ثالث، وهو الذي لا يبحث عن شرق وغرب فيما يكتب. ولا يتصور أن المقاييس قيود؛ ولا يتصوّر أن التحرر تفلُّت؛ ولا ينقطع عن تراث؛ ولا تنقصه تطلّعات. ويكتب هاجسه البراعة والشهادة للحقّ بمعناه الشامل. هذا النمط من الشعراء هو الأقرب إلى الأصالة والشمولية.

٣ – قلنا ما سبق لنشير إلى جدية تجربة ديزيره سقال في ديوانه الثاني "كتاب الشاهد ويليه كتاب ملوك الطوائف".

أطلّ سقال من بين الشعراء الجدد، وفي قصيدته ثلاث فضائل فنّية قد يكون افتقر إليها مجددون كُثُر: أولاً: قدرة الشاعر على اللعب بعمود الشعر بليونة ومهارة. له علاقة بالتراث العربي تغور في أعماقه، وتستوحي الجواهر، وتُطَوّعُ الأشكالَ لاحتمالات الرؤى.

ثانيًا: خلفية الشاعر، فهو ينتمي إلى أرض وسماء وإنسان، له تاريخ وواقع ومستقبل، لا يوجد كفرد، لكنّه الأمّة من ضفافها إلى ضفافها. هو الجرح فيها والثورة والعزاء. لا يتحرّك في جزء منها حجر إلا وينبض له قلب الشاعر بصدق الأطفال وبحماسة الرجال. ولا لزوم للكلام على ثقافته – الضمانة لغِنَى القصيدة، وليس لقتلها.

ثالثًا: أهم ما في سقال الشاعر أنّه يعاني ويكتب، ولا يكتب ليلفت الأنظار أو ليخطب أمام التجّار أو ليلعن أو ليبارك... كَتَبَ قبل الحالة وكَتَبَ بعدها. وقُدِّرَ لي أن أعايشَه منذ بدء الثمانينات، في قرية واحدة، فعايشت فيه التصاقه الحميم، وموهبة الاشتعال قبل الانفجار. وأقصد أنّ الذي ينفجر في حدود المكان الخارجيّ يكون قد اتّخذ فيه صورة الاشتعال. ففي أيار ١٩٨٢ كتب "الحطام"، قال: "وفي ضلوع الصمت بركان من الأشلاء."

كان أبو القاسم الشابي رأى حياة الناس سخافة تائهة في ظلمة لا تُحَدّ. ثمّ نظر خليل حاوي إلى خريطة العرب، فلم يجد سوى "دخنة فحم من محيط لخليج". ثمّ حمل يوسف الخال شعلةً مُمَيِّزًا نورُها، وحاول إضاءة الظلمة التي تكشح الدخنة. واليوم أشبهُ بغَدٍ، وأحزانُ الشعراء تكبر، والظلمة تمتدّ، والعجز أقوى. وكلّ الصراخ

الذي أطلقه عصب الشعر منذ سنين بقي أشجارا في الهواء بلا تربة وبلا دماء. وهذه قطعة جديدة من الصراخ، قال سقّال:

"فحمٌ على فحمٍ يُراوحُ في المدى.
وتظلّ تركض عبرَ صحراء الرمال فريسةً
ينهار بين ضلوعِها رُعبُ الصدى."

من طبيعة هذا الشعر، ذي المضمون، أن يتّسم بالعنف في بناء الصور ونظام الأفكار وسَوْقِ العواطف الخَفِرَة التي يطغى عليها الفكر في ذروة تفجّره واختناقه: "هذي عصور القادمين من الرماد تغيضُ رايات بقلبي: هُبّ، يا صَلصالُ، واحتضِنِ الدماءَ، وشَأْ يكنْ في صَولِكَ الداجي صَفيرُ."

في "كتاب الشاهد" تلوّن وجهُ الشاعر بالأرض. وفي "ملوك الطوائف" أقام الموتى الملوك من قبورهم العتيقة والدائمة، وقَصَفَهُم بكلّ أتعاب الإنسان العربيّ المكسور، وبكلّ أوجاع تاريخ من الحطام:

"كانت حولكمْ بُقَعُ الفضاءِ المزّق وأشلاء الشمس
وهي تفضح الذاكرة."

وقال:

"فَلْيَكُنْ ما كانَ:

أقدامُ المدى كُوَمٌ من التاريخِ
يمسحُها الصدى وينامُ..."

هذا شعر ينقل إلينا عذابَ الرائي في أمّة مستقبلها تاريخ يتكرر. حاول سقّال اكتشاف علامات لضوء يأتي من مسافة ما، لكنّه لم ينتهِ إلا إلى الفراغ والصمت والرماد. إنّ تجربته الشعرية تتابع تجربة حاوي وتكملها. فالليل طويل، والوعد مستحيل، وقد يؤدي ذلك إلى انتحار كلّ الشعراء، وإلى عشق تراب القبر وحده! ما دامت الشعوب "تسكن في مهزلة سموها وطنا"، وما دام الله عافَ الحياة بعد أن ندم على إشراكِ الإنسان فيها.

رؤية سقال صادقة، لكنّها راعبة. تفضح الواقع، وتنشر غسيلَه الوسخ فوق سطوح الكلمات. تفضح للتغيير وللارتقاء بالمصير لكنّ قدر الشعراء أن يصرخوا، وقدر الأمّة أن تتغطّى بالوحل.

– الدكتور ربيعة أبي فاضل –

(١٩٨٩)

كتاب الشاهد ويليه كتاب ملوك الطوائف

يشهد الشاعر على زمنٍ خراب، ينتقل فيه من خيبة إلى خيبة، ومن رفض يقارب الثورة إلى رفض، باحثًا عن مكان يَفِيءُ إليه وشمس تحرقه ولا ظلال، وعن تراب يُريح رحيل قدميه المحروقتين بلظى الصحراء...

"الخارجون من الضباب" يأتون إليه، وحشد من القطعان "تحشد زحفَها عبر الحقول"؛ وتنقشع الرؤية على سماء تميع بين الأصابع القابضة على فراغ، وعلى أشلاء "ترقد بين القتل حازمةً حبائلَها"!

مأساة الشاعر هنا هي مأساة الإنسان الحديث القابع في عالم داخلي أصغر من أن يسعه، والمشدود إلى مساحات للنور، كما السراب لا تَبين له حقيقة.

مشدود هذا الشاعر إلى زمنه، جغرافيًّا وتاريخيًّا، يقبض على وتر مأساته، في الوطنِ والتاريخ من أوّله، ويضربه عميقًا، ويستمر في ضربه حتى يُحَشرِج وينقطع.

قد يكون سقال مُتْقِنًا للعبة الخروج من المأساة في الشعر، ولكن الواضح أنه يوغل في مسافات الدمع والحزن والتمزّق، ويوغل حتى لا يعود يُسمع له إلا الصراخ:

"بين الصدى والليل زوبعة من الصمت،
انتظار غارق في الأرض، بين محاجري والدمعِ خيطٌ
من رَذاذ الحقد – يا نفسُ اهدإي! ... سأغيبُ حتى
في سديم موغِل في الثلج، أترك مَطرحي للوعر، يا
نفسُ اهدإي! سأغيبُ في صنّين محترقًا كما يتدافع
الوعِلُ المُهاجِم عبر أنقاض...
أنا الصبرُ الطويلُ،
أنا النحاسُ..."

ويستمر الشاعر في إيغاله نحو المأساة بالزخم نفسه، يمرّ بها على التاريخ فيرفده، ويمرّ بها على الجغرافيا فيزداد تمزيقا بتمزيقها. وكأنه على بداية درب طويل لنفق طويل، قد يكون في آخره انبلاج وقد لا يكون:

"وأظلّ في نيسانَ جرحًا، في صفيح الليل،
في الزهر الذي انطرحت بقاياه نحاسًا أو جليدًا. لم

يكن للفجر أن يدري وصارية البروق تهدّ أحشاءَ
التراتيل الطويلة...
قلتُ: يا نفسُ اهدإي أو يستجيبَ القفرُ
للطغيانِ، يا نفسُ اهدإي حول الصدى كي يستكينَ
هُبوبُكِ الأعمى على نهرٍ بلا مجرى وماءِ."

وكما يتكسّر هو في وجعه تتكسّر القصيدةُ في شكلها، وتتناثرُ معانيَ يكسر بعضُها بعضًا في ألقٍ ذهنيّ مدهش:

"رجلٌ
يتكسّرُ
في
أرضٍ
تتكسّرُ
حولَ
ترابٍ
يتكسّرْ..."

وبعد التكسّر تنشأ دولٌ ليست هي بالدول، وتتشوّه الجغرافيا حتى لا تعود تتحدّد لها مسافة، ويصفرّ الزمن مُعولاً، ويتقلّص وبيلاً.

أهو الخوف من دويلات آتية تمحو مكان الإقامة، وتُلغيه إلى الأبد؟ أم هي رؤية الشاعر تنبئ بما هو آتٍ؟:

"سيولدُ التاريخُ مصطدِمًا بأحصنةِ الهَبـاءِ...
فهُبَّ، هُبَّ، يُـها الحديـدُ، ومُرْ يقُمْ زبَـدٌ بـأمواج
البحار ويصدعُ الأشياءَ في حجر الهديرِ
وليكنْ موتٌ بموتٍ
فالطوائفُ أرّخت لضميرها موتًا
وأدمَنَتِ المساءْ...
هذا أوانُ الشرْخِ
فليكُنِ الهَباءْ...!"

وأخيرا، فإن ديزيره سقال يعود بنا على الرغم من حداثته شكلا وأسلوبًا إلى ما يمكن أن نسميه الالتزام في الشعر، وليس الالتزام هنا مباشرًا، كما تعوّدنا أن نراه عند الشعراء الذين ذهبوا هذا المذهب، بل غير مباشر ومستمَدّ من ارتباط هذا الشاعر بحركية التاريخ، بالمفهوم الشامل للكلمة، مع ما يمازج هذا من ذاتية لا تلغي هذا الالتزام ولا تناقضه، بل تُغنيه وتُعطيه بُعدًا مميزًا...

– الدكتور جوزيف عساف –

(١٩٨٩)

تجليات اللون: قراءة وجودية للقصيدة

...اللون ليس هنا مشهدا يُرى بالعين، بل شيء زمانيّ ونفسيّ: زمانيّ لأنه يعبّر عن مرحلة تاريخية معينة، لأنه يحاول أن يتقصّى أو يبحث عن هذا الوجود – عن الكينونة.

القراءة لا تعني تكوين معرفة حول القصيدة. إنها محاولة للدخول في منطقة نفوذ القصيدة. هي محاول لانتهاك هذا المحرّم من أجل أن نضع أنفسَنا تحت سلطانها، وهذا يستدعي عملا ضدّ أنفسِنا بالدرجة الأولى، لأننا في ابتذالنا اليوميّ، في تفاهاتنا، في تَيَهاننا وضلالنا، على الدوام خارج نفوذ الشعر ومنطقته. إذًا، علينا أن نصارع ضدّ اليومي المبتذل، وصراعنا هذا نوع من تَمَلُّك القصيدة واحتيازها. هذا ما يعانيه الناقد والقارئ بالدرجة الأولى. وبالدرجة الثانية، إذا حاول الإنسان أن يعقل أيّ شيء فعليه أن يوقفه، أن يجعله ساكنًا أمامه ليحلّله. أما هذه القصيدة فتقوم على التدرُّج والحركيّة. فهي جدلية؛ ولأنها كذلك، على الناقد والقارئ أن يكون جدليا، أن يصير ويتحول مع صيرورة القصيدة وتحوّلها.

هذه الأناشيد هي، في الأساس، أربعة: الأصفر، والأبيض، والأخضر، والأحمر. إلا أنها، في الحقيقة، تنقسم إلى قسمين متوازيين

فقط، ما يعني أننا نضع الأصفر والأبيض في جانب، والأخضر والأحمر في جانب آخر. ونلاحظ كيف تقوم هذه القصيدة على الحركيّة. في نهاية القسم الأول – أي النشيد الثاني – يقول الشاعر: "كيف نصنع من لجّة الثلج زَنْدَ رجالْ؟" فيما يقول في بداية النشيد الثالث: "ينمو عليّ الأخضر المسكون باللهيبْ." هذا المفصل هو في الأساس ما يربط بين جانبي القصيدة: جانبِ سَلب الحياة ونفيِ الكينونة أو العدميّة، وجانبِ انبثاق الحياة وتأسيس الكينونة. إنه، في الواقع، النغم الأساسي الذي كان يقوم في الشاعر قبل أن يباشر الكتابة. وهو نغم خاص بالمجال الميتافيزيقي للقصيدة. وهو يستمر من أوّلها إلى نهايتها. فديزيره سقال في النشيدين الأول والثاني قد أسس، وبوضوح، للعدميّة، لمعاناة القَهر، لِسلب الحياة ونفي الكينونة. وخُذْ أيَّ ترابط لغوي من النشيدين الأولين، وأيّ صورة شعرية، وأيّ استعارة وأي تشبيه، تجد أن الدلالة التي تحملها هي نفي الكينونة أو العدمية: "الأصفر الداجي"، "أرض على شريانه الملتفّ حول مفاصلي"، "أرض على عينيه نازفتين أوراقًا وأتربةً"، "تاجٌ على عينيّ يقترف الجحيمَ وحوله كرسيّه ضاقت بها الأطراف، "يصفرّ مثل سحابة جرداء"... وقد مهّد لكل ذلك ليبدأ من الذروة. إنّه يبحث عن محل في الأرض يكون وطنًا، لا قبرًا: "إنّه الزمن الكسير يطير في قبرٍ طويلٍ، أصفرٍ... /

وطنٌ... / كلّ الغروب غروبنا / كل الغروب غروب هذا الوجه". وهو هنا في علاقة صراعيّة مع الاجتماعي والتاريخي والتراثي.

والغرابة هنا أنه يبدو ذا نزعة ماركسية، غير أن الماركسية ليست هذا الخارجَ الثقافي الذي يقول في الشاعر، بل هو الذي يعاني مع المقهورين والتائهين، ومع التراجع، لأنه يرفض وطنًا يكون وجهه وجوه أجدادنا. يريد وطنَ التغيير. الأصفر والأبيض، إذا، هما رمزان حيّانِ عن نفي الحياة – عن العدمية المطلقة.

والشاعر يتلقّى الإشارات الكونية، وأنا ضدّه حين يقول: إن الشعر حالة نفسية، فهو بذلك يحجّم شعره، لأنه فيما يقف مكشوف الرأس هنا تحت عواصف الله يلتقط الإشارات الكونية المتمثّلة بالبرق والرعد، فيرى البرق متكسرا كدمه، والدمَ متكسرًا كالبرق؛ ويعيد هذا التعبير أكثر من خمس مرات. لماذا البرق؟ لأنه لون الدم، لأنه لون النار، لأنه التهاب الحياة، والبرق متكسّر، ودمه يهاجر كما البيوت تهاجر... والجليد "نار مثلجة". أين هي الإشارات الكونية التي ينتظرها بصمت وبضجر، فهو في انتظار طويل... طويل، كما يقول؟ هذا الضجر ليس ضجر الفراغ اليومي – الخواء، بل ضجر المبدعين الذين ينتظرون حدوث شيء ما يكون هو الحقيقي. والحقيقي هو الجمالي، وهو الذي يدوم ويبقى. ثم يجد سلبَ الحياة ونفْيَ الكينونة

– وهـذا واضح في مطلـع النشـيدين الأول والثـاني. ثـم يبـدأ الشـاعر بالتشوّق، ويؤسس الوجود على الشهوة وعلى الرغبـة وعلـى اكتشـاف النقص بحثا عن امتلاء هذا الوجود: "كيف نصنع من لجّة الثلج زنـدَ رجال؟" فيُستَهَلّ النشيد الثالث بما يلي، كما سبق أن ذكرنا: "ينمـو عليّ الأخضر المسكون باللهيب." وخذ هنا أي مقطع شعري وتأملْه ترَ أنه لا يؤسس شيئا آخر غير الكينونـة والحيـاة واكتنـاز هـذا الوجـود. نأخذ المقطع الثاني من الأخضر:

"علامة: هنا الدروبُ تنحني على الخطى،
هنـا الـدروب لَيلَـكٌ وقـارةٌ مـن البراعمِ. أرتَميـتُ في
المدى. كانت يداي تغسلان الثلجَ عـن تفتُّحِ الـوردِ.
أرتماءةٌ وينبتُ الحشيشُ، تلتقي السـنابلُ الخضـراءُ.
تسـتفيقُ قـارّةُ الـبراعمِ: ألسـماءُ كوّمَـتْ غيومَـها
واشتبكت بالأفْقِ (كـانت الأشـياءُ حقـلَ أنجـمٍ علـى
ولادةِ اللون)..."

والأثير هو في الهندوسية مَثْوى الأرواح الفاضلة. والسـديم هـو الحكمة الأولى من كلمات الحياة، لا الأخيرة منـها. فـإذا تـأمّلتَ هـذا المقطعَ أتجدُ شيئا غير تأسيس الكينونة وإنشاء الوجود؟

يعني ذلك أن الشاعر التقط، على الأقل، هاتين الإشارتين من الحركة الكونية: البرق والرعد، وتوسّلهما في الكلام، وقدّم مـا توسّـله إلى الشـعب، أو لنقـلْ: إلى "دا – زايـن" الشـعب بحسـب التعبـير الوجودي، فالإنسان المتسائل عن هذا الوجود في ديزيره سقال يرى أن هذا الوجود تأسيس ماهيّـة وإنشـاء كينونـة والتئامٌ بـين ذاتـه وذات الشعب والكينونةِ بالتحديد. فالبرق قدّم له الحياةَ والنار والدم (لونـه) والدفءَ، لتكون الولادةُ، وتنهضَ الحياة. ولكن ماذا تكون الحياة أمام تيه السلطان، كما يقول ديزيره؟ قد تكون مضلّلـة ومشوّهة وعـاجزة، فكيف يجب أن تكـون هـذه الحيـاة واقعيـة في العمـق، لا في الظـاهر وحسب؟ إنّه يقرأ رسالةَ الرعـد والزلزلـة: الرعـد هـو صـوت الغضـب الآتي. إنه الثورة، وجبرية الثورة هي التي تُحـدث التغيـير، والتغيـير فعل حرّ وإضافة وتأسيس ومجاوزة، لا حركة تردّنـا إلى البـدء. وبـهذا يكون قد أسس الشاعر انتقالا من العدَميّة إلى الحيـاة أولاً، وإلى قـراءة الوجود، وإلى كتابة التاريخ الآتي، أي ليس بالكلام المبتذل اليومـي – وهو برأيي اللاواقعي – بل بالواقعي، أي بإعادة الجوهر الأساسي للغة التي هي أصلاً شعر...

– الدكتور نبيل أيوب –

(صوت لبنان – ١٩٩٤)

تجلّيات اللون:

جرح حضاري تشكّل في جدلية لونيّة

الكلام على الشعرية غير الكلام على الشعر، فكثيرا ما نقع على منظومات محاكاتية اعتمد فيها أصحابها الجمع والتركيب وبعض الصنعة التي لا تتجاوز عنصر الملاءمة في الأسلوب، وسمّوها شعرًا. فهذا النمط التقريري لا يمكن أن يكون شعريًّا، لأن الشعرية كما سنرى في مطوّلة سقال الفنّ الأصعب، ولا يرتبط فيها الشكل بسقف، بل بفضاء، ولغتها ليست اللغة الملائمة، بل الانحراف، فعلى الشاعر أن يفسّر الواقع، وأن يتجاوزه إذْ يقبض على الفاجع(الميثوس)في البنية الحضارية، ما يخلق توترا وأزمة داخلية، ويدفعنا إلى حال مقدّرة ومحتومة، وهذا ما يسمّى بتفتُّح الوعي أو التعبير عن التجربة الشعرية، وهي نتيجة التفاعل بين الداخل والخارج، على أن يُسقط التفاصيل والسببية الزمنية الخارجية لا الداخلية (النفسية)، معبّرا بالإيحاء والرمز، لا بالسرد والنقل، معوّلا دائما على الجزء للتعبير عن الكل، وفي هذا إبقاء للفعل وحركيته، فالقيمة الشعرية تتجلّى بالفعل الحي الحركي.

بعد هذا المدخل، لا بد من أن نعوّل على مستوى علاقات الشاعر بالعالم، محاولة لتقديم فهم عميق للحقيقة الصراعية الحركية التي تعكس الاختيار الوجودي في "تجلّيات اللون"، واقتفاء لرذاذ الرؤيا الشعرية فيه، من غير أن نهمل المستويين التعبيري والموسيقي، حيث يكون المسرى مسرًى نقديا سليما يهدف إلى إعادة التماس نُسوغ النص من خلال قراءته، ولا سيما أن مطوّلة سقال (مطولة الحالات الشعرية) تقرأ على مستويات مختلفة / مطولة التساؤلات، بنية القصيدة.

١ – يطالعنا اللون الأول / الأصفر، ومعه يبدأ السغب الوجودي: "يمشي إليّ الأصفر الداجي فيهجرني دمي / ... كيف يهجرني المدى؟" – إيقاع الثنائيات الضدية: الصمت العجيب، صهيل أحصنة، تاج ليل، لون دم – إرهاصات الرؤيا: "قيل: لنا دماء غير أن دِماي ليست من دماي، وليس وجهي من وجوه الأرض" – التقاط الفاجع والتصدي للظاهر التراثي: "وكل ملامح الأجداد ليست من وجوه الأرض" ضرب الزمن: "إنه الزمن الكسير" – تأجّج المعاناة والصراع مع الخارج السياسي بعد التراثي والزمني: "وطن وقد يأتي إليّ سكونه الداجي يرصّعه الرمادُ" – استمرارية في إيقاع التضادّ: "المطرة الأولى وتخفق في الضياع". رذاذ الرؤيا الطالعة من خلل

الفواجع : "يبدأ التكوين من جوع عجيب". الترابط العضوي ومستوى التوكيد: "ودماي ليست من دمايَ" – النفي الملحمي وهدم الواقع إلى جانب إيقاع التكرار: "يها الوجه الذي انتُهِكَت صواريه، يها الدمُ: كن نذيرا بانتهاكات النحاس، ومُرَّ في نفيِ العوالمِ، مُرَّ، مُرَّ، يُها الذي انتُهِكَتْ بسالتُهُ على ذهب الغروب... / كلّ الغروب غروبنا، كل الغروب غروب هذا الوجه" – تسويغ الرمز (الغروب – الهبوط، وأسلوب التدوير): "أنا الدماء تكسّرت كالبرق"... ويستمرّ إيقاع التوازن والتوكيد والتضادّ: "تاج فوق زَفْرات الرماد... / تاج فوق أنسجة الصدى، تاج على الدم واليتامى". – رؤيا التكوين: "ووجهي ليس من بين الوجوه / النعوش تجمّعت في الصبر وانفجرت / يُها التكوين لُمَّ الأصفر الداجي / جسدي دمي / ودمايَ ليست كالدماء". ويستمر الأرق والتساؤل في أحادية الجزء المعبّر عن الكلّ: "لُمَّ الأصفرَ الداجي وعبّئُه ... وبانكسارات الرغيف / ويا اصفرارات الجياع تجمّعي/ والصمت في وجه التراب قصيدة من كل دمع الضائعين" – العودة إلى الميثوس ورمز الانهيار الحضاري: "ترابنا متشقّق والصخر يرقد في العيون / نهر يميل عليّ، يحضنني بأوراق الكآبةِ". – هدم الظاهر التراثي وتبدٍّ للحضور الرؤيوي في التصميم على بعث الحياة من جديد في نهاية الأصفر: "ويستفيق الأصفر الآتي من الفلَواتِ يختصر

المدى". – إيقاع التكرار إلى جانب إيقاع الأسباب والأوتاد التي بُنيَت عليها هذه المطوّلة: "تصفرّ أعضائي ويصفرّ الصدى"...

٢ – اللون الأبيض: لا تلبث الرؤيا في اللون الأبيض "السيزيفي" أن تتأرّق بحدّة الصراع القائم مع الحضور البليد، فتبدو أسراب ضياء تحاول النفاذ من خلل العتَمات الصفيقة، ويستوقفنا في المطلع تمازج الحواسّ في تصوير مآسي الوجود، إلى جانب الإيقاعات المتمازجة بين التكرار والصوامت والمصوّتات.

طرح الشاعر المفاهيم الجمّة في خلق فضاء الإمكانات في العمارة الشعرية، وعاد إلى أفق الرؤيا محاولا تمزيقه، وبدا إيقاع التكرار المعبّر عن نزَق النفس التوّاقة أبدًا إلى الانعتاق من واقعها المأسوي: والمدى (رمز التساؤل والنجاة) "كلّ البيوت تجمّعنَ في الأبيض المزدهي وانتحَرْنَ".

٣ – اللون الأخضر: يمثل اشتعال الرؤيا والانعتاق: "ينمو عليّ الأخضر المسكون باللهيب... / كانت الأشياء زهرة أو حقل أنجم على ولادة اللون... / كانت يداي تغسلان الثلج عن تفتُّح الوردِ... / علامةٌ ويفتح السديمُ جفنَه... / أخضرٌ على العيون يمسح الجبينَ

بالندى ويلتوي على ملامح الشروق... / أخضرٌ على انتفاضة اللهاث".
ثم تنجلي رؤيا التكوين كعرائس الفجر في صحوة وبهاء، عبر الأخضر رمز الانبعاث من أعماق الموت، ورمز الحقيقة التي طالما يبحث عنها كلّ مبدع؛ وهنا يبلغ سقال الذروة الشعرية مما أوتيَ من قُدُرات على الخلق والإبداع، حيث تتبدّى من كثافة رموزه ومدلولات لغته وإيقاعات موسيقاه ورحابة انحرافات صوره، حتى لَكأنّ تضافرا حيًّا بين كل تلك القوى التي ذكرنا قد ظهر، إلى جانب الوحدة العضوية واتّحاد الكلّ في الجزء والجزء في الكلّ إلى أن علتِ الشاهقة – الملحمة في التباعد مع الرؤيا، والقبْض على الحقيقة التي تبدّت خيوطها إرهاصاتٍ متألّقة في اللونين السابقين.

لقد ظهر في الأخضر توهُّج رؤيوي لا حدّ له، فاشتعلت أحلام سقال الشاعرية، وبدا منظِّمًا للعالم، معيدًا تكوينه من جديد، حتى استراحت صوره الشعرية في فضاءات رؤاه حيث اللاسقف / اللابداية / اللانهاية (في الله الشاعر وفي الشاعر الله). ويصحّ هنا ما يعرف بتحقيق البُعد الثالث في مفهوم الحداثة.

٤ – اللون الأحمر: وهو آخر الألوان من حيث تبويب فصول المطوّلة، وهو إلى ذلك يمثل استراحة الشاعر النهائية – نسبيا – بعد

أن حقق رؤاه في اللون الأخضر، ولم يبقَ لديه في التأسيس غير تقويم عالَي الزمن والسلوك.

"كلّ جهات الأرض التمّت في جهة... / يمرّ الأحمر... / ويشجّ القدرَ الموبوء. يمر الأحمر كاللغم وينسف أطباقَ التاريخ". (ترميم الظاهر الحضاري في الكون) – ثم يصحّح الليتورجيّات والميثولوجيات ويوقظ الضمائر: "غبارٌ كلُّ بطاركة الحقد، غبار كلّ ضمير ممسوخٍ" – ويستمر في الإصلاح عبر رؤاه المنفعلة والفاعلة في الكون: يتدافع نبض الأرض. لقد امتد النص المفتوح لدى سقال ليطول الكون في رؤاه التغييرية، ما يجعلنا نلمس في المرسَلة حداثة راقية تخرج من الذات الفردية لتشمل الذات الجمعية الكلية. إنّ في شعره جرحًا حضاريا عميقا، ومأساة وجودية حادّة، تتشكّل في جدليّة حركيّة حيّة قادرة على التقاط الرعشات الهاربة من الكون، والقبض على الصراعات في كلّ أجوائها – ما يصوّر الحال النفسيّة المشتّتة المزّقة في إنسان هذا العصر، وفي قلب حضارته، وهذا ما يجعل الشاعر معبّرا عن تلك الحال في أعماقها وأبعادها، مسوِّغًا رؤاه في هدم الحاضر– الضعف، وزلزلة الإنهاك، وتعرية الحقائق، استشرافا لزمن واعٍ، أصيل، يعيد الخلق على أسس متطورة، متفتّحة، تقيم الشأن الأهمّ للإنسان. وقد

ترجّح إيقاع النشيدين بين الهينمات والنغمات الشجيّة انسجامًا مع مخاض رؤاه، وإرهاصات إبداعه...

– رشيد خليل الهاشم –

(١٩٩٤)

ديزيره سقال الشاعر وجمره

من قبل أن أرى وجهه على طريق قريتي، وأسمع صوته تحت تلك الشجرة الجارة، رأيت وجه شعره، وسمعتُ إيقاعه، وأدرك ذوقي أنّه أمام غناء آخر، وأمام قصائد مغوّرة في التراث وتُسكِرُها دهشة الآتي.

ولئن قال ناقد من هذا التراث (عيار الشعر لابن طباطبا) إنّ المحنة على شعراء زماننا في أشعارهم أشدّ منها على من كان قبلهم في القاهرة لأنهم قد سبقوا إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح، وحيلة لطيفة خلاّبة ساحرة... فإن أخانا الشاعر سقال قد انتصر على التجربة بالطبعِ الفيّاض، والفطرة المتفجّرة، والانطلاق الحر كالهواء، والمعاناة التاريخية والإنسانية. فما أن امتحن الشعر قلبه حتى أعجب بلطفه وصفائه، وأعجب بالدفق الكريم، وبلهب العشق، وعذوبة النشد.

وإمّا تأمّلت صورَه، وإيقاعاته، وإشاراته، ورقصه ما بين حقيقة هنا، ومجاز هناك، فتجدَنَّ نفسكَ أمام دم يكتب، وحياة تشتعل، ونفَس يذوب، وخيال يطير، وتجدَنَّ الفردَ لحنًا لسمفونية الأمة، يقف الهوى به حيث تقف، فلا عدل في الدمع إذا دمعت، ولا عدل في الغبطة إذا اغتبطت، فأمامنا شاعر يحرّك أوتارَه حضنُ أمّه،

وغناء أمّه، وآلام أمه، ويتحرك لكل العصر في التافه والجليل، ويتحرك لكل الكون في اللطيف والجليل.

وقد تتذكر وأنت تسمع قصائده أنّ جمره هو جمرُ "حاوي" في "بيادر الجوع"، وأن رماله هي رماله، وأن صحراءه، وصداه، ومداه، وآثار الحروق، والثقوب، والظلمة، والكبريت، وتنوّعات الوهج، والبرق، والزوبعة، والصاعقة، والشمس، والنار، وبحر الكامل والخفيف، وبحر الظلال المحرقة، وهذا النسب الحلال بين موقعين، ولغتين وموقفين، ورؤيوين ونشيدين، قد تتذكر كل هذا، لكنّ الموازنة لا تعني حرمانَ الهوية (comparer n'est pas confondre)، فالشقاء قد وحّد، والانتماء قد شدّ، والنقاء قد فتح الأبواب أمام الصراخ. الشاعران معا يصرخان، كلاهما حيّ، يصرخان طفلين وحولهما الجماهير التي "يعلكها دولاب نار"، ثم "شعب صامت كالجليد، وصمت في ضمير المدى يثقب التاريخ".

ويردّك سقال أزمنة إلى الوراء، إلى القرن الخامس ما قبل الميلاد، أو انسحِبْ أيضًا وأيضًا تتناهَ إلى أذن روحكَ تلك الأناشيد الفردية أو الجماعية مع "بندار" Pindar وسيمونيدس، وباخليدس وغيرهم، فتقف حولك قمم الغناء إمّا وصلْتَ إلى قمة نادتك أخرى، فعندك الفجيعة والفروسية معًا، وعندك التمدُّح والنواح، والتألُّق

الملحمي والقلق الوجودي؛ وعندك سحر الأسطورة وباطل الواقع، فيومذاك تاق هؤلاء إلى رجل يشقّ الطريقَ مُصعِّدًا، ورثى هؤلاء مادحين الذين كانوا حصونًا حماة واندفعوا أفواجًا أفواجًا لتظلّ أرضهم باقية على الأيام، (قصة الأدب في العالم، أحمد أمين، زكي نجيب محمود، الشعر الغنائي عند اليونان) فهل تفجُّع سقال ونشيدُ الأنشاد، غير البكاء العَدْل على أمّة لا موتاها يقومون، ولا أحياؤها يحيَون؟!

ولا بدّ أنك متسائل بعد رحيلك، لحظة يغيب الشاعر ويحضر الشعر: لماذا لم يترك سقال لفظة واحدة تجسّد الاشتعال إلا ذكرها: النار، الحمم، الجمر، الشرر، الشروق، اللهَب، اللهيب، البرق، الصاعقة، القمر، الأضواء، الفجر، الرعد، الاشتعال، الشرق، الضياء، الوهج، الشمس، اللظى، الحرارة، النجوم، الرماد، الأفلاك، الجحيم، الشظايا، الزوبعة، الاحتراق، الفحم، الكبريت... هذه اللفظات الثلاثون يقابلها عند "حاوي" في "بيادر الجوع" ثلاثون أيضًا، وهي هي، مع شبه في السياق والمقام.

ولعل وراء ذلك الشاعر الذي يعاني نمطًا من اليأس، متسرِّبًا فيه من الخارج السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني... يحاول أن يغيّر على صعيد الثورة الحالة، والحلم الثائر، فيعي بعد سفر في لاوعيه، أنّ وجدانه التاريخيّ المَخضوض يتنفّس بالشعر لا بما يبدو

مستحيلا على صعيد الواقع. فالصحراء والرمال والظلمة عناصر قائمة كالصخرة على صدره – على صدورنا. ومهما تحوّل الوجه إلى شمس، أو إلى برق، أو إلى احتراق، ومهما نهض "لوط" فالعمود الأسود قدر محتوم. وأرجّح أن كثرة اللهب ناتجة عن هذا التلهُّب الداخلي من عمق المعاناة، ومن صدق الوجدان. فالشاعر يرى بنفاذ ما لا يراه العاديون، يسكن جسدَه نورٌ خالق، يفتح آفاق عقله وخياله على الأسرار، فيتحول هو نفسه إلى شعلة تلتهب لتحيي، ترى لتُلغيَ الظلمة، وتكشف عن الآتي. والنار، وفقًا لتحليل ميرسايا إلياد، وباشلار، والشعراء كنوفاليس وغيره لا تفهم بمنأى عن الدم والحياة. هي المُطهِّرَةُ التي تُعيد الوجودَ طفلاً. إنّها تكنس القمامات عن الذات والجماعات (le feu néantit les impuretés matérielles)، كما يقول باشلار، وتعيد الخلق عندما يصبح الخلق بهذا المستوى من الزحفَطونيّة والذلّ. إنّها الحركة في مراحل الستين. لقد ظنّ سقال أنّ نار دمه يمكن أن تحيي أمّة قتلت نفسَها بيدها، كما على أهلها جَنَت براقِش، وما درى، أو درى حقا، فخسر ناره وبات مُثلِجًا، في دنيا لهيبُها بارد، كما قال.

نعم، يا أخانا الشاعر، جئنا لنصرخ معك اليوم صامتين، متذكرين قصيدة "الحرب" لنعيمة حيث يدعونا إلى دفن الأحياء أيضًا،

ومتذكّرين "حاوي" قبل الجليد وبعد الجليد، وما دام الزمان. هكذا انتهيتَ في قصائدكَ الثلاث (قصيدة الفارس، ونشيد بابل، وتجلّيات الليل والنهار في صحراء سدوم)، مكررا في الأولى صورة النار، وفي الثانية صورة الضياء، وفي الثالثة صورة سورٌ من لَهَب. فوجهك النار، ودمك الضياء، والدنيا التي أرَدْتَ سور من لهب يعصمها في دنياكَ المعصومة. كلّ هذا يبقى لنا الفنُّ الأصيل، والحلمَ المستحيل، في عالم عربيّ كلامه عسَل وفعلُه أسَل، أي شوك طويل.

وبعد، تساءل "هولدرلن" يومًا: ولِمَ الشعراءُ في هذا العصر البائس؟ أجاب: لأنهم كما كهنةُ "باخوس" هم المقدّسون في ليل العالم، فالشعراء هم صيّادو الجوهر الإلهي في عالم يغتال الله ويُلبس كلَّ ما هو جوهريٌّ ثوبَ الشقاء والفناء، وأقول إنهم، كما "بروميثيوس"، ناقلو نار الروح إلى الإنسان الغريب، الوحيد في ليل العالم البارد. فشِعرُكَ سَمْهِ معاصِرًا أو حديثًا أو جديدًا لا فرقَ عندي، المهمّ الجَمال والروح الكونيّة، والإنسان الآخر. فحداثتُكَ متينة في غنائيّتها وتراثيّتها، وحداثتك متينة في انطلاقتها وتفلُّتها وتحرُّرها. هكذا أحسنتَ في أن تكون حديثًا أصيلاً، وقريبًا بعيدًا، وأحسنتَ في أن تكون المفردَ بصيغة الأمّة التي سمّته المجهول، اليوم، الذي يسمّونه للسلام.

عسى أن يتّسع ضوؤك وضوء شعرك فينبت لك وله أجنحة!...

– الدكتور ربيعة أبي فاضل–

(تقديم أمسية في الجامعة اللبنانية، شباط، ١٩٩٦)

الشعر والغضب

يقول ديزيره سقال: "صرتُ شاعرًا يدايَ يَنبوعا شموس هاجرتْ صَقيعَها، عَينايَ آفاقُ الرؤى، والقلبُ شعلةٌ خضراء... صرتُ شاعرًا..."

ولكن ما هي وسيلةُ الوصول إلى هذه الشموس وتلك الآفاق المخضوضرة؟ وما دور الشاعر؟ وكيف يلمّ شمل الآخرين في احتفالاته؟

أسئلة كثيرة قضّت مَضجَع ديزيره سقال حول إمكانات اللغة وحدود الشعر، وصلاحية الكلمات، وشروط وجودها وتكاملها...

نقَمَ على الأنظمة التي قيّدت الشعر في مدارس مِلّة، ودرس ظروفها ودوافعها في كتب وأبحاث كثيرة، كما في كتابه "الكتابة والخلق الفني"، و"من الصورة إلى الفضاء الشعري"، وانتقد فصلَ المعنى عن اللفظ، والشكل عن المضمون، ورفَضَ الصَنعةَ والتكَلُّفَ في اختيار الوزن والقافية في الشعر القديم، ولم يغفل أهمية البساطة والسهولة والإيقاع في شعرنا، وربط الشعر ببيئته وزمانه...

انكبّ على الشعر الحديث يلتذّ بخَرْبَطاته، ويقارنه بقراءاته الغربية الغنية والمتنوّعة، ففضّل الفرقَ الكامن في بنية القصيدة الحديثة، وفي نبضها وإيقاعها المرتبطَين بحالة عامة من التوتُّر. يقول

د. سقال: "الشعر الحديث يفكّك المادة، فيما يتذوّقها، لا لِيُلْغِيَها، بل ليتذوّقها بكاملها، فيصير معه كلّ جزء من أجزائها كلاً قائما بذاته." ويبعد أكثر من ذلك، فيربطها بمفهوم النسبيّة الذي طبَع هذا القرن، يقول: "النص الحديث نص نسبيّ، يتكامل باستمرار، ولكنه لا يتكامل دفعة واحدة. إنّه مشروعُ تَكامُل، لأنّ القارئ هو من يُكمل هذا النصّ. وهو نصّ زمانيّ – مكانيّ، لأنه يحصل على شحنة حياته عندما يحتلّ موقعًا من الزمان والمكان، ويتحوّل إلى نسبة بين النسب." لا شيء ثابت؛ فالبنية والصورة قابلتان للتفكيك والتركيب من جديد. وما يخفى أهمّ مما يُقال، فيسمّيه د. سقال: "شعر القول المُغْفَل". لكنّه ليس شعر الأحاجي والتكهُّنات، بل تواصُل المعنى في المبنى عن طريق إيجاد لُحمة داخلية، كما يعبّر أدونيس، ومراعاة لخصائص الشعر في الإيقاع والرهافة وخلق جوّ من التوتُّر والبهجة الروحية، على ما يرى يوسف الخال.

لقد اهتمّ أدباء هذا العصر وشعراؤه بمشكلة اللغة، وأقروا بأن لغتنا تموت معنا وتضمحلّ معنا. كنا نظنّ أننا نبني عوالم من لغة، فإذا بنا نكتشف أنها تُربكُنا وتحدُّنا وتكوّن صورتَنا؛ فأصبح من المتعَارَف عليه المزج بين اللغة والحالة النفسية والاجتماعي...

توقِع الكلمات بنا، وتبتلعنا في مطحنة عامة، موحّدة؛ فإما أن ندع الصمتَ يعمّ، والقَهرَ يُزَوبع، وإما أن نثور على مسافات الزمان وآليّاته، ونكون، كما يعبّر د. ساسين عسّاف "ظاهرة عصر"، أي شعراء نَتَلَقّف حركات الدنيا، ونعيد خَلقها.

يكتب د. سقال في "تجلّيات اللون":

"مضت الدنيا في حقل الرعَشات – مَغيبٌ وصباحٌ، ولقاءاتٌ بين الأرض ولَمْساتِ الريح، مساءاتٌ من عشْق، ولهيبٌ يتناسَل في عينيّ وفي قلبي. يمضي النصُّ إلى النصّ، ويفتحُ جمجمة التاريخِ المُدمِن ذاكرة تتنفّس رَقْصاتِ الرفض..."

نلاحظ، إذًا، إنّ إعادة النظر تُضطَرُّ الشاعر إلى خلق عوالمَ جديدة، مَنسيّة ومُغفَلَة فتكون بصورة حتمية ثائرة: "يداي سيول الشعر تُطَرِّزُ فجرَ التكوين..." فلا شيء ثابت، بل يتحول مع الزمن، فإذا هو قلق، مُقلِق. ويتساءل سقال في بيان كتابه "رؤيا لتاريخ أبي عبد الله": أليست القصيدة مشروعًا لتحقيق ذات الإنسان عن طريق تفجير أقصى الممكن، وإلغاء حواجز العقل، وكسر ما كان يُحظَر البحث فيه؟... إنها حالة تخريبيّة ضرورية لاختراق الواقع، بعيدا عن الرومنسية أو الزيف، للمجاهرة والتصريح.

وهكذا يرى سقال أنّ اللغة الحديثة "تكون حالا من حالات خلق العالم الجديد، تولد باستمرار مع ولادة الحالات النفسية البشرية. ومن خلال هذه اللغة، تتشكّل تجربة الإنسانية في مساحة النص." هل نستطيع أن نتصوّر كسرًا وبناء كهذين من غير واقع ومضمون مَعيش وواعٍ؟ لم يستطع شاعرنا أن يكون على هامش مشاكل عصره، أو قاصرا همومه على ميادين محدّدة، فكان "الشاهد" الديناميكي المحرّك لضمائر الناس وكرامتهم...

لقد خضنا تجربة مُرّة مع الحرب، واعتدنا التقبُّل لأن الرفض كان محالا في ظلّ القوة العنيفة حتى أقصى حدود العنف، والظلم الأعمى المنفجر...

أصابنا خَدَر، ونسيت وظائفنا الإدراك والانتباه، أو ردّات الفعل... فصُدِمنا، وصمتنا، كما صغرنا أمام الفضاءات والنجوم الأخرى، وضاقت الأرض... ربما بات علينا استعادة تلك الوظائف، فحاجتنا إليها ملحّة...

كتب عقل العويط إنّ "القليل من الأسئلة المثيرة يحرّك المياه الراكدة في حياتنا الثقافية، ويجعلها تبحث عن الماء الأنقى، ولو كان البحث مُضنِيًا، ومن النبع البعيد والقَصِيّ..." القليل من الأسئلة عن

كل شيء، وفي كل شيء، يجعلنا على مقربة من ذواتنا، فنتصالح معها، ونعود إليها من اغتراب طويل.

يجعلنا شعر سقال نقترب أكثر فأكثر من تلك الثورة، لنشعر بها تنفجر فينا، فتنقلنا من عالمنا المتواضع الذي قلّصه "ملوك الطوائف"، وقزّمَتْه "العروش" إلى عالم المسافات والضياء – عالم الأحلام والإيمان بإمكانية تحطيم الهياكل، وكَسْر الأغلال...

– الدكتورة نجاة الصليبي –

(تقديم أمسية "قراءات الغضب" – ١٩٩٧)

الفهرس

– المجموعة الأولى: رؤيا لتاريخ أبي عبد الله

• بيان الشعر ص ٣

• محاولة للدخول إلى تاريخ أبي عبد الله ص ١١

• مداخل إلى تاريخ أبي عبد الله

• مدخل أول ص ١٥

• مدخل ثان ص ١٥

• مدخل ثالث ص ١٦

• مدخل رابع ص ١٦

• مدخل خامس ص ١٧

• مدخل سادس ص ١٨

١ – الخروج ص ١٩

٢ – رقع من تاريخ أبي عبد الله ص ٢٦

٣ – شواهد من تاريخ أبي عبد الله ص ٤٦

– المجموعة الثانية: كتاب الشاهد

• مداخل ص ٥١

• قصيدة الشاهد ص ٥٤

• عصر المهرّج ص ٦١

• كيمياء موت لعذاب سيزيف ص ٦٦

• الميت ص ٦٩

• الحطام ص ٧٢

• الصلصال ص ٧٥

• ملحق: أشياء الصلصال

• الهاوية ص ٨١

• مساحات الغباء ص ٨٢

• الجسد ص ٨٤

– المجموعة الثالثة: كتاب ملوك الطوائف

• ملوك الطوائف ص ٨٧

• بكائية لملوك الطوائف ص ٩٤

• قبور لملوك الطوائف ص ١٠٠

– المجموعة الرابعة: كتاب إسماعيل

• مدخل إلى إسماعيل ص ١٠٥

• نشيد إسماعيل ص ١٠٧

• مرثية إسماعيل ص ١١٩

– المجموعة الخامسة: كتاب بابل

١ – لوحات

•لوحة ص ١٣٠

•لوحة ص ١٣٣

•لوحة ص ١٣٤

٢ – قصيدة بابل (أو رحلة جلعاد) ص ١٣٥

– المجموعة السادسة: كتاب السندباد

•عندما هاجر السندباد وعاد ص ١٤٩

•عودة السندباد ص ١٥٥

•السندباد الأخير ص ١٦٠

•حطام السندباد ص ١٦٧

•موت السندباد ص ١٦٩

•سندباد الرحلة المستحيلة ص ١٧٤

•رؤيا السندباد ص ١٨٠

•السندباد والتاريخ ص ١٨٥

– المجموعة السابعة: كتاب الزمن المكسور

– الزمن المكسور

•أرض ص ١٩٠

•الأرض ص ١٩٣

•تجلّيات عروة بن الورد في مملكة الصعاليك ص ٢٠١

•قريش ص ٢٠٨

– الخروج من الزمن المكسور

•رحلة نوح ص ٢١٤

•فارس العالم الجديد

١ – عناوين الحالة ص ٢٣١

٢ – قصيدة الفارس ص ١٣٤

– المجموعة الثامنة: كتاب الحرب

•قصيدة الشيء ص ٢٤٦

•الهباء ـ ص ٢٥٧

•الصقر والحجر ص ٢٦٣

•قيامة ص ٢٦٨

•نهر الموت ص ٢٧٢

– المجموعة التاسعة: تجلّيات اللون

– بيان الشعر الثاني ص ٢٧٩

– تجليات اللون

١ – الأصفر ص ٢٨٤

٢ – الأبيض ص ٢٩١

٣ – الأخضر ص ٢٦٨

٤ – الأحمر ص ٣٠١

– المجموعة العاشرة: كتاب المراثي

• المرثاة الأولى: قصيدة المتنبي الأخيرة ص ٣٠٩

• المرثاة الثانية: معلقة عمرو بن كلثوم الثانية ص ٣١٤

• المرثاة الثالثة: عودة تأبط شرًّا ص ٣٢٢

• المرثاة الرابعة: مرثاة مملكة الصعاليك ص ٣٢٨

• المرثاة الخامسة: مرثاة الشيء ص ٣٣١

• المرثاة السادسة: قصيدة الأطلال ص ٣٣٤

• المرثاة السابعة: مرثاة لعصر خليل حاوي (أو قصيدة الترجمان) ص ٣٣٨

• المرثاة الثامنة: مرثاة لملوك الطوائف ص ٣٤٠

– المجموعة الحادية عشرة: كتاب الغضب

• حقول الغضب ص ٣٤٩

• مدينة الأشباح

١ – مشاهد من مدينة الأشباح

١ – الشمس ص ٣٥٨

٢ – الأرض ص ٣٥٩

٣ – البشر ص ٣٦١

٢ – في مدينة الأشباح ص ٣٦٢

• مشاهد ص ٣٧١

• سمفونية بابل (أو نشيد الفداء) ص ٣٧٥

• تجليات الليل والنهار في صحراء سدوم ص ٣٨٤

• غضب موسى ص ٣٩٩

• جهنّم ص ٤١١

– ملحق: قراءات في شعر ديزيره سقال

– الشعر الجديد ورؤيا ديزيره سقال (لجوزيف أبو شقرا) ص ٤٢٥

– ديزيره سقال تجربة مكمّلة (لربيعة أبي فاضل) ص ٤٢٩

– كتاب الشاهد ويليه كتاب ملوك الطوائف (للدكتور جوزيف عسّاف) ص ٤٣٤

– تجليات اللون: قراءة وجودية (للدكتور نبيل

أيوب) ص ٤٣٨
- تجليات اللون: جرح حضاري تشكّل في جدلية
لونية (رشيد خليل الهاشم) ص ٤٤٣
- ديزيره سقال الشاعر وجمره (للدكتور ربيعة
أبي فاضل) ص ٤٥٠
- الشعر والغضب (للدكتورة نجاة الصليبي) ص ٤٥٥